

د . عبد الرحمن مرعي

العربية والعبرية في الماضي والحاضر

دراسة مقارنة في تطور اللغتين والتفاعل بينهما



إصدار:

مجمع القاسمي للغة العربية وآدابها

أكاديمية القاسمي (م.ج)

كلية أكاديمية للتربية

2010



د. عبد الرحمن مرعي

العربية والعبرية في الماضي والحاضر
دراسة مقارنة في تطوّر اللّغتين والتفاعل بينهما

الطبعة الأولى، 2010

جميع الحقوق محفوظة

إصدار: مجمع القاسمي للغة العربية وآدابها

أكاديمية القاسمي (ج.م) - باقة الغربية

الإهداء

إلى روح والدي الغالي الذي رحل عن عالمنا

قَبِيل إصدار هذا الكتاب إلى النور.

غبت عنا رحمك الله، ولكن ما يواسيني، أنّك زرعت في نفسي

حبّ العلم والمثابرة والتفاني في العمل، أعطيتني ووفّرت لي

من الأسباب والظروف ما لم يعطه مخلوق لمخلوق.

جزاك الله كلّ الخير، وأسأل الله تعالى أن يسكنك فسيح جناته

بصحبة الصّالحين والصّديقين والشّهداء،

إنّه على كلّ شيء قدير وبالإجابة جدير.

وَسِعْتُ كِتَابَ اللَّهِ لَفْظًا وَغَايَةً
فَكَيْفَ أَضِيقُ الْيَوْمَ عَنْ وَصْفِ آلَةٍ
أَنَا الْبَحْرُ، فِي أَحْشَائِهِ الدُّرُّ كَامِنٌ

وَمَا ضِيقْتُ عَنْ آيٍ بِهِ وَعِظَاتٍ
وَتَنَسِيْقُ أَسْمَاءٍ لِمَخْتَرَعَاتٍ
فَهَلْ سَأَلُوا الْغَوَاصَّ عَنْ صَدَفَاتِي

(حافظ إبراهيم)

إِنَّ الَّذِي مَلَأَ اللُّغَاتِ مَحَاسِنًا

جَعَلَ الْجَمَالَ وَسْرَهُ فِي الضَّادِ

(أحمد شوقي)

"إِنَّ اللُّغَةَ هِيَ الْأُمَّةُ، وَالْأُمَّةُ هِيَ اللُّغَةُ، وَلَا حَيَاةَ لِلْأُمَّةِ بَدُونِ لُغَةٍ".

(إليعيزر بن يهودا)

المحتويات

vii	جداول
1	بين يدي الكتاب
3	تمهيد
13	الفصل الأول: مدخل إلى علم اللغة المعاصر
13	توطئة
15	اللغة والقومية
21	اللغة والثقافة
25	علم اللغة المقارن
28	اللغة تتطور بدون توقف
32	اللغة في ظل صراع البقاء
36	الجدل حول مكانة اللغات في الدولة الحديثة
38	التنوع والتطهير اللغوي
40	الهويات المقهورة في منطقتنا
45	تصنيف اللغات
48	التشابه اللغوي بين العربية والعبرية
59	الفصل الثاني: اللغتان على مدار الزمان
59	الفرش التاريخي
59	اللغة العربية في الجاهلية والإسلام
65	تراجع العربية ونشوء الازدواجية اللغوية
67	العربية القديمة واللغات اليهودية
73	الصراع اللغوي: استمرار العربية الفصحى وإحياء العبرية

73	الصّراعات الداخلية والخارجية التي خاضتها اللغة العربية
73	أ- الدائرة الأولى: الازدواجية اللغوية
78	ب- الدائرة الثانية: اللهجات المحلية (اللسان الدارج)
80	ت- الدائرة الثالثة: الاستعمار ومزاحمة اللغات الدولية
86	إحياء العبرية وصراعها مع اللغات الأوروبية
89	مراحل انبعاث العبرية
89	أ- مرحلة عصر النهضة
91	ب- مرحلة إحياء العبرية كلغة مخاطبة
98	ت- مرحلة التبلور النهائي والإعلان عن قيام الدولة
102	الصّراعات الداخلية ضد إحياء العبرية
104	حرب اللغات
109	التشابه والاختلاف في إحياء العربية الفصحى والعبرية
111	موقع اللغتين من خريطة العالم
119	الفصل الثالث: قضايا عصرية واجهت اللغتين
118	استحداث الألفاظ
126	التأثير في لغات أخرى
127	التأثر باللغة الانجليزية
133	الخليط اللغوي في عناوين اللافتات التجارية
138	مشكلة الأمية
142	الترجمة وإصدار الكتب
143	ظاهرة الضعف والتعثر اللغوي
149	التحوّلات والتغيرات الدلالية والبنوية في اللغة
155	التغيرات في اللغة العبرية

أ -	تغييرات في الألفاظ قبل قيام إسرائيل	155
ب -	تحوّلات في مفردات بعد قيام إسرائيل	156
ت -	المصطلحات العسكريّة	156
ث -	لغة الكمبيوترات	158
ج -	لغة الحريديم - الأرثوذكس	159
	دور المجامع اللغويّة في حلّ الإشكالات	161
أ -	المجامع اللغويّة في الدول العربيّة	161
ب -	المجامع اللغويّة في إسرائيل	165
	الفصل الرابع: هيمنة العبريّة وتمهيش العربيّة	171
	تعزيز مكانة اللغة العبريّة	171
أ -	فترة الإحياء قبل قيام إسرائيل	171
ب -	سيطرة العبريّة بعد قيام إسرائيل	173
	تمهيش اللغة العربيّة	176
	تضييق الخناق على اللغة العربيّة	180
أ -	مرسوميّة اللغة العربيّة شكلية	180
ب -	محاولات لإلغاء مرسوميّة اللغة العربيّة	181
ت -	مشروعيّة العربيّة في أروقة المحاكم الإسرائيليّة	183
ث -	العربيّة هي لغة رسميّة بالاسم	186
ج -	التأكيد على مركزيّة اللغة العبريّة	186
	تعزيز الثقافة اليهوديّة	187
	طمس المعالم العربيّة	190
	إسرائيل ما بين أحاديّة اللغة وتعددّها	195

203	الفصل الخامس: اللغة في ظلّ الشّروخ المتباينة داخل المجتمع الإسرائيليّ.....
203	الصّراع القوميّ بين العرب واليهود.....
205	التباعد اللغوي بين الشّعبين
205	أ- التقيّيدات الاجتماعيّة
205	ب- السّكن المنفصل
208	ت- العامل الدينيّ
208	ث- الاختلاف الثقافيّ
209	ج- رموز دولة إسرائيل
214	ح- الوثائق الرّسميّة
217	خ- تجاهل العربيّة
218	د- إطلاق تصريحات عنصريّة ضد العرب في الملاعب
220	عوامل تدعم التقارب اللغويّ بين الشّعبين
220	أ- الأصل السّاميّ المشترك.....
221	ب- الاختلاط اليومي بين الشّعبين
221	ت- دراسة اللغتين في المؤسسات الأكاديميّة
222	ث- إنشاء مدارس ثنائيّة اللغة
224	ج- طرح مبادرات ودعمها
224	ح- مشاريع تربويّة وفنيّة مشتركة
226	الاستقطاب السياسيّ داخل الأحزاب اليهوديّة.....
227	أ- الخطاب السياسيّ
231	ب- الدّعاية الانتخابيّة

236	الفصل السادس: مجابهة المواد التعليمية والثقافية والدينية لدول الغير
236	مناهج التدريس والصّراعات السياسيّة - الثقافيّة
239	التغييرات في مناهج التدريس
241	مواجهة إسرائيل مناهج التدريس في الدول العربيّة
242	أ - مناهج التعليم للمواطنين العرب عام 1948
244	ب - مناهج التعليم في مصر والأردن وسوريا عام 1956
245	ت - مناهج التعليم في الضّفة والقطاع والجولان بعد حرب 1967
247	ث - مناهج التعليم في مصر والأردن بعد توقيع اتفاقيات السلام
248	الجدل حول مناهج التدريس في السلطة الفلسطينيّة
254	إقحام المواد الدينيّة في لبّ الصّراع
254	الحرب على الإرهاب في السّياق اللغويّ
261	ترجمة القرآن للعبريّة
264	الخاتمة
272	المراجع
297	الفهارس
297	فهرس الآيات القرآنيّة
299	فهرس الأحاديث النبويّة الشريفة
300	فهرس الآيات التوراتيّة
303	فهرس آيات الإنجيل

جداول

الجدول	الصفحة
جدول رقم 1: مفردات متشابهة في اللغات السامية شكلاً ومعنىً	48
جدول رقم 2: جدول حساب الجُمْل في الأبجدية العبرية والعبرية	54
جدول رقم 3: الفرق بين اللغة الفصحى واللغة العامية	79
جدول رقم 4: وجه الشبه في إحياء كل من الفصحى والعبرية الحديثة	109
جدول رقم 5: نماذج من تعابير لغوية دارجة بالعبرية مترجمة من الإنجليزية	125
جدول رقم 6: مفردات عبرية خاصة بلعبة كرة القدم فترة الانتداب البريطاني واليوم	129
جدول رقم 7: اختلاف في الاستخدام الدلالي للمفردات في العصر الحاضر	153
جدول رقم 8: التغييرات في أنماط التعبيرات الاصطلاحية	154
جدول رقم 9: استبدال ألفاظ عبرية بأخرى تكوّنت قبل قيام الدولة	155
جدول رقم 10: تحوّل في بنى مفردات معينة في سنوات التسعينيات	156
جدول رقم 11 : مقارنة بين المصطلحات القتالية القديمة والحديثة	157
جدول رقم 12 : تطوّر المفاهيم اللغوية في الكمبيوترات	159
جدول رقم 13: رأي المستطلعين اليهود بالنسبة للسكنى مع العرب	207
جدول رقم 14 : تبديل تعابير لغوية خاصة باليهود الشرقيين	233

بين يدي الكتاب

عندما تتفرع اللغات من أصل واحد، كاللغات السامية، فإنها تكون قريبة من بعضها البعض، وتتشابه في بنيتها النحوية ومفرداتها وحركاتها ودلالاتها، وتشكل بطبيعة الحال وسيلة سهلة للتقارب والتواصل اللغوي والثقافي بين الشعوب، الناطقة بتلك اللغات في حالة السلم؛ ولكنها تتحول إلى وقود لإشعال فتيل النزاع في حالة الحرب.

تعد المقاربة اللغوية- الثقافية بين العربية والعبرية من الموضوعات الفريدة في مجال الأبحاث الحديثة من حيث الزمكانية، إذ استطاعت هاتان اللغتان اجتياز محن الدهر في صراعهما على البقاء، والالتقاء في مواطن جغرافية مختلفة، وعلى مدى حقبات زمنية متباعدة.

ففي كتابي "الأدب العبري في الأندلس بين التقليد والتجديد" الذي نُشر عام 2008، ناقشت التقاء العرب واليهود على الأراضي الأندلسية الرغيدة، والذي امتد على مدى ثمانية قرون ونيف. لقد ضرب هذا اللقاء المثل الأعلى في المعاملات الإنسانية والتسامح الديني، وساهم في تطوير الأدب العبري واللغة العبرية، وانتهت هذه الحقبة بطرد العرب واليهود من الأندلس عام 1492.

وفي هذا الكتاب، سيتم تسليط الضوء على التفاعل اللغوي بين العربية والعبرية في الماضي والحاضر من جوانب عدة، وذلك بغية إتمام البحث في هذا الباب. ثمة قضايا عصرية مشتركة وقفت حاجزاً منيعاً أمام تطور اللغتين، ومن أهمها: الصراعات الداخلية والخارجية التي جابهت اللغتين، والمتمثلة في استمرارية العربية الفصحى وإحياء العبرية، واستحداث الألفاظ، ومزاحمة اللغات الأجنبية، وظاهرة الضعف والتعثر والخليط اللغوي وغيرها.

أثر الصراع العربي الإسرائيلي بشكل مباشر على مكانة اللغتين العربية والعبرية في إسرائيل، فأصبحت العبرية اللغة المهيمنة، بينما تحولت العربية إلى لغة هامشية تخدم الناطقين بها. ومع مضي الوقت، شهدت اللغتان تبادلاً في المفردات والمصطلحات، بعد أن كان التأثير في بدايته أحادي الجانب من قبل العرب.

يعالج هذا الكتاب قضايا مشتركة في اللغتين العربية والعبرية في القديم والحديث، آملاً أن يفتح نافذة أمام الباحثين لاستكمال الجوانب الهامة الأخرى، التي لم يتسع المجال لمناقشتها، رامياً من وراء ذلك إلى أن يجمع ما بين طياته ما يأمل فيه مثقف عام، وما يتطلع إليه دارس متخصص.

بودي أن أشكر الدكتور ياسين كتاني، رئيس مجمع القاسمي للغة العربية وآدابها، على اهتمامه ومتابعته لإخراج هذا الكتاب إلى النور.

وأخيراً أقول، عسى الله أن ينفعنا بقوله حق في هذا الكتاب، ويرشدنا إلى وقفة صدق، ويوفقنا في نشر العلم والمعرفة.

المؤلف

تمهيد

تحتل اللغات المحكية والمكتوبة في معظم دول العالم باهتمام كبير، ويعتبرها البعض من الكنوز القومية الأساسية الداعمة لكيان دولة إسرائيل ومؤسساتها، ولا تقل أهميتها عن الثروة الطبيعية التي تمتلكها الدولة، كالمياه والنفط والمعادن وإلخ.

يسهل إتقان اللغة وإعلاء شأنها على المواطنين الحصول على حقوقهم، وعلى احتياجاتهم اليومية من الجهات الخاصة والعامة في الدولة، ويدعم التكافؤ والتماسك الاجتماعي بين أفراد المجتمع، على مختلف انتماءاتهم الفئوية والعرقية. وهذا بدوره، يدفع عجلة التطور الاقتصادي والتجاري والثقافي إلى الأمام، بل نقول أكثر من ذلك، إن الرقي الحضاري لمجتمع ما يقاس بكثرة اللغات وتعددّها. بمعنى، أن ازدياد عدد المواطنين الناطقين بعدة لغات محلية وعالمية *capicity language*، كما هو متبع في أوروبا، يعد إنجازاً حضارياً مشرفاً، تفتخر به الدول، لأنها وظفت له الموارد الاقتصادية والتربوية اللازمة، وساهمت في نشر وإثراء الثقافة اللغوية بين صفوف مواطنيها.

أثارت الدراسات التي نشرتها بالعربية والعبرية، حول "تأثير الأدب العربي على الأدب العبري في العصور الوسطى"، وفي "سياسة التربية اللغوية حيال المواطنين العرب في إسرائيل حديثاً"؛ الفضول في نفسي، بل وحفزتني لتوسيع إطار الدراسة لتشمل جميع الجوانب اللغوية العامة، واللغوية السياسية، والثقافية الأدبية، التي تبلورت من خلال اللقاء اليومي بين الشعيين، العربي واليهودي، في المؤسسات التعليمية وأماكن العمل والمكاتب الحكومية والمناسبات الاجتماعية¹.

¹ في حالات كثيرة يُنظر إلى العرب المواطنين في إسرائيل والعرب في العالم العربي، وكأنهم في بوتقة واحدة، وتُنسب إليهم صفات مشتركة في تعاملهم مع إسرائيل أو في رؤيتهم لها.

ومما دفعني إلى ذلك، أيضًا، قيامي بنشر إحدى الدراسات في المقاربة اللغوية التي صدرت في "الرسالة"، دورية المعهد الأكاديمي لإعداد المعلمين العرب في كلية بيت بيرل، واطلع عليها القراء من الدول العربية المجاورة عبر الإنترنت، وكان ردهم عليها "نريد مزيدًا من هذه الدراسات". فالعالم العربي، ما زال يجهل الكثير عن المجتمع الإسرائيلي عامة، وعن وضع الأقلية العربية الفلسطينية في إسرائيل خاصة، وعن مدى تفاعلها على المستويين اللغوي والثقافي داخل المجتمع اليهودي، الذي يشكل الأغلبية في الدولة العبرية².

هذا التفاعل، يقع تحت وطأة المتناقضات المثيرة للجدل، ومتأثر بالاختلاف الواضح بين الشيعين من حيث اللغة والدين والقومية. كما، يعيش المواطنون العرب في دولة موجودة في حالة عداا وصراع فعلي مع الأمة العربية التي ينتمون إليها. إذ تعدى هذا الصراع الستة عقود، وترسخت جذوره في بداية العشرينيات من القرن المنصرم. ثمة من يؤمن من اليهود أن الدول العربية تهدد كيان الدولة، وهذا الأمر ينعكس سلبًا على الحقوق المدنية للمواطنين العرب، ومن ضمنها اللغة العربية ورفض تعلمها في المدارس العبرية، وعدم احترامها كلغة رسمية في المؤسسات الرسمية والشعبية، ناهيك عن توتر العلاقات في المعاملات اليومية بين الشيعين داخل الدولة العبرية.

مكانيًا وزمنيًا، مر التفاعل الأدبي - اللغوي بين العرب واليهود في ثلاث حقبات متباعدة فيما بينها (مرعي، 2008):

² تقع على عاتق الأكاديميين الفلسطينيين العرب داخل إسرائيل مسؤولية كبرى في دراسة أحوالهم وأحوال الشعب اليهودي على الصعيدين الداخلي والخارجي، من حيث الأحداث الاجتماعية والسياسية، والمناحي المعيشية واللغوية، ونقلها إلى العالم عامة والعرب خاصة. إذ يعتبر هؤلاء الأكاديميون المصدر الأول في نقل المعلومات الدقيقة، لا سيما وأنهم يعلمون الكثير عن العادات والتقاليد اليهودية، ويطلعون على ما يجري على الحلبة السياسية من تباين في الآراء والمواقف بين الأحزاب اليمينية واليسارية.

الحقبة الأولى - العصر القديم في الجاهلية، حيث تحدث اليهود العربية واشتهروا بكتابة الشعر، وعلى رأسهم السموأل بن عاديا و الحقيق بن الربيع وغيرهم، وتم تدوين أشعارهم في المراجع العربية كجزء لا يتجزأ من الشعر العربي القديم.

والحقبة الثانية- العصور الوسطى، نشأت وترعرعت على الأراضي الأندلسية، ولعل ما يميزها أن اليهود كانوا أقلية والعرب أكثرية، وكان التأثير اللغوي بينهما أحادي الجانب، بمعنى، أن الأكثرية الإسلامية لم تتأثر من اللغة والحضارة العبرية، بينما تأثر اليهود بالعربية، الأمر الذي أدى إلى تطور العبرية على المستويين اللغوي والأدبي، بطريقة لم تعدها العبرية من قبل. كما وتميزت هذه الحقبة بالتآلف، إذ حظي المجتمع اليهودي بمعاملة حسنة وساد التسامح الديني تحت الحكم الإسلامي.

والحقبة الثالثة- الفترة الحديثة التي نعاصرها اليوم، وقد ابتدأت منذ مطلع القرن العشرين في فلسطين. إن الأمور السائدة متداخلة ومحصلتها متعددة الاتجاهات؛ فالعبرية تقوم بدور مزدوج في آن واحد، فهي تمثل لغة الأقلية في الشرق الأوسط لأنها محاطة بجميع الدول العربية، ولكنها في الوقت ذاته تمثل لغة الأكثرية في دولة إسرائيل.

وامتازت هذه الفترة، منذ لحظتها الأولى، بصراع دامٍ وتباعد وتنافر لا مثيل له بين الناس. وإن كل المساعي السلمية التي بُذلت حتى الآن لرأب الصدع، تتأرجح تارة بين اتفاقيات مرحلية هشة، تبعث بصيصاً من الأمل. وتارة أخرى، بين عنف قاتل يرهب الناس بقسوته، محطاً ذلك الأمل الوهمي، ومخلفاً وراءه معيشة ملؤها الخوف وفقدان الأمن الشخصي.

هذا التصارع الخارجي له الأثر الكبير على الحلبة اللغوية، ويؤدي إلى تصادم مباشر بين اللغتين. وكما ذكر أمانة ومرعي (2008: XIII):

إن اللغة كغيرها من الموارد، تُستخدم في الصراع كإحدى الأدوات الهامة. فبالإضافة إلى تأثيرها المادي هنالك أيضًا التأثير الرمزي، ففي الصراع العربي- الإسرائيلي تم استحداث واحتكار مصطلحات لغوية لخلق مفاهيم لغوية معينة تلائم أيديولوجية كل طرف، والتي تهدف إلى التأثير على مفاهيم الناس وإدراكهم في التعاطي مع الحقائق الميدانية.

وقد أشار الباحث الفلسطيني ياسر سليمان في إحدى دراساته إلى مسألة اللغة (Suleiman, 211: 2004) مؤكداً على "أن التصادم بين العربية والعبرية من أقل المظاهر المدروسة في الصراع العربي- الإسرائيلي".

في الحقيقة، ليس من السهولة بمكان دراسة الواقع اللغوي في إسرائيل لأسباب عدة: تتناول الدراسة قضايا حساسة، وكل من الباحث اليهودي أو العربي يعبر عن أفكاره، التي تحدم قضية شعبه على المستوى القومي، أو كأداة للتعبير عن آرائه على المستوى الشخصي. وغالبًا ما تكون نقطة الانطلاق للدراسة ناجمة عن دوافع ذاتية غير موضوعية، الأمر الذي يتنافى مع النهج العلمي، المتبع في الأبحاث الأكاديمية³.

إزاء هذا الإشكال، وضعت نصب عيني النهج الموضوعي، كركيزة أساسية في طرح الموضوعات التي تشكل أساسًا متفاوتًا في التعامل اللغوي. ولهذه الغاية، اتبعت أسلوب الدراسة المقارنة، لأن الباحث العربي في العالم العربي، واليهودي في إسرائيل غالبًا لا يعرف أحدهما لغة الآخر، ويكتب عما يختلج في صدره هادفًا خدمة قرائه، دون التطرق إلى وجهة نظر الغير.

تجنيء المقاربة اللغوية لتظهر ماذا يفكر كل طرف عن الآخر، ولقد اتبعت نهجًا في عرض المقارنة:

³ تجدر الإشارة إلى أننا نعيش في عصر تلعب فيه اللغة دورًا رئيسًا في تفسير هذه الأحوال، بحيث يتم تطويعها لخدمة الأهداف الأيديولوجية والسياسية التي تتبناها الدولة.

النهج الأول- المقارنة المباشرة، أي تبيان المشترك والمختلف في القضية المعروضة على بساط البحث.

والنهج الثاني- المقارنة غير المباشرة، أي دراسة كل موضوع على انفراد، ومن ثم تلخيص ذلك بنقاط مختصرة أو بجدول، وفق نوعية المادة المدروسة.

مما لا شك فيه، أن الوضع اللغوي في إسرائيل يتم بين طرفين غير متكافئين: الأغلبية وهم الطرف القوي، والمعلوم أن القوي هو من يقرر قواعد اللعبة، المتمثلة في فرض أيديولوجيته اللغوية وجعلها المهيمنة في جميع المجالات الحياتية؛ والآخر نقيضه، وهم الأقلية، أي الطرف الضعيف المهمش سياسياً، وهو المغلوب على أمره، ويسعى جاهداً للحفاظ على هويته وكيونته من خلال إعلاء شأن لغته.

على الرغم من أن العبرية والعربية معرفتان كلغتين رسميتين في إسرائيل، إلا أن العبرية هي المهيمنة في جميع المناحي الرسمية. إن الواقع أقوى من الجانب القانوني الذي تتمتع به اللغة العربية، فالدولة تتجاهل العربية، وتنشر جميع موادها الرسمية بالعبرية. وإن المواطن العربي يعيش في دوامة التناقض اللغوي المفروض عليه. فهو من جهة، يرى بلغته الفصحى المعيارية وسيلة تلي طموحاته القومية والذاتية، ولكن يصعب عليه إتقانها؛ ومن جهة أخرى، يسير في فلك العبرية ويتأثر من مفرداتها اللغوية، بحيث تصبح جزءاً لا يتجزأ من مخزونه اللغوي.

للغة حضور قوي في نفسية الإنسان وكيان الأمة، فهي تعبر عن الآلام والأحلام والمشاعر الذاتية والوطنية. وهنا تحضرني مقولة الشاعر الفلسطيني المرحوم محمود درويش، عندما كان محاصراً في رام الله عام 2002، ودخلت القوات الإسرائيلية المدينة واحتلتها من جديد، إبان الانتفاضة الثانية (انتفاضة الأقصى). ويقول عن هذا الحدث الرهيب (درويش، 2002):

لم تكن لدي طريقة مقاومة إلا أن أكتب، وكلما كتبت أكثر كنت أشعر أن الحصار يبتعد، وكانت اللغة وكأنها تبعد الجنود لأن قوتي الوحيدة هي قوة لغوية.

إن الطرح الذي تناوله الكتاب يركز على ثلاثة محاور رئيسية:

المحور الأول- تعقب المراحل السنكرونية والديكرونية التي مرت على اللغتين العربية والعبرية، منذ نشأتها وحتى عصرنا الحالي، والصراعات الداخلية والخارجية التي خاضتها، من أجل البقاء على الخارطة اللغوية. هنالك ظروف ووقائع متشابهة واكبت إعادة مكانة العربية الفصحى وانبعاث العبرية المحكية.

المحور الثاني- تسليط الضوء على مواقف جابهت اللغتين بعد استرجاعهما كلغتين منطوقتين، هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى، مناقشة التصادم بين اللغتين داخل دولة إسرائيل وخارجها. ففي إسرائيل أضحت العبرية اللغة المسيطرة في جميع المناحي الحياتية، بينما تحولت العربية إلى لغة هامشية، سعت المؤسسة إلى تغييبها من المشهد اللغوي، وتضييق الخناق عليها من خلال طمس المعالم العربية وسلب مكانتها القانونية.

المحور الثالث- تعمق في دراسة أثر اللغة في المسائل السياسية والدينية، من الجانب الإسرائيلي، على الصعيدين المحلي والخارجي. ففي الداخل الإسرائيلي يجسد الخطاب السياسي الشروخ القومية والإثنية والحزبية المتباينة والمتفاوتة بين شرائح المجتمع الإسرائيلي. وما يخص المنحى الخارجي، تحاول الدولة العبرية التدخل في مناهج المواد التدريسية التي يدرسها الطلاب العرب في دول الطوق. بل أكثر من ذلك، تنتقد إسرائيل الآيات القرآنية التي تذكر اليهود بالسياقات السلبية، وتسعى إلى شطبها من الكتب التعليمية، بحجة أنها تثير الضغينة والحقد في النفوس تجاه اليهود.

يشتمل الكتاب على ستة فصول مبوبة وفق الترتيب الآتي:

يستعرض الفصل الأول الإطار النظري، والذي يسلط الضوء على الموضوعات التي تمت مناقشتها في جميع فصول الكتاب. وهذه الموضوعات، دراسة علم اللغة الحديثة ومدى مساهمته في نشأة اللغات الحديثة؛ والدراسات اللغوية المقارنة وتصنيف اللغات؛ اللغة وعلاقتها بالجانب القومي والثقافي؛ تطور اللغة وقدرتها على صراع البقاء؛ والتشابه البنيوي والمعنوي بين العربية والعبرية في العصر الحديث.

ويتناول الفصل الثاني المراحل التاريخية التي مرت بهما اللغتان، العربية والعبرية، منذ نشأتها وحتى عصرنا الحالي، والصراعات الداخلية والخارجية التي خاضتها من أجل البقاء على الخارطة اللغوية، إذ هما اللغتان الساميتان الوحيدتان اللتان كتب لهما البقاء، بينما اندثرت اللغات الساميّة الأخرى من الوجود. هنالك ظروف ووقائع متشابهة واكبت إعادة الاعتبار للعربية الفصحى وانبعثت العبرية على حدّ سواء. إن استرجاع العربية الفصحى لم يكن أمرًا هينًا، فقد تشابكت فيه عناصر دينية وقومية وثقافية. وأما مسألة إحياء اللغة العبرية، فهي الأخرى مرت في سيرورة تاريخية مركبة من عوامل متشعبة، منها الاجتماعية والثقافية والنفسية والأيدولوجية والروحانية والقومية.

كما وانفرد النقاش في هذا الفصل حول تبيان التشابه والاختلاف في إحياء العربية الفصحى والعبرية الحديثة. وكذلك دراسة موقع اللغتين من خريطة العالم اللغوية؛ فالعبرية تحظى بمكانة عالية بين اللغات العالمية. وأما العبرية، فقد بدأ الانتباه إليها أكثر في الآونة الأخيرة، بالرغم من قلة الناطقين بها.

ويعاين الفصل الثالث قضايا وإضاءات عصرية جابهت اللغتين إبان فترة إحيائهما وبعدها. ومن هذه الموضوعات: استحداث الألفاظ، التأثير والتأثر من لغات أخرى وانعكاسها في الخليط اللغوي، معضلة الأمية ونشر الثقافة، التعثر اللغوي، التحولات والتغيرات

الدلالية والبنوية في اللغتين، ومدى دور المعاجم اللغوية إزاء هذه الإشكالات، وقدرتها على تقديم الحلول الملائمة لها.

ويركز الفصل الرابع على تعزيز مكانة اللغة العبرية في إسرائيل في فترة الانتداب البريطاني وبعد إنشاء إسرائيل. تعترف إسرائيل باللغة العربية كلغة رسمية، ولكن على أرض الواقع يتم تهيمشها ويتم التعامل مع الكثير من القضايا اللغوية، مثل نصب الشواخصات في الطرقات، وفي أروقة المحاكم حيث تحكم أحياناً لصالح العربية وأحياناً تتجاهلها، الأمر الذي يؤدي إلى عدم احترام العرب وثقافتهم، ويساهم في إخراجهم من الدائرة الديمقراطية، بل وتهيمشهم قدر الإمكان.

لم يكتفِ المشروع الصهيوني بتهيمش العربية، بل عمل جاهداً على طمس المعالم العربية، أي طمس معالم المكان وتهويده من خلال تغيير المسميات من العربية إلى العبرية. فالأجيال العربية الناشئة، لا تعرف حقيقة هذا الواقع، ويضاف إلى ذلك تأثير الثقافة اليهودية على هذه الأجيال. فهذان الأمران يعززان "الأسرلة" في نفوس الشباب ويجعلانهم يعيشون في حالة انشطار بين انتمائهم العربي ومواطنتهم الإسرائيلية.

ويسلط الفصل الخامس الضوء على الصراعات الداخلية والشروخ المتباينة في المجتمع الإسرائيلي، والتي من أعمقها الشرخ القومي الذي ينعكس يومياً في العلاقة المشحونة بين الأكثرية والأقلية داخل المجتمع الإسرائيلي، أي بين طرفين غير متكافئين لغوياً وسياسياً واجتماعياً.

كما وينعكس الشرخ الاجتماعي - الإثني في إسرائيل في الاستقطاب السياسي بين الأحزاب، الذي يتفاعل على مدار السنة من خلال منبر الكنيست ووسائل الإعلام عامة، وتزداد وتيرته في فترة الانتخابات، على وجه الخصوص.

وينفرد الفصل السادس بمناقشة الصراعات الخارجية التي تخوضها المؤسسة الإسرائيلية مع الدول العربية في المجالات التعليمية والثقافية والدينية. ترى إسرائيل أن المواد التدريسية في الدول العربية تشتمل على مواد تحريضية مناوئة لليهود، وتزيد من كراهية الجيل الناشئ للشعب اليهودي في إسرائيل وخارجها. وقد استغلت إسرائيل توقيع اتفاقيات السلام مع بعض الدول العربية والسلطة الفلسطينية لتجتث هذه المواد.

ثمة مسألة جادة أخرى ناقشها الفصل، وهي إقحام المواد الدينية في لب الصراع، وازداد هذا المنحى خطورة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر عام 2001، وإعلان الولايات المتحدة ما أسمته "الحرب على الإرهاب". أدى هذا الحدث إلى التدخل بتعليم المادة التي تخص الدين الإسلامي واللغة العربية، بل والمطالبة بإلغاء تدريس آيات من القرآن الكريم تحض على القتال.

الفصل الأول

مدخل إلى علم اللغة المعاصر

توطئة

اللغة نظام من الرموز المنطوقة المكتسبة تستخدمه جماعة معينة من الناس بهدف الاتصال وتحقيق التعاون فيما بينهم (عبد العزيز، 1996: 152)⁴. وتعد اللغة ظاهرة اجتماعية يكتسبها الطفل في المجتمع المحيط به، ويصبح هذا الطفل جزءاً من هذا المجتمع بعد تمكنه من ملكة لغته. كل مجتمع يستخدم لغته بطريقة واحدة في أصواتها وصرفها ونحوها ومعجمها.

اللغة هي أداة للتفكير ووسيلة للتعبير عما يدور في خاطر الإنسان من أفكار، وما في وجدانه من مشاعر وأحاسيس، وهي بمثابة الخزانة التي تحفظ للأمة عقائدها الدينية، وتراثها الثقافي ونشاطاتها العلمية، وفيها صور الآمال والأمانى للأجيال الناشئة (أنيس، 1970: 13).

ويستدل من الأبحاث اللغوية أن علم اللغة⁵ هو من العلوم الحديثة نسبياً (جيروم، 1995: 9)؛ وأن هذا العلم لا يهتم بلغة واحدة بعينها، إذ يركز على إيجاد نظرية عامة ومنهج عام

⁴ أما محمود حجازي فيعرف اللغة بما يلي (حجازي، 1992: 26): "اللغة نظام من الرموز الصوتية المتفق عليه في البيئة اللغوية الواحدة، وهي حصيلة الاستخدام المتكرر لهذه الرموز الصوتية التي تؤدي المعاني المختلفة".

⁵ علم اللغة Linguistics هو العلم الذي يدرس الظاهرة اللغوية في أبعادها الشكلية التركيبية، وفي أبعادها الوظيفية. وتعتمد الدراسة على بحث علم الأصوات وعلم الصرف وعلم دلالة الألفاظ والمعاني. ويطلق على علم اللغة، أيضاً، عدة مسميات منها: فقه اللغة، علم اللسان، واللسانيات، والألسنيات. وعلم اللغة العام، يعني بدراسة القوانين العامة التي تحكم اللغة، وأوجه الاتفاق فيها، وما تتعرض له من تشعب أو انحطاط.

لدراسة الظاهرة اللغوية الإنسانية، على اختلاف مظاهرها الشكلية والوظيفية، من خلال نظام محدد وواضح في مقاييسه وتنوع مادته ونتائجه (عبابنة والزعبي، 2005: 11).

لقد تركزت الأبحاث في البداية على دراسة تطور اللغات والبنائيات النحوية والوظيفية. وفي الآونة الأخيرة، اعتمدت الأبحاث على فحص سياسة التربية اللغوية، والعمل على تكثيف الملكة اللغوية لدى الفرد، حتى يتمكن من زيادة قدرته على الاتصال مع العالم الخارجي المحيط به أو البعيد عنه مستقبلاً. جميع هذه الأبحاث، ساهمت في ترسيخ جذور هذا العلم والتنوع في دراساته واتجاهاته، حتى أصبحت القضايا اللغوية تشغل بال المهتمين بالأمر الذين منحوها المكانة التي تستحقها.

حديثاً، أي في السنوات الأخيرة من القرن العشرين، ازداد الاهتمام بتعلم وتعليم اللغات، ورصد الدراسات اللغوية بفرعَيْها النظري والتطبيقي. فاللغة بوصفها نظاماً معقداً تتحكم فيها عدة عوامل داخلية، تتمثل في النظام الداخلي للغة كالأصوات، والكلمات، والعبارات، والجُمْل. وفي علاقات خارجية، تتمثل في دراسة العلاقات القائمة بين اللغة، وما يؤثر فيها من عوامل خارجية، مثل: علم النفس، وعلم الحضارة، وعلم الاجتماع، وعلم التاريخ (خليل، 1988: 100).

إن التخاطب بين الأفراد ينمي النشاط الإنساني، ويقوي الأطر الاجتماعية والتواصل بين الناس (أشار، 1996)، ولا يتأتى ذلك إلا عن طريق اللغة التي تمثل الجهاز الرئيس في تعزيز هذا المنحى. فالتعددية اللغوية، أصبحت أمراً مألوفاً في عصرنا الحاضر، لكثرة المجموعات الإثنية والعرقية والأقليات في العديد من دول العالم، وذلك من أجل تأمين التواصل الداخلي وتصريف الحياة المعيشية بين أفراد المجموعات المختلفة. كما أصبحت الممارسات اللغوية، واكتساب لغات جديدة، بغية الاتصال مع العالم الخارجي؛ تندرج في إطار التنظيم الاجتماعي والوعي الثقافي (مرعي، 2001: 45-46).

اللغة والقومية

تعد اللغة المقوم الأول من مقومات تكوين الأمة؛ فالحفاظ على اللغة يضمن استمرارية كينونة الأمة، ومع انقطاعها تندثر الشعوب وتصبح في طي النسيان. لذا، نجد علاقة وثيقة ومباشرة بين اللغة والقومية. إن استعمال اللغة القومية يعد أمراً طبيعياً بين الأمم، فهي تميز موقع لسان الناطقين بها عن غيرهم.

ويعرف بورتر القومية (Porter, 1968: 27) على أنها الولاء السياسي لدولة معينة، أو الانتماء إلى هذه الدولة سواء كان ذلك بال ميلاد أو باكتساب الجنسية. للغة دور كبير في حياة الشعوب، فهي تعزز شعور الجماعة بانتماء بعضهم إلى بعض، وتعبّر عن منحى قومية الفرد تجاه دولته. وحول العلاقة بين اللغة والقومية يقول هردر (لدى عبد العزيز، 1996: 177-178):

إن اللغة القومية بمنزلة الوعاء الذي تتشكل به وتحفظ فيه وتنتقل بواسطته أفكار الشعب. إن اللغة تخلق العقل أو على الأقل تؤثر في التفكير تأثيراً عميقاً وتسده وتوجهه توجيهاً خاصاً. ولغة الشعب، تتمثل في كل روح الشعب نفسه، إن لغة الآباء والأجداد بمثابة مستودع لكل ما للشعب من ذخائر الفكر والتقاليد والتاريخ والفلسفة والدين، إن قلب الشعب ينبض في لغته، إن روح الشعب يكمن في لغة الآباء والأجداد⁶.

تساهم اللغة في تعزيز الوحدة السياسية للدولة، لذا تحاول غالبية الدول اعتماد لغة رسمية واحدة، ينص دستورها على ذلك بشكل واضح. وبالرغم من أن الكثير من الدول تتواجد فيها مجموعات عرقية كثيرة العدد، إلا أن الاتجاه العام ينحو إلى استخدام اللغة الرسمية

⁶ وفي نفس الموضوع يقول ماكس نورداو (لدى أنيس، 1970: 107): "إن الفرد يندمج في المجتمع باللغة، وبها وحدها، باللغة يصبح عضواً من الشعب الذي يتكلمها، وباللغة وحدها يتلقى كل التراث الفكري والشعوري والأخلاقي والاجتماعي للأمة سواء ما انحدر عن قرائح الكتاب والشعراء والمفكرين السالفين والمعاصرين".

الواحدة. ولهذا السبب، كما يدعي مارتنت، فإنهم يؤلفون جماعة لغوية تستخدم لغة واحدة متجانسة (Martinet, 1962: 136). ومن الأمثلة البارزة لدولة عملت على توحيد لغتها هي اليابان، وهذا العمل ساهم في التطور الاقتصادي لهذه الدولة خلال فترة قصيرة نسبياً، وقد اعتبر غاندي اليابان نموذجاً يحتذى به في عدم استخدام لغة أجنبية في التعليم.⁷

خلال عصر النهضة في أوروبا، حدثت نهضة في المجالين العلمي والقومي؛ فالنهضة العلمية تجلت في الثورة الصناعية التي أدت إلى اكتشافات واختراعات جديدة لم يعهدها العالم من قبل. أما النهضة القومية، فتمثلت في تنامي الشعور القومي لدى الفئات (الأقليات) الاجتماعية الكبيرة، التي عملت جاهدة على تأسيس كيان مستقل خاص بها، وانعكس ذلك في إنشاء دول جديدة. هذا الأمر، أدى إلى توليد لغات جديدة، انبثقت عن اللغة اللاتينية⁸، واتخذت من الحرف اللاتيني أساساً لتركيب لغاتها. وازداد هذا المنحى القومي - اللغوي تنامياً في القرن التاسع عشر.⁹

ارتكز نشوء القومية الحديثة في أساسه على نشأة لغات جديدة، والتي كانت العلامة المميزة لكيان كل دولة مستقلة حديثاً (Harshiv, 1993؛ أغمون وألون، 1994). يُذكر أن اليهود لم يشاركوا في التغيرات اللغوية التي واكبت عصر النهضة في أوروبا لسببين:

⁷ يقول فلوريان كولماس (2000: 50) إن اليابان هي البلد الوحيد غير الأبيض الذي كان قادراً على سد فجوة التطور واللاحق بأكثر الدول تقدماً، فقد كان بلداً متجانساً لغوياً بدرجة عالية، وفي جيل واحد أمكنه نشر لغته الموحدة على نطاق الوطن كنمط منطوق ومكتوب.

⁸ تجدر الإشارة إلى أن مارتن لوثر (1546)، المصلح الديني المسيحي، الذي أدخل عدة إصلاحات دينية، وهو مؤسس المذهب البروتستانتي، دعا إلى قراءة الإنجيل حسب اللغة الوطنية، وليس حسب اللغة القديمة التي تدون بها. وهذا بدوره، ساهم في إنشاء اللغات القومية في أوروبا.

⁹ ففي هذه الفترة، قام استقلال اليونان وبلغاريا وألبانيا ويوغسلافيا على أساس أن لكل دولة من هذه الدول لغة قومية متميزة.

الأول- توزيع اليهود على هيئة جاليات موزعة بين الأقاليم، فالثورة اللغوية تتجسد عادة في كيان وطني، يلم شمل أبناء الأمة في مكان واحد ذي تواصل جغرافي.

والثاني- إن استبدال العبرية المكتوبة بلغة محكية قد يؤدي إلى عزل اليهود عن الحضارة الأوروبية، وسيكون لذلك مردود عكسي يتمثل بترك المثقفين للعبرية وتوجههم للكتابة بلغات أخرى، الأمر الذي سيسارع في انصهارهم مع الشعوب، وانسلاخهم عن هويتهم اليهودية.

تظهر أهمية اللغة لدى الشعوب التي تتعرض للاستعمار والاحتلال والاضطهاد، فالدولة المستعمرة تفرض لغتها على الشعب المستعمر، وتحاول أن تطمس لغته من خلال استعمال لغتها في المؤسسات الحكومية والمدارس وغيرها من دور العلم والمعرفة¹⁰. تركت هذه الدول المستعمرة بصماتها في حياة الشعوب المستعمرة، إذ هنالك في اللغة القومية ألفاظٌ دخيلة وجدت القبول والتداول بين الناس، حتى بعد زوال الاستعمار.

ويرى سبنسر (لدى ثارو، 1995) أن إدخال اللغات الاستعمارية في المجتمعات الأفريقية قد جمد الفرص أمام التنمية الوظيفية لكل اللغات الأفريقية تقريباً، ذلك لأن التنمية اللغوية هي جزء لا يتجزأ من التنمية الاجتماعية والاقتصادية، وأن العلاقة جوهرية بين الفقر الاجتماعي والتشظي اللغوي.

ظهر اعتزاز الأمم بلغاتها القومية جلياً عندما تخلصت هذه الدول من نير الاستعمار، حيث عملت على الاعتراف بلغاتها القومية، كلغة رسمية داخل بلادها وفي المحافل الدولية. فاللغة هي الوسيلة الوحيدة المعبرة عن آمال الأمة وآلامها، وعن حضارتها.

¹⁰ إن الأمثلة على ذلك كثيرة في منطقتنا العربية: إيطاليا فرضت لغتها على ليبيا، فرنسا فرضت لغتها على تونس والجزائر والمغرب ولبنان، وبريطانيا فرضت لغتها على مصر وفلسطين.

أكدنا على أن اللغة تعد من أهم المقومات الأساسية لإنشاء دولة، فبدون لغة لا يتم ولادة دولة. وأوضح مثال على ذلك، أن إسرائيل رأت بإحياء اللغة العبرية وانبعاثها من جديد ركيزة أساسية في توحيد الملة اليهودية المشتتة. وقد أدركت الحركة الصهيونية أن نقطة انطلاق بناء الدولة العبرية¹¹ تبدأ من الوحدة اللغوية، أي بعث اللغة العبرية. لذا، عملت هذه الحركة في مسارين موازيين: الأول- ترسيخ جذور اللغة العبرية كتابة ومخاطبة؛ والثاني- إنشاء المستوطنات، أي الربط بين اللغة والوطن تحت غطاء الدافعية القومية.

يذكر سبولسكي أن الحركة الصهيونية ربطت هويتها باللغة العبرية (Spolsky, 1996: 18)، وأن المنحى الأيديولوجي الذي انتهجته، هو خلق "هوية جديدة" لليهودي الإسرائيلي، هذه الهوية تختلف كلياً عن "هوية الشتات"، وهي هوية اليهودي التي قدم بها من الخارج. وقد تحقق هذا الهدف بفضل اللغة العبرية، بما حملته من رموز قومية.

وعن العلاقة الوثيقة بين الصهيونية واللغة العبرية تقول إيلانه شوهامي (1996: 250):
من الناحية الأيديولوجية تلعب اللغة العبرية دوراً مركزياً في دولة إسرائيل نتيجة صلتها بالصهيونية، وهي الحركة التي عملت على عودة اليهود إلى وطنهم، ودأبت على بناء أمة جديدة ومستقلة. عند عودة اليهود إليها "أرض إسرائيل" نشطت حركة إحياء العبرية لجعلها لغة حية. إحياء اللغة العبرية - تحويلها من لغة مكتوبة تستخدم في الصلاة، إلى لغة محكية تستعمل في جميع المجالات الحياتية - لعب دوراً مركزياً في بناء الأمة الجديدة.

تساهم اللغة القومية في بلورة هوية الفرد والمجتمع، ويدعي تراسك (Trask, 1999) أن كل فرد بحاجة إلى الحفاظ على الهوية الخاصة به؛ وأحد الجوانب الهامة لتلك الهوية هي

¹¹ تجدر الإشارة إلى أنه وفق هذه الرؤية، كان هنالك اقتراح بتسمية الدولة اليهودية "الدولة العبرية" وليس "دولة إسرائيل".

المشاركة في الجماعات، واللغة هي التي توفر السبيل القوي للحفاظ والثبات على المشاركة في الجماعة.

ومما لا شك فيه، أيضًا، أن طريقة الفرد في التحدث تلعب دورًا حيويًا في تشكيل هويته داخل المجتمع¹²، كذلك تتمثل العلاقة بين اللغة والهوية على نطاق أوسع فيما بين لغات وشعوب عدة¹³.

وتقول وفاء فايد حول العلاقة بين اللغة والهوية (فايد، 2003: 8-9):

اللغة هي مناط الهوية، وقوام الذاتية؛ ومن هنا فإن الوهن أول ما يعترى أمة يصيبها في لغتها، كما أن أول قوة تتحقق لها تدركها فيها. ويتضمن انتشار لغة ما سر بقاء أصحابها، وها نحن إزاء عالم يتصارع على البقاء، وقد تعددت فيه الأساليب إلى الأهداف المنشودة

¹² هنالك تنوعات في نطق الكلمات، ويلاحظ ذلك من خلال متحدثين ينطقون بطريقة تختلف عن طريقتك. وهذا يعني، أن هؤلاء المتحدثين يستخدمون لكنة تختلف عن لكنتك، ولكنة ببساطة هي طريقة معينة لنطق اللغة. فعلى سبيل المثال، الـلكنة التي يستخدمها عامل البناء تختلف عن الـلكنة التي يستخدمها الأكاديمي. من هنا، تجد في نفس المجتمع درجات متفاوتة في الاستخدام اللغوي المتمثل في الـلكنة. فالمجموعات الراقية في المجتمع، تستخدم لكنة خاصة بها، بحيث تجعلك قادرًا على التمييز بينها وبين الشرائح الاجتماعية الأخرى الأقل منها مكانة.

¹³ يذكر تراسك (Trask, 1999: 198) على سبيل المثال، النرويج، التي كانت مقاطعة دانهاركية تتحدث اللغة الدانهاركية. لقد عرف النرويجيون المتعلمون اللغة الدانهاركية، وكان التأثير اللغوي (الخليط اللغوي) عليهم واضحًا للعيان. وعندما حصل النرويجيون على الاستقلال اتفقوا أن تحل اللغة النرويجية محل اللغة الدانهاركية كلغة رسمية للبلاد. ولكن المشكلة التي طفت على السطح، مع أي نوع من النرويجية يجب التعامل؟ هنالك من اقترح التحدث باللغة النرويجية المتوسطة التي تحتوي على ألفاظ دانهاركية، وهناك من اقترح التحدث باللغة النرويجية النقية، وهذا الاتجاه هو الذي كان سائدًا في هذه القضية. فالاتجاه الثاني، يعبر عن رغبة عامة من جانب اللغات القومية الحديثة، وذلك لتمايزها عن الهويات الأخرى.

بأقل الخسائر الممكنة. لذا اتجهت الدول الكبرى- في فرض إرادتها على الدول الصغرى- إلى الغزو الفكري والثقافي؛ فدأبت على نشر حضارتها وتقنياتها، بواسطة لغاتها، في مدارس الدول الصغرى وجامعاتها ومؤسساتها، وعبر مئات المراكز الثقافية التي تؤسسها لهذه الغاية، فضلاً عن وسائل إعلامها المسموع والمرئي، بما يتميز به من دقة وإبهار¹⁴.

تُقسم اللغات حسب انتشارها إلى مجموعتين: الأولى- لغات محلية تشكل وسيلة اتصال بين الناطقين في نفس الدولة، والناس المجاورين لها. والثانية- لغات دولية للتواصل بين الناس الذين ينتمون إلى عدة جنسيات. فاللغات الدولية اكتسبت هذه المكانة بسبب القوة الثقافية أو السياسية أو العسكرية.

من بين لغات العالم ، هنالك خمس اشتهرت بشكل خاص على مر التاريخ، وهي على التوالي: الأكاديمية التي تحولت إلى لغة دولية في الألفية الثانية قبل الميلاد؛ والعربية التي انتشرت في الشرق والغرب في أعقاب الفتوحات الإسلامية؛ واللغة الفرانكية أو لغة الفرنجة (Lingue France) وهي خليط من عدة لغات تكونت في عصر النهضة¹⁵؛ واللغة

¹⁴ تورد فايد (2003) مثالين على ذلك، لدولتين اهتمتا في إنشاء المعاهد التعليمية في جمهورية مصر العربية لتعليم لغاتها. المثال الأول- اللغة الإسبانية: معهد ثربانتيس لتدريس اللغة الإسبانية ينشر إعلانات في الصحف اليومية تبين أهمية هذه اللغة، وعدد الدول التي تستخدمها، والفوائد التي يجنيها دارسها، كما ينظم الدورات التعليمية لدارسيها. والمثال الثاني- اللغة اليابانية: أنشأت دولة اليابان على نفقتها الخاصة قسماً لتدريس اللغة اليابانية، ألحق بكلية الآداب، جامعة القاهرة. كما وفحت المجال أمام الباحثين لاستكمال دراساتهم العليا في جامعات اليابان عن طريق المنح الدراسية، ليكونوا سفراء دائمين لها.

¹⁵ وهي اللغة التي تتعامل بها جماعات تختلف لغاتها الأم. وكانت الدافعية لانتشار هذه اللغة هي التطور التجاري الذي حصل إبان الثورة الصناعية، إذ التقى التجار من عدة أماكن على الأراضي الأوروبية، واضطروا إلى إيجاد لغة مشتركة للتواصل فيما بينهم. تجدر الإشارة إلى أنه من ناحية المستوى اللغوي تعد هذه اللغة متوسطة، وليست مبلورة كما يجب.

الفرنسية التي سيطرت على مناطق كثيرة في أفريقيا بسبب الاستعمار؛ وأخيرًا اللغة الإنجليزية التي نشرتها بريطانيا، وجاءت أمريكا لتواصل ترسيخها¹⁶. ويدعي الأوارغي أنه بعامل "القهر الثقافي" تتحول الإنجليزية إلى لغة عالمية لاستعمالها في قطاعات مخصوصة من لدن فئات اجتماعية محصورة، في العديد مما بقي من بلدان العالم (الأوارغي، 2002: 79).

اللغة والثقافة

تشكل اللغة العامل الرئيسي الموحد لمجموعة سكانية تعيش في إطار واحد، تجمعها رؤية عامة، في نظرتها لأمر معين في هذا الكون، مثل تصنيفها للأشياء المحسوسة والمعاني التي يتضمنها كل صنف. ولها أنظمة وأعراف متفق عليها تحدد السلوك المرغوب فيه وغير المرغوب: كيف يأكل أفرادها وكيف يتزوجون، وكيف يعلمون أولادهم، وغيرها من الأمور التي يطلق عليها اسم "ثقافة المجتمع" (عبد العزيز، 1996: 186). ويؤكد كوردرد (Corder, 1975: 68) على أن المجتمع الذي يستخدم لغة واحدة يعيش في ظل ثقافة واحدة.

ثمة ارتباط ضروري بين ثقافة المجتمع وسلوكه¹⁷ كما أن التغير اللغوي فيه يسير بوتيرة أبطأ من التغير الثقافي¹⁸. والسؤال الذي يطرح نفسه: هل تتحدد ثقافة الإنسان بلغته؟

¹⁶ تهدد اللغة الإنجليزية اليوم اللغات القومية في عقر دارها وتغزوها، وتغري الأجيال الناشئة للابتعاد عن لغة الأم، والاهتمام بها كلغة دولية. وكثيرًا ما يحدث ذلك في المجتمعات النامية، التي يصبو شبابها للوصول إلى الرقي الاجتماعي من خلال معرفة اللغة الإنجليزية وإتقانها محادثة وكتابة.

¹⁷ ومن الأمثلة السلوكية الحصرية، ذات الصلة المباشرة بالثقافة، ما حصل مع الرئيس الأمريكي جورج بوش في آخر عهد ولايته. ففي 14-12-2008 قام بوش بزيارة مفاجئة لبغداد أحيطت بسرية تامة، وكانت تستهدف تقديم الشكر لقوات بلاده، والتبشير باتفاقية أمنية جديدة مع العراقيين. وكان الحدث الأكبر في استعراض هذا الحدث في وسائل الإعلام، عندما أقدم الصحفي العراقي منتظر الزبيدي على

هنالك اتجاهان للإجابة عن هذه المسألة، هناك من يدعي أن اللغة تملي على الفرد أسلوب حياته ونظرته إلى هذا الأسلوب. ومن أنصار هذا التوجه الباحث سبير، حيث يقول (انظر كوردر 75: 1975، Corder): إن البشر لا يعيشون في العالم المادي فحسب، ولا في عالم النشاط الاجتماعي بالمفهوم العادي، ولكنهم في الواقع واقعون تحت رحمة تلك اللغة المعينة التي اتخذوها وسيلة للتفاهم في مجتمعهم، إنه لوهم كبير أن نتخيل فردًا ما يتكيف مع الواقع دون استخدام اللغة.

وحقيقة الأمر، أن العالم الحقيقي قائم إلى حد كبير على العادات اللغوية لمجتمع معين، كما أنه لا توجد في العالم لغتان تتشابهان تشابهًا كبيرًا إلى درجة اعتبارهما تمثلاً لنفس الواقع الاجتماعي. إن العوالم التي تعيش فيها المجتمعات المختلفة عوالم مختلفة، لا مجرد عالم واحد نسميه بأسماء مختلفة.

والاتجاه الآخر، يرى أن اللغة ليست إلا أثرًا من آثار عقلية المجتمع، لذا فهي تعكس ثقافة هذا المجتمع. وفي ذلك يقول فنك (1950: 299) بأنه لا يجب أن ننظر إلى اللغات إلا بوصفها آثارًا معبرة عن عقل الشعوب، ولكي نقوم بدراسة دقيقة ينبغي ألا نبدأ من اللغة التي ليست إلا نتيجة، بل من العقل الذي يخلق اللغة. وأما أحمد أمين فيقول (أمين، 1964:

قذف الرئيس بوش بزوج حذاء ونعته بـ "الكلب". إن هذا الحدث حافل بالرمزية - خاصة وأن قذف الحذاء في وجه شخص ما يعتبر في الثقافة العربية إهانة خطيرة، بل إن مجرد رفع النعل في وجه الشخص يعد تعبيرًا عن الازدراء. لقد أصبح هذا الرمز نموذجًا يحتذى به في أماكن عديدة من العالم بأشكال مختلفة (الجزيرة نت 15-12-2008).

¹⁸ الجدير ذكره، أن التغير الثقافي يستغرق وقتًا محدودًا حتى يعم أثره، ومن السهولة بمكان ملاحظته، فالشعوب المهاجرة تحاول أن تتأقلم بسرعة، نسبيًا، من أجل ملاءمة أحوالها المعيشية مع الشعب الأصلي، وحتى تستطيع أن تصرف شؤون حياتها اليومية. أما التغير اللغوي فيستغرق وقتًا أطول بسبب التأثير من لغة الأم. وكلما كان الفرد مستأفًا فإن اكتسابه اللغة يكون صعبًا.

51) بأن اللغة تدل على الحياة العقلية، من ناحية أن لغة كل أمة في كل عصر مظهر من مظاهرها عقلياً.

ويعتقد وورف (عبد العزيز، 1990)¹⁹ أن سلوك الفرد وتفكيره يرتكزان أولاً وأخيراً على اللغة، فاللغة بداية تؤثر على تفكيرنا ومن ثم تؤثر في سلوكنا. ومن هذا المنطلق، فهي تعكس ثقافة المجتمع، كما أشار إلى ذلك محمد عبد العزيز (1996: 194) قائلاً:

إن اللغة- في الحقيقة- تعكس ثقافة المجتمع الذي يستخدمها وتعبر عن حاجاته، ولهذا السبب نعدّها أداة ذات تأثير في سلوك الفرد ونظرته إلى الحياة. ولكنها مع ذلك، أداة على ألسنة الأفراد وعلى أفلامهم قد فرضها المجتمع المعين عليهم، ولكنهم مع ذلك يطوعونها بحسب حاجاتهم. لنقل بوضوح، إن اللغة تؤثر في ثقافة المجتمع وثقافة المجتمع تؤثر في لغته.

وفي الحالة الإسرائيلية، يذكر ياسر سليمان (Suleiman, 2004) أن اللغة أصبحت في إسرائيل سلاحاً في الصراع ووعاء تترسخ فيه الهوية وتدافع عن نفسها، بل تصبح هي ذاتها كلغة عنواناً من عناوين الهوية، كما تصبح فضاء ثقافياً يفرض تحديدات شبه صارمة، بحيث تعمل اللغة على تعريف الفرد لناحية الانتماء الوطني إلى جماعته، خاصة في سياق الصراع مع جماعة أخرى.

¹⁹ ويؤكد وورف على "أن اللغة ليست مجرد وسيلة للتعبير عن الأفكار، بل هي نفسها التي تشكل تلك الأفكار.. إن صياغة الأفكار ليست عملية مستقلة- عقلية تماماً في الوعي الماضي، بل هي جزء من أجرومية خاصة، وهي تختلف- على درجات متفاوتة- من أجرومية إلى أجرومية، نحن نحلل العالم من خلال جمل حددتها قبلاً لغاتنا القومية.. نحن نحلل العالم ونصنّفه في أفكار ونعطي لذلك أسماء، نفعل هذا لأننا أفراد متفقون على أن ننظمه بهذه الطريقة، اتفاق ينعقد خلال المجتمع اللغوي ويقعد له في أنماط لغتنا" (لدى عبد العزيز، 1996: 191).

واللغة في المفهوم الإسرائيلي، حسب رأي شوهامي ودونيتسا-شميدت، تشكل عاملاً موحدًا لثقافة معينة، وترمز بشكل قوي للهوية الجماعية (Shohamy & Donetsa, 1998).

تظهر العلاقة بين اللغة والثقافة جليًا في المعاجم اللغوية، حيث للبيئة المعيشية أو للتطور الحضاري للشعب الأثر المهم في توسيع مفردات اللغة أو في تقليصها. في البداية يتم الاستخدام اللغوي لظاهرة معينة، بشكل عام، ولكن مع الوقت، إذا كان هذا الشيء هو من أساسيات حاجة المجتمع، تبدأ عملية التدقيق والانتقاء في مفاهيم لغوية جديدة تعبر عن الحالة الموصوفة.

على سبيل المثال، كان الجمل قديمًا أحد المقومات لبقاء العربي في الصحراء، لذا نجد أن لفظة "جمل" اكتسبت الكثير من المفردات، وكذلك الأمر بالنسبة لباقي الحيوانات، كالأسد والثعلب وغيرها.

هذا الأمر ينطبق اليوم على المركبات، فعندما اخترع الإنسان هذه الآلة أطلق عليها الاسم "سيارة"، ولكن هذه السيارة مرت بمراحل تطور مذهلة خلال فترة وجيزة، ومن أجل التمييز بين هذه السيارات أُعطيت لها أسماء وموديلات، لم نعرفها من قبل، هذه الأسماء هي تعبير عن التقدم الحضاري الذي وصلت إليه التكنولوجيا المتطورة في عصرنا. ويمكن تطبيق هذا المثل على باقي الاختراعات التقنية في المجالات الحياتية الأخرى.

ويؤكد فارنييه على أن اللغة والثقافة تقعان في قلب مظاهر الهوية. ويرى هنتجتون في كتابه "صدام الحضارات" أن الثقافة والهويات الثقافية، أي الهويات الحضارية، هي التي تشكل

أنماط التماسك والتفسخ والصراع في عالم ما بعد الحرب الباردة (انظر المناصرة، 2004: 24)²⁰.

وتتجلى الثقافة، أيضًا، لدى امتزاج واحتكاك شعبين الواحد بالآخر، من خلال الاقتراض اللغوي. فالمجتمع الذي يتأثر بثقافة مجتمع آخر، يقترض الألفاظ التي تعبر عن هذه الثقافة، والتي لا نظير لها في لغته، ومن ثم تعكس الكلمات المقترضة ثقافة هذا الشعب وتبين مدى التأثير به (المصدر السابق: 127).

علم اللغة المقارن

اهتم اللغويون الأوروبيون في القرن التاسع عشر بتصنيف اللغات ودراستها وفق المنهج المقارن، لذا أطلقوا على بحوث تصنيف اللغات في مجموعات وفصائل مشتركة ذات خصائص معينة اسم "علم اللغة المقارن". ومن أهم الباحثين في هذا المجال عالمي اللغة، روبنسون وبورتر، اللذين قسما اللغات المختلفة إلى أُسَر أو فصائل من خلال مقارنة هذه اللغات واكتشاف أوجه التشابه بينها، من الجوانب الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية (Robinson, 1967; Porter, 1968).

يمكن دراسة اللغات المنتمية إلى أسرة واحدة في إطار علم اللغة المقارن، وذلك عبر تبيان القواسم المشتركة والمختلفة بين جميع هذه اللغات بطريقة شمولية وكمجموعة واحدة، أو بطريقة انتقائية، أي التركيز في لغتين واستكشاف جوانب الشبه والاختلاف بينهما، وكذلك تبيان التجارب التي خاضتها والتي أثرت فيهما.

²⁰ ويقول فارنيه إن اللغة، بصفتها مجموع قوائم السلوك واللغة والثقافة، تسمح للشخص أن يتعرف على انتمائه إلى جماعة اجتماعية والتماثل معها، غير أن الهوية لا تتعلق فقط بالولادة أو بالاختيارات التي تقوم بها الذات، لأن تعيين الهوية سياقي ومتغير. فالواقع، أن التقاليد التي تُنقل الثقافة عبرها، تبصم الإنسان، منذ طفولته جسدًا وروحًا بكيفية غير قابلة للمحو (انظر لدى المناصرة، 2004: 26).

يشكل علم اللغة المقارن المحور الرئيس لدراسة اللغتين العربية والعبرية، اللتين اشتقتا من أسرة اللغات السامية. وقد عكف اللغويون اليهود في العصور الوسطى على المقارنة بين اللغات الثلاث العبرية والعربية والآرامية، وأفردوا لها كتبًا خاصة²¹. وكان الوازع الديني بمثابة المحفز الأساسي لإجراء هذه المقارنة، بغية إيجاد تفسير معاني مفردات عبرية وردت في التوراة. أما اللغويون العرب فلم يجرؤوا دراسات مقارنة بين العربية والعبرية لأنهم كانوا غير متمكنين من العبرية، كما أنهم لم يهتموا بالشعر العبراني (مرعي، 2008).

وتمتاز هاتان اللغتان بأنهما اللغتان الوحيدتان اللتان بقيتا من هذه العائلة السامية كلغات حية في المحادثة والكتابة، هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى، التقت هاتان اللغتان في ثلاث حقب تاريخية، في مناطق مختلفة من هذا الكون، كما ذكرنا سابقاً. ولتوضيح صورة المقارنة والتعمق بجوانبها المختلفة، فإننا سنتتبع في دراستنا ثلاثة أساليب علمية ذات صلة وثيقة في علم اللغة المقارن²²، وهي (حجازي، 1992: 37-41):

²¹ ومن أهم الكتب المقارنة بين اللغتين العربية والعبرية: "الرسالة" لابن قريش (1984)، و"الموازنة بين اللغة العبرانية والعربية" لبن بارون (1971، 1999).

²² يقوم علم اللغة المقارن على دراسة مجموعة اللغات المنتمية إلى أسرة لغوية واحدة، وليس المقصود بذلك القدرة على التحدث بهذه اللغات القديمة والحديثة أو القدرة على الكتابة بهذه اللغات، بل المقصود بحث هذه اللغات، من حيث إظهار أوجه الشبه والاختلاف بينها، ومدى ارتباطها بلغة الأم التي تفرعت منها. لقد بدأ التقدم الحقيقي في علم اللغة المقارن في القرن التاسع عشر بعد أن اكتشف الأوروبيون اللغة السنسكريتية، وهي لغة تراث الهند القديم. ويلخص عبابنة والزعبي (2005: 16) وظيفة علم اللغة المقارن كالآتي: "هو ذلك الفرع الذي يهتم بالنظرية والمنهج العلميين للمقارنة ما بين اللغات من حيث نظمها وقوانينها وصفاتها الشكلية والوظيفية، وقد تكون هنالك علاقة تاريخية ما بين هذه اللغات مثل عائلة اللغات السامية، أو العائلة الإندوأوروبية، أو غيرها من الفصائل اللغوية المتقاربة، كما يمكن أن تكون هذه اللغات متباعدة تاريخياً، أي ليس بينها علاقات تاريخية واضحة مثل العربية والإنجليزية، وعندها، فإننا يمكن أن نستعمل علم اللغة التقابلي لتحقيق هذه الغاية أيضاً.

الأول- علم اللغة التاريخي Historical Linguistics: يتناول دراسة التطورات التي مرت بها اللغة الواحدة، ويبيّن التغيرات التي حصلت فيها، وكيفية الحفاظ على بقائها، والتركيز على العصر الحالي²³. هذا المنهج يطلق عليه الطريقة الدياكرونية Diachronic، ويظهر مراحل تنامي اللغة وتطورها على مر الأجيال. تهدف الطريقة إلى إيضاح العلاقات التاريخية التي تربط لغات الأسرة الواحدة، وتحاول إيجاد تفسير لهذه العلاقات بقوانين ثابتة مطردة. وهذا يعني، أن علم اللغة يعنى بالتفسير والربط بين الظواهر اللغوية، ويتأتى ذلك من خلال علم اللغة التاريخي الذي يحل المعضلة المبحوثة بطريقة علمية منطقية. على سبيل المثال، كلمة "ركبة" في اللغة العربية هي مقلوب "بركة"، ويقابلها في العبرية كلمة "بيرخ". وقد ورد هذا الاستخدام في اللغة العربية، إذ يقال "برك على ركبته" ولا يقال "ركب على ركبته"²⁴. فالمنهج التاريخي المقارن يكشف عن كثير من الظواهر اللغوية الغامضة بين اللغتين الساميتين، العربية والعبرية.

الثاني- علم اللغة الوصفي Descriptive Linguistics: يصف الظاهرة اللغوية وصفًا علميًا موضوعيًا يتعد عن التأويلات الفلسفية والتعليقات، والتي ليس لها علاقة بالظاهرة اللغوية ولا تنبثق عنها، ولا يقرر للظاهرة اللغوية كيف يجب أن تكون، بل يكتفي بوصفها في وضعها الفعلي الواقعي. ويتفرع من الاتجاه الوصفي العام منهجان فرعيان: المنهج الوصفي التقريري، والمنهج الوصفي التفسيري (عبابنة والزعبي، 2005: 67).

²³ ويعنى علم اللغة التاريخي، أيضًا، في دراسة نظم اللغة المختلفة، وفي بحث تطور اللغة وحياتها في المجتمع الذي يتداولها، مثل انتشار اللغة والظروف التي مهدت لذلك، وأثرها في بنية اللغة. كما ويدخل ضمن مجاله، أيضًا، مستويات الاستعمال اللغوي في حياة كل لغة، وأثر ذلك في بنيتها ومكانتها بين اللغات (حجازي، 1992: 40).

²⁴ مثال آخر، لتفسير ظاهرة القلب المكاني في الاستعمال اللغوي، وهو الظرف "مع" في اللغة العربية، ويقابله النمط اللغوي المستخدم في اللغة العبرية "عم".

ويتحرى علم اللغة الوصفي دراسة لغة واحدة أو لهجة واحدة في زمن بعينه ومكان بعينه. ويستخدم الاتجاه الوصفي العينات المختلفة من اللغة، كما هي مستخدمة بالفعل، باعتبارها مادة مناسبة لاستخدام القواعد والقوانين التي تشكل النظام اللغوي في مستوياته التركيبية المختلفة، ويطلق على هذا المنهج "الطريقة السنكرونية" Synchronic. و يترصد الوصف الظواهر اللغوية مستنداً على الأدلة والأمثلة أو النصوص الخاصة في اللغة²⁵.

والثالث- علم اللغة التقابلي Contrastive Linguistics: يتناول المقابلة بين لغتين أو لهجتين أو لغة ولهجة، أي بين مستويين لغويين متعاصرين. ويهدف علم اللغة التقابلي إلى إثبات الفروق بين اللغتين، ولذا فهو يعتمد أساساً على علم اللغة الوصفي.

اللغة تتطور بدون توقف

اللغة ليست ثابتة، وهي كالكائن الحي في حالة نمو وتطور، تلائم ذاتها وفقاً للتغيرات الاجتماعية والإنسانية والعلمية الحاصلة داخل المجتمعات السكنية الناطقة بها. وتخضع اللغة لتغيرات تسير حسب أنظمة معينة، صوتية وبنوية وصرفية، لا قدرة لأحد على تغييرها.

اللغة الحية، هي اللغة التي تتفاعل مع كل تطور وتقدم وتستجيب لكل متطلبات العصر. هنالك عاملان رئيسيان يؤثران في اللغة (حماد، 1983: 15):

الأول- عامل داخلي، يرتبط في اللغة نفسها، أي في بنية الألفاظ، ويكون في بنية الكلمة من حيث الصرف والنحو والتركيب، وأثر ذلك كله في تغير وتطور الألفاظ والدلالات.

الثاني- عامل خارجي، يتعلق بالنواحي الحضارية والسياسية والاقتصادية والتقدم العلمي والتقني في المجتمع.

²⁵ تجدر الإشارة إلى أن المفاهيم اللغوية- السنكرونية والديكرونية- هي من ابتكار اللغوي، فرديناند دي سويسر (1857-1913)، سويسري الأصل ويعتبر مؤسس علم اللغة في العصر الحديث.

لقد مرت اللغة العربية عبر ماضيها الطويل بهاتين المرحلتين: مرحلة الازدهار في العصر العباسي، إذ غدت العربية لغة الفكر والحضارة لدى العرب، ولدى الشعوب التي اعتنقت الإسلام، حيث تدفقت الألفاظ العربية بصيغها وتصريفاتها إلى لغات الشعوب الأخرى. وبالرغم من قوة العربية، فقد دخلت إليها ألفاظ اقترضتها من اللغات الأخرى كالفارسية والتركية وغيرها، وقد سمي علماء العربية ذلك "تعريباً". والتعريب هو اقتراس اللفظ الأجنبي، ثم إخضاعه لنمط الكلمات العربية ونسيجها²⁶.

أما مكانة العربية اليوم فهي بخلاف ما كانت عليه في السابق. فالشعوب العربية تقبع في ركود ثقافي وعلمي، وهي عاجزة عن اكتساب مكانة سياسية مرموقة في الحلبة الدولية. بعبارة أخرى، هي المغلوب على أمره أمام الغالب، أو المهزوم أمام المنتصر. لذا، يداهم العربية اليوم سيلٌ عارمٌ من الألفاظ الأجنبية يتدفق إليها من كل حذب وصوب. في الواقع، لا تستطيع العربية الثبات على أصالتها أمام هذا التدفق، لذا فهي تحاول أن تسير التطور والتقدم كي تسعف المتحدثين بها، من خلال طريقتين متباعدتين (حماد، 1983: 8): الطريقة الأولى- بواسطة النقل الذي تقوم به المجامع اللغوية العربية وغيرها، على ما كان عليه الوضع في الماضي، وهو نقل يراعي الأصول اللغوية المقررة في معاملة الألفاظ الأعجمية والأجنبية.

²⁶ كانت الكلمة الأعجمية التي يشيع استعمالها لدى العرب تأخذ القالب العربي، فتهدب أطرافها، وتبدل بعض حروفها، ويغير موضع النبر منها حتى تصبح على صورة شبيهة بالكلمات العربية (أنيس، 1971: 125). ويذكر عبد العزيز (1996: 128) أن الكلمة المقترضة تُعامل معاملة الكلمة الأصلية، وتخضع له من قواعد صوتية وصرفية ونحوية، ولهذا يصيبها أحياناً كثير من التحريف الذي يبعدها قليلاً أو كثيراً عن أصلها.

والطريقة الثانية - تعتمد على جهاز الإعلام الذي ينهج في الغالب الأعم إلى استخدام لغة عربية ميسرة يغلب عليها الاجتهاد الشخصي، وهو الذي يجعل هذا المنهج يتخذ مساراً غير المسار المحدد والمضبوط بالضوابط المقررة التي تلتزم بها المجامع اللغوية في النقل.

إن التغيير لا يقتصر على لغة ما، وإنما هي ظاهرة تتصل بجميع اللغات، ولكن بدرجات متفاوتة²⁷. من الملاحظ، أن التغيير يستغرق وقتاً طويلاً، ويسير ببطء ينتقل من الخلف إلى السلف ويحاول اللغويون تعقب هذه الظاهرة وتفسيرها، ومن العوامل التي تُذكر بهذا الصدد:

أ- تطور سُبل الأحوال المعيشية: يمر العالم اليوم بتغيرات سريعة²⁸ في جميع المناحي الحياتية المتشعبة. وتتجلى هذه التغيرات في التجديدات والاختراعات، والموضوعات العلمية المستحدثة، وأحداث وفلسفات، ونشأة نُظم اجتماعية جديدة، وتنعكس جميعها في نشوء أعراف وأنماط معيشية مغايرة لتلك المعهودة سابقاً. هذا الوضع، يستوجب

²⁷ ويؤكد حماد (1983، 116) "أن كل التغيرات التي تصيب اللغة، تسير وفقاً لقاعدة أساسية واحدة هي أنها دائماً وأبداً تقع على مرحلتين: الأولى - مرحلة التغير نفسه أو الابتداع والتجديد: ويظهر هذا في الكلام الفعلي، وهو عمل فردي كالكلام نفسه. وهذا لا يعني أنه مقصور على فرد واحد، فقد يتصادف أن يتفق أفراد لا حصر لهم على الابتداع في وقت واحد، بل قد يحس عدد آخر من الجماعة اللغوية المعينة بأن هذا الابتداع كان حاضراً بأذهانهم، وكان في استطاعتهم أن يبدؤوا به وربما فعلوا؛ والثانية - مرحلة انتشار التغيير: إذا ما سمع الإنسان الشيء المبتدع في عبارة أو عبارات علق بالذهن وترتب على ذلك استعمال الآخرين له، ونفذ بالتدرج إلى نظام اللغة. وتأتي بعد ذلك مرحلة تسجيل الكلمات ومعانيها في معاجم اللغة".

²⁸ من المعلوم، أن العالم كان في الماضي يضاعف تطوير ذاته في آلاف السنين، وكلما تقدمنا نحو العصور الحديثة، أخذ زمن التضاعف يقل ليقف على مئات السنين. وما يحصل في عصرنا الحالي، هو أن العالم يضاعف تطوير ذاته في مدة زمنية تتراوح ما بين ثلاثة إلى ستة عقود بسبب ظاهرة "اتساع المعرفة".

إيجاد ألفاظ جديدة، ليست دارجة على اللسان في الحياة اليومية للتعبير عنه بالصورة التي تلائمها.

ب- النزوع إلى السهولة: تعتز الشعوب بلغاتها وتحاول قدر المستطاع المحافظة على أصوات اللغة وأبنيها وتراكيبها. ولكن، مع مضي الزمن، ترى الأجيال المتعاقبة بأن الأنظمة اللغوية التي فرضت سلطانها على اللغة أثقلت على عملية النطق بها، وأنها غير ملائمة للعصر، لذا تسعى هذه الأجيال إلى إحداث تغيير في اللغة، وينعكس التغيير في تخفيض المستوى اللغوي أو في التحدث بلهجة محلية، وهذا ما حصل للغة العربية، إذ أضحى التحدث العامية بدلاً للفصحى. وكذلك الأمر بالنسبة للعبرية، فقد حاول صناع القرار التحدث بالعبرية "الصافية" في العقود الأولى لإنشاء إسرائيل، إلا أن العبرية لم تصمد أمام هذا التحدي، وبدأت تتأثر من مفردات اللغات الوافدة إليها من لغات المهاجرين. وعليه، يلاحظ في السنوات الأخيرة، تداخل هذه اللغة الصافية مع مزيج من اللغات الأخرى، التي يطلق عليها العامية 1995.

ت- الاحتكاك مع الشعوب الناطقة بالسن مغايرة والانكشاف على اللغات الأخرى: الوضع الاقتصادي الذي تحسن في القرن العشرين سرع من عملية التواصل بين أبناء البشر، والذي تمثل بتكثيف وتيرة الزيارات والرحلات من بلدان الشرق إلى الغرب وبالعكس، وذلك بفضل تطور وسائل النقل. يُثار عند المسافر إلى بلاد لم يعرفها من قبل الفضول في التعرف على بعض المفردات الأساسية وحفظها لتسيير أحواله المعيشية أثناء بقاءه فيها. وبعد عودته من سفره يتذكر بعض المفردات التي اكتسبها، ويحاول

إدخالها في لغته. أما وسائل الاتصال العامة المرئية والمكتوبة، فقد أذابت الأبعاد الجغرافية بين المناطق المختلفة في هذا الكون، وصار يطلق على العالم "قرية صغيرة"²⁹.

ث- الصراع بين الأيديولوجية والحياة العملية: في بداية إنشاء دولة حديثة تكون الدافعية الأيديولوجية هي التي تسيطر على السكان، حيث تعد اللغة من المقومات الأساسية الداعمة لاستمرارية كينونة هذه الدولة الفتية. بداية، ينصاع السكان للأوامر التي تفرض عليهم التحدث بـ "لغة موحدة"، ولكن مع مضي الوقت، تضعف النزعة الأيديولوجية ويتغلب عليها الواقع الحياتي الذي يقضي باستخدام لغات الغير لأنهم لا يستطيعون العيش بمعزل عن الآخرين³⁰.

اللغة في ظل صراع البقاء

ليست عائلة اللغات السامية الوحيدة التي أثرت وتأثرت بغيرها من اللغات، فالأمر يعد طبيعياً في ظروف يتم فيها اختلاط الشعوب ببعضها البعض، إذ يستعين كل طرف باقتراض مفردات شائعة متداولة لدى الطرف الآخر³¹.

²⁹ على سبيل المثال، يستطيع كل فرد اليوم وهو جالس في بيته أن يضغط على زر التلفاز ويشاهد جميع الشعوب الناطقة بلغاتها. هذا الوضع، يزيد من إمكانية الانكشاف على جميع اللغات، والتأثر منها وتقليدها بالمحادثة دون أي رقيب.

³⁰ وهذا فعلاً ما حدث في دولة إسرائيل، حيث أصرت الحركة الصهيونية على استخدام العبرية كلغة أساسية للتواصل بين اليهود القدامى والجدد، ولكن فيما بعد، أخذت بعض المفردات الأعجمية تتداخل بالعبرية.

³¹ اقترضت اللغة العربية في العصر الجاهلي ألفاظاً أجنبية كثيرة، وكان العرب يلجأون إلى الاستعارة الضرورية: يفترضون الألفاظ التي تعبر عن أشياء غير مألوفة في شبه الجزيرة العربية، وكلمات تتطلبها مظاهر الحضارة والمدنية لدى الأمم العربية، التي كانت تتاخم الحدود العربية (أنيس، 1971: 124).

والسؤال الذي يطرح نفسه: لمن تكون الغلبة في التأثير؟

مما لا شك فيه، أن الشعب المتميز برقي حضارته وثقافته واختراعاته أو الغالب والمتنصر في الحلبة السياسية، هو الذي تُستعار ألفاظه في لغات الشعوب غير المتحضرة والمقهورة والمهزومة سياسياً³².

للسياسة أثر هام في بقاء اللغة أو اندثارها، وقد تنبه لهذه المسألة العرب القدماء، خاصة في المغرب العربي، وخاضوا غمارها في مؤلفاتهم. وعبر عن ذلك ابن خلدون في مقولته الشهيرة "ولع المغلوب بتقليد الغالب" (ابن خلدون، د.ت: 147). فالمغلوب يرى في غالبه قمة الكمال والرقي، فيقلده في لغته³³ وعاداته وتقاليده ومأكله وملبسه. أما ابن حزم الأندلسي فقد رأى أن السلوك اللغوي يقع في خانة "الغلبة والسلطان"، وفي ذلك قال (ابن حزم، د.ت: 1/ 190):

إن اللغة يسقط أكثرها وتبطل بسقوط أهلها، ودخول غيرهم عليهم في أماكنهم، أو بنقلهم عن ديارهم، واختلاطهم بغيرهم. فإنما يفيد لغة الأمة وعلومها وأخبارها قوة دولتها ونشاط أهلها، وأما من تلفت دولتهم، وغلب عليهم عدوهم، واشتغلوا

³² ويقول في ذلك محمد عبد العزيز (1996: 129): "حين يمتزج شعب بشعب آخر بفعل غزو أو هجرة تختلط اللغات، وقد يقدر للغة منها أن تبقى ويقدر للآخرى أن تهجر، ولكنها لا تخلي الميدان تمامًا للغة المنتصرة، بل تترك فيها آثارًا تقل أو تكثر بحسب درجة تحضر أصحابها. فقد تركت النورمندية المهزومة آثارًا في اللغة الإنجليزية، كما تركت القبطية والسريانية والبربرية آثارًا في اللغة العربية بعد انتشارها في مصر والشام والعراق والشمال الأفريقي".

³³ وذلك على ما نراه اليوم في لغات الدول الكبرى، خاصة الإنجليزية والفرنسية. تجدر الإشارة، إلى أنه بعد سيطرة هاتين اللغتين في الساحة الدولية، بدأتا تتصارعان فيما بينهما، وينعكس ذلك من خلال التنافس على انتشار وسائل الإعلام الإلكترونية، أي الإنترنت فأمریکا تسيطر على العالم من خلال "جوجل"، وفرنسا ترفض استخدام اللغة الإنجليزية السائدة في جوجل، وتنشر المعلومات بالفرنسية، ليتمكن الناطقون بالفرنسية من الاطلاع عليها.

بالخوف والحاجة والذل وخدمة أعدائهم، فمضمون منهم موت المخاطر، وربما كان ذلك لشتات لغتهم، ونسيان أنسابهم وأخبارهم، وهذا موجود بالمشاهدة ومعلوم بالعقل.

لم يتوقف الصراع اللغوي يوماً على وجه الكرة الأرضية، وذلك بسبب الاحتكاك المباشر بين بني البشر والنتائج إما عن الهجرات أو عن عمليات الغزو. تتسع في القرن العشرين ظاهرة الهجرة، أي النزوح من الوطن والهجرة إلى أرض جديدة، ويحدث احتكاك ما بين ثقافتين وحضارتين مختلفتين، ويكون التأثير اللغوي أكثر على المهاجرين منه على السكان الأصليين³⁴. بينما في حالة الغزو، فإن الصراع اللغوي يتوقف على القوة الثقافية والسياسية، التي يتمتع بها كل من الغازي والمغزو. وفي هذه الحالة، يتحقق أحد ثلاثة احتمالات:

الأول- السيطرة اللغوية للغزاة: عندما ينتصر الجيش الغازي، تبدأ عملية هجرة للغزاة إلى البلاد المحتلة، فتنشر موجاتهم بين السكان الأصليين، ويشاركونهم أعمالهم وأنشطتهم في حياتهم اليومية. ويقول إبراهيم أنيس عن هذه الحالة (أنيس، 1965: 24):

إنه من هنا يظهر تفوق الغزاة وسيطرتهم على مظاهر الحياة العامة والخاصة، على حين يقل نفوذ السكان الأصليين ويزداد خضوعهم للغزاة. وهنا تتميز طبقة غالبية مسيطرة وطبقة مغلوبة مقهورة، وتقع تلك الطبقة المغلوبة بمكانتها الدنيا، بل تطمح أحياناً إلى تقليد الغالين والتقرب منهم. وفي هذه الحالة، يفرض هؤلاء الغزاة ثقافتهم ولغتهم على هؤلاء المغلوبين، ولن يمضي وقت طويل حتى تكون ثقافتهم هي الثقافة الغالبة ولغتهم هي اللغة الشائعة. ولا تترك اللغة المغلوبة إلا آثاراً ضئيلة في اللغة الغالبة.

³⁴ نذكر على سبيل المثال، الهجرات العربية المكثفة إلى الدول الأوروبية، وخاصة دول المغرب العربي إلى فرنسا. فهؤلاء المهاجرون مرتبطون بالإدارة الحكومية الفرنسية وبالأشغال التجارية والصناعية، لذا فهم مضطرون للاندماج في حياة الدولة عن طريق اكتساب اللغة الفرنسية.

الثاني- السيطرة اللغوية للمغزوين: قد ينتصر الغازون في الحرب، ولكن عددهم يكون قليلاً، وتشتد حاجتهم إلى التعامل مع السكان الأصليين. لذا يبدأون حياتهم السلمية مع أهل البلاد المغزوة، ومع الوقت، تنقطع صلاتهم بالمناطق التي جاؤوا منها. في هذه الحالة، يهجرون لغتهم الأصلية ويستخدمون لغة السكان الأصليين، غير أن لغتهم قد تترك آثاراً في لغة السكان الأصليين (المصدر السابق: 24).

الثالث- التكافؤ بين الغزاة والمغزوين: وفي هذا الصدد يقول أنيس "قد يغزو شعب من الشعوب أرضاً يتكلم أهلها لغة أخرى، فيقوم صراع عنيف بين اللغتين الغازية والمغزوة، وتكون النتيجة عادة إما القضاء على إحدى اللغتين قضاءً تاماً، أو أن ينشأ من هذا الصراع لغة مشتقة من كلتا اللغتين الغازية والمغزوة، يشمل عناصر من هذه وأخرى من تلك" (المصدر السابق: 23).

وفي كتاب "اللغة والاقتصاد" يطرح فلوريان كولماس (2000) قضية "موت اللغة"³⁵ أو بالأحرى "انتحار اللغة"، حاملة معها ثقافة أمتها وتراثها إلى غياهب النسيان بفعل الغزو الثقافي أو المجابهة. ويدعي كولماس أن العالم سوف يشهد زوال لغات عدة تنسحب بثقافتها وتراثها تدريجياً، وتزول بسبب تبني الصفوة للثقافة ولغة الغازية التي تحتل حياتها.

³⁵ يطلق على اللغة التي لا تستخدمها جماعة من الناس بغرض الاتصال وتحقيق التعاون الاجتماعي المشترك- اللغة الميتة. هنالك العديد من اللغات المهمة التي راج استخدامها في القديم، ولم يعد أحد يستخدمها اليوم، مثل: الأكادية والسنسكريتية والسومرية واللاتينية واليونانية القديمة والقبطية وغيرها.

وإذا ما استمر هذا الوضع على حاله، لن تبقى الثقافة واللغة إلا في حوزة قلة معزولة بحكم الهوة الكبيرة التي تفصلها عن المستوى الحضاري السائد. وبزوالها التدريجي تزول الثقافة، ويندثر التراث واللغة، دونما وعي من المجتمع بانسحاب لغته من حياته اليومية³⁶.

ويستطرد كولماس قائلاً (المصدر السابق) إن استعارة "انتحار اللغة" أكثر ملاءمة من "موت اللغة"، لأن متكلمي اللغة هم المسؤولون عن تلاشيها وليس أي شخص آخر، في حين أنه من الأصح القول "إبادة اللغة" لأن المتحدثين لا يكونون واعين بما يتهدهدها من مخاطر. وفي المقابل، هنالك "انبعاث لغة" كما هو الحال في اللغة العبرية³⁷.

الجدل حول مكانة اللغات في الدولة الحديثة

تعرف اللغة كسمة مركزية في تعريف الدولة، وتشكل أحد الجوانب الأساسية في بلورة الهوية القومية. ومن هذا المنطلق، فإن تحديد اللغة الرسمية يعد من المهام المركبة والمهمة الملقاة على كاهل الدولة الفتية. ويذكر بول أن التحدي في هذا المجال في المجتمعات المتصدعة والمركبة من مجموعات إثنية ولغوية مختلفة، يكون أكثر من غيره، حيث يتوجب على الدولة اتخاذ قرار بشأن تدريج اللغات: أي اللغات تكون رسمية وتحظى بمكانة عالية، وأياها تمثل أبناء الأقليات وتحظى بمكانة ثانوية (Pool, 1991).

³⁶ يذكر كولماس في معرض حديثه عن زوال اللغة، أن اللغة قد تزول بسببين (كولماس، 2000: 201): أن الحكومة لم تفعل شيئاً، وأن المتحدثين أنفسهم قد أهملوها. كما ويذكر أن التعليم بلغة أجنبية أو بلهجة محلية يسهل انزواء اللغة.

³⁷ يرى إسحاق راين، رئيس الحكومة الإسرائيلية الأسبق، أن "انبعاث" كلمة غير مطابقة، ويقترح مصطلح "بعث اللغة" Language Revitalization، أي الإحياء أو إعادة بعث الحياة، بوصفه مصطلحاً أكثر ملاءمة (كولماس، 2000: 216).

هذا القرار في أساسه سياسي، لأن الذي يحدده هو الغالبية المسيطرة في المجتمع، وهو بالغ الخطورة بالنسبة لأبناء الأقليات، إذ يؤثر بشكل مباشر على مكانتهم الاجتماعية والاقتصادية عامة، وعلى هويتهم الجماعية خاصة (هرثيل - شاليف، 2005: 9).

ثمة منظرون، أمثال أنرسون وأبيت، يرون من الضرورة بمكان وجوب هيمنة لغة واحدة في الدولة بغية تكوين هوية إثنية وهوية قومية. فاللغة الواحدة تؤدي إلى تماثل المجموعات الإثنية مع الدولة، وتستخدم كآلية للتواصل السياسي والثقافي داخل المجموعة (Anderson, 1991, Apte, 1976).

يقمع هذا المطلب حقوق أبناء الأقليات، ولذا يرى الباحث كوك أن على هؤلاء عدم الرضوخ لهذا الواقع، ومن حقهم مناشدة الدولة بأن تعترف بلغتهم كلغة رسمية إلى جانب اللغة الأساس، وذلك للسببين الآتيين: الأول- حتى يتمكنوا من التغلب على التمييز الحاصل بحقهم من سيطرة الدولة والمجموعات المهيمنة على اللغة الرسمية؛ والثاني- تقوية هويتهم الذاتية (Kook, 1999: 51).

مما لا شك فيه، أن اللغة تلعب دورًا هامًا في حياتنا اليومية، وتتفرع وظائفها إلى عدة دوائر يمكن حصرها في الوظائف الآتية (Harmann, 1999): وسيلة اتصال بين أفراد المجموعة والعالم الخارجي؛ المحافظة على الوعي الثقافي ونشر المعرفة؛ تعزيز الجذور والرموز القومية؛ خدمة الخطاب السياسي بالتلميح أو بالتصريح والدلالة على المكانة الاجتماعية للفرد. ويؤكد هارمان على أن اللغة تؤثر في نفسيتنا وسلوكنا وتعبّر عن المشاعر والاتجاهات والقيم التي نؤمن بها، وتبلور عالمنا الداخلي. كما تشكل حدثًا اجتماعيًا يساهم في بناء ثقافة الفرد، ويميزه عن الآخرين. ويعتبر الملا اللغة (الملا، 1995: 11) "ظاهرة عقلية اجتماعية حضارية، وأن الحالة الذهنية لمستخدمي لغة معينة، وكذلك الحالة الاجتماعية تؤثران على اللغة وتطورها تأثيرًا مباشرًا سلبيًا أو إيجابيًا".

وعلى الصعيد الخارجي، تتحول اللغة إلى أحد العوامل السلبية التي بمقدورها دفع عجلة الصراع في المناطق المعروفة بالخلافات والتوترات على خلفية قومية أو إثنية أو عرقية. ثمة من يعتقد أن الصراع بين الأقليات المركبة من مجموعات إثنية داخل دولة ما، أو الصراع بين الجيران الذين ينتمون إلى أعراق مختلفة على الحدود؛ ينحصر في المجالات القومية والعقائدية والأيدولوجية. في الحقيقة، لا يتوقف الأمر عند هذه المسائل فحسب، بل هو أعمق بكثير ويشمل المجالات الثقافية واللغوية، التي لا تقل في أهميتها عن التمسك بالأرض.

وفي هذا الصدد يذكر ياسر سليمان، في كتابه "حرب الكلمات: اللغة والصراع في الشرق الأوسط" (Suleiman, 2004)، أن وجود اللغة في بيئة تكثر فيها الصراعات وتناقضها مع لغة أخرى، يجعلها أكثر بكثير من أداة اتصال يومي، إذ تتحول إلى تعبيرات مركبة لها مدلولات عميقة منعكسة عن قلب الصراع الدائر بين الأطراف المعنية³⁸.

ويؤكد سليمان (Suleiman, 2004) على أن اللغة في الوضع الصراعى تستخدم كالحُدود: تفصل بين البشر، وتحدد معنى الانتماء إلى المجموعات الإثنية والقومية، إذ لا يمكن الاعتراف بانتماء عنصر دخيل إلى الفضاء الإثني أو القومي المحدد من دون اشتراطات

³⁸ وفي نفس السياق، كتبت الكاتبة الأمريكية ساندرا زلبرشتاين Sandra Silberstine كتابها "حرب الكلمات" (2003) War of Words الذي تناول دور اللغة في الحُص على دفع الصراع في الفترات العصبية، خاصة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر. جعلت الأحداث الدراماتيكية المفاجئة من الرئيس الأمريكي جورج بوش متحدثاً إعلامياً، وظيفته توجيه حديثه إلى الشعب الأمريكي لإقناعه بمساندته في مواجهة ما سماه "الحرب على الإرهاب"، التي اعتبرها همه الأكبر. ولاحقاً في المساء ألقى بوش خطاباً على مدى خمس دقائق أعلن فيه الحرب، واصفاً الهجمات قاتلاً: "إن المسألة ليست مجرد طائرتين اصطدمتا بمركز التجارة العالمي، أو أن تلك الهجمات تمثل أحداثاً مأساوية، بل إنها هجمات شُنت ضد مجرى حياتنا، والأسلوب الذي نحياه من خلاله".

هوياتية، تدخل اللغة في قلب تكوينها. فاللغة تعبير كياني، ولها مدلولات هوية ومرجعية انتهاء.

تخوض اللغة صراعات متوازية مع الصراعات السياسية والثقافية في بيئتها. على سبيل المثال، يشير سليمان³⁹ إلى أن اللغة العربية هي في قلب صراع خارجي وداخلي، ففي فلسطين تتعرض اللغة إلى محاولة تطهير في سياق صراعها مع اللغة العبرية؛ وفي البلدان العربية نفسها تصارع اللهجات العامية والدارجة. وفي كل بيئة تعكس نوع الصراع الموجود فيها فتصبح واحدًا من الأسلحة المستخدمة فيه.

التنوع والتطهير اللغوي

يذكر ياسر سليمان⁴⁰ أن اللغة تستخدم للتواصل وتستخدم أيضًا كقضية رمزية. على سبيل المثال، العرب الفلسطينيون يستخدمون العربية، وهي لغة يعتز بها أصحابها مع أنها تعرضت لكثير من المزج اللغوي مع العبرية. فاليهود يستخدمون اللغة كوسيلة من الوسائل التي يتم من خلالها فرض هوية جديدة على الأرض، وإعادة صياغة هذه الأرض وصياغة ملامحها، بلغة عبرية تنفي وجود اللغة العربية أو تسيطر عليها.

يجب التأكيد على أن الصراع السياسي يؤثر على المخزون اللغوي، وفي حالات معينة تصبح اللغة جزءًا لا يتجزأ من الصراع، كما هو حاصل في البلاد. وما دام هذا الصراع مستمرًا، فإنه لا يتوقع أن يطرأ تحسن جذري على مكانة العربية في القريب العاجل.

³⁹ هذه المعلومات قيلت في برنامج "الكتاب خير جليس" الذي بثته قناة الجزيرة بتاريخ 9.4.2005، والذي استضافت فيه القناة البروفيسور ياسر سليمان وحاورته حول كتابه "حرب اللغات.. اللغة والصراع في الشرق الأوسط".

⁴⁰ انظر الهامش السابق.

أصبحت الحرية اللغوية، أي أن يتكلم الإنسان ويتعلم لغته الأم بحرية مطلقة، مطلباً أساسياً مشروعاً في الأنظمة الديمقراطية، شأنها كشأن أي حق يُمنح للشرائح الاجتماعية، مثل حقوق المساواة للمرأة أو ممارسة الشعائر الدينية وغيرها. وتظهر القضية اللغوية بشكل خاص، في الدول التي تتواجد فيها الأقليات، فهناك دول تسمح بالتعددية اللغوية وفق نماذج معينة ذكرها لامبرت في كتابه (Lambert, 1995, 1999).

وبالمقابل، ثمة دول تحرم أقلياتها التحدث بلغة الأم. ترى هذه الدول بـ"التوحيد اللغوي" هدفاً أسمى ينبغي إلى تحقيق درجة عالية من التماسك القومي، فالتحدث باللغة القومية، يعني تهميش اللغات الأخرى أو تذويبها، ويضمن بشكل فعلي إحكام قبضة النظام على جميع السكان، ومن ضمنهم الأقليات. فاللغة تنمي الهوية العرقية، وتقوي العلاقات بين أفراد المجموعة الناطقة بنفس اللغة. وتحاول الأقليات إبراز هويتها عبر التكلم بلغاتها الأصلية في بيوتها، وقد يؤدي هذا التواصل إلى المطالبة بمنحها الاستقلالية أو التمرد على النظام.

تسير العلاقة بين الدولة والأقليات التي تُحرم من التحدث بلغتها وفق المعادلة الآتية: من جهة، تضغط الدولة على الأقليات للتحدث بلغة الدولة، وذلك للسيطرة عليها. ولكن في نفس الوقت، ترفض الأقليات الانصياع لهذه الأوامر من أجل الحصول على مكاسب سياسية، وذلك للاعتراف بها كأقلية قومية.

الهويات المقهورة في منطقتنا

يلاحظ أن الكثير من الأقليات في العالم، تتعرض لـ"قمع لغوي"، أو "سياسة تطهير لغوي"، وهي مبادرة العنصر الأقوى لاستبدال اللغات الدارجة في منطقة معينة يطمح في ضمها إلى ممتلكاته، ليضمن سيطرته عليها، هذا السلوك، بحد ذاته، هو نوع من أنواع

الاضطهاد الذي تعاني منه الشعوب المغلوبة على أمرها. فالاضطهاد أو القمع ليس محصوراً في الحقوق المدنية والسياسية، وإنما أيضاً يقع في خانة الممارسة اللغوية.

يمتاز الشرق الأوسط وشمال أفريقيا بتعدد الأقليات الكبيرة، وهذه الأقليات أو الهويات الوطنية تقع تحت وطأة القهر اللغوي الخارجي والداخلي. تمثل القهر الخارجي بالاستعمار الذي فرض سلطانه على جميع مواطني الدولة، ومن ضمنهم الأقليات. وبعد انتهاء الاستعمار، وقعت هذه الأقليات تحت أفكار الهيمنة الاستعمارية الداخلية، إذ حُرمت من ممارسة حقوقها اللغوية، وعانت الأمرين من وراء ذلك. نذكر في منطقتنا ثلاث حالات على هذه الشاكلة:

1- اللغة الكردية: يمثل الأكراد أكبر أقلية عرقية في الشرق الأوسط، ويقدر ملا كردي (1990) عددهم بخمسة وعشرين مليوناً يعيشون في خمس دول، وهي: تركيا (13.5 مليون)، إيران (5.5 مليون)، العراق (4 مليون)، سوريا (1.5 مليون) وجمهورية الاتحاد السوفييتي سابقاً (ربع مليون). ويطالب بعض الأكراد بحق تقرير المصير، وإنشاء دولة كردية مستقلة (كردستان الكبرى) على الأراضي التي يعيش فيها الشعب الكردي في الدول الإقليمية الخمس، فالمسألة الكردية معقدة لكونها مسألة قومية وإقليمية ودولية⁴¹.

يذكر أنه إبان حكم النظام السابق في العراق قام صدام حسين بعدة ممارسات في مدينة كركوك، التي يقطنها الأكراد، هدفت إلى تغيير طابعها السكاني والجغرافي لتحويلها إلى محافظة عربية، وهذه السياسة أطلق عليها "سياسة التعريب". وبعد سقوط النظام استبدل المصطلح في أدبيات الأحزاب الكردية بـ "سياسة التطهير العرقي".

⁴¹ لغوياً تُكتب الكردية بثلاثة أشكال من الحروف: الحرف العربي، والحرف اللاتيني، والحرف السلافي الروسي. هذا التنوع في كتابة الحرف يفسر مدى الضغوطات التي يجابهها الأكراد في التعامل مع لغتهم في الدول التي يقطنون بها.

2- اللغة السريانية: يعيش السريان كمجموعة عرقية في العراق وسوريا (حوالي مليونين نسمة)، وفي لبنان وتركيا (حوالي 30 ألف نسمة). ويقول سليم مطر (2003) إنه منذ تسلم حزب البعث مقاليد الحكم في سوريا عام 1963 أُغلقت المدارس والأندية والجمعيات السريانية. ويرى مطر أنه من الضرورة بمكان اعتبار السريانية لغة رسمية تاريخية، شقيقة اللغة العربية، وإقرار تدريسها كلغة ثانية في مدارس العراق وبلاد الشام.

3- اللغة الأمازيغية في منطقة القبائل الجزائرية: احتل الفرنسيون الجزائر عام 1830 وأخرجوا منها عام 1962، ونص الدستور الصادر عام 1989 في مادته الثالثة على أن اللغة العربية هي الوطنية وهي الرسمية، ورفض الدستور الاعتراف بالأمازيغية كلغة وطنية، وبدأت عملية التعريب لتثبيت كيان اللغة العربية (المناصرة، 2004: 143). وبالرغم من ذلك ظلت الفرنسية، كما ذكرنا، هي المهيمنة وازداد نفوذها بعد الاستقلال في مقابل صراع العربية والأمازيغية⁴².

إن حرمان الأقليات من استخدام لغاتها أدى إلى نشوء حركات سياسية مقاومة لسياسة القمع اللغوية الرسمية⁴³. لم تنشأ مناوأة هذه السياسة من فراغ لأن اللغة تحمل في طياتها رموز الهوية العرقية، ويؤكد على ذلك بوتش (Bosch, 2000: 25) بقوله:

⁴² تظاهر الأمازيغيون في أكتوبر 1988 من أجل التعددية اللغوية، وفي أعقاب ذلك أخذت قضية اللغة والثقافة الأمازيغية بُعداً وطنياً. فقد طالب المتظاهرون بالاعتراف الرسمي باللغة الأمازيغية، وإنشاء أكاديمية لتطوير اللغة وتدريسها، كمرحلة أولى في الجامعة، وإعادة الاعتبار لتاريخ الجزائر قبل الفتح الإسلامي (المناصرة، 2004: 153).

⁴³ على سبيل المثال، كان النظام العراقي متشدداً جداً في تعامله اللغوي مع الأقليات، وبعد سقوطه اندرجت الحرية اللغوية في سلم الأولويات التي منحتها الإدارة الأمريكية المؤقتة في العراق للأقليات العرقية.

أوضحت اللغة الرمز الغالب للهوية العرقية كونها حملت في الماضي هذا المنحى، وتعبّر عن الاتجاهات والطموحات الحاضرة والمستقبلية.

وفي نفس السياق، يدعي المناصرة (2004: 139):

إن مشكلة الهويات المقهورة لا تحل بالأساليب الأمنية ولا العسكرية ولا بالاندماج القهري، ولا بالازدواجية غير المرغوبة، إنما تحل عبر الاعتراف بحقوق الهويات كاملة، عبر مواطنة كاملة.

ثمة صلة بين العلاقات العرقية والتسامح تجاه الهويات الأخرى، ترتبط بدرجة الأمان التي تتمتع به المجموعة ونظرة أفراد المجموعة تجاه هويتهم. ويستنتج لامبرت ومريمجس وتايلور (Lambert & Lambor & Taylor, 1986: 50) بأنه "كلما كان أعضاء المجموعة أكثر أماناً وإيجابية حول هويتهم، فإنهم يكونون أكثر تسامحاً من المجموعات الأخرى" (انظر أيضاً أمارة، 2002: 18) ⁴⁴.

ولكن، من جهة أخرى، يجب التأكيد على أن اللغة تعد أهم مكونات الوحدة الشاملة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، فاللغة هي الجامع للناس والمحفّز على التماسك، وبفضلها تحولت بعض الدول المركبة من فئات سكانية مختلفة في دياناتهم وثقافتهم وأعرافهم وتقاليدهم إلى دول عظمى. وأكبر دليل على هذا في عصرنا الحالي الولايات

⁴⁴ وفي هذا الصدد يقول جوناثان أبريك لويس (مجلة الشرق الأوسط، صيف 2004) إنه متى تحولت سياسة دولة ما من استخدام اللغة لبناء الوحدة القومية إلى سياسة مدروسة لمنع الهوية الثقافية للجماعات الأقلوية، فإن ذلك ينذر بالشر بالنسبة للتسامح داخل الدولة برمتها.

المطلوب من الدول التي تشتمل على عدة أقليات هو سن سياسة لغوية، تعتمد على مبدأ الشخصية للحقوق اللغوية، وضمان خدمات محدودة للفرد في لغته، إلى جانب اللغة الرسمية المعمول بها في الدولة.

المتحدة الأمريكية، والاتحاد السوفيتي سابقاً، إذ عملت حكومتا الدولتين على فرض اللغة بالقوة، بما سُمي بـ"التطهير اللغوي" للوصول إلى الوحدة الاجتماعية السياسية⁴⁵.

ويذكر وليام سافير (معاريف، 24.6.2005، نهاية الأسبوع، ص 48) أن كل لغة تعتمد "طهارة اللغة" لا تستطيع أن تنمي ذاتها، فالتنوع اللغوي يساهم في تطوير اللغة في مجالين: الكمي - زيادة مفردات اللغة، والتي تتوسع عبر نطاق الاستعمال اللغوي؛ والكيفي - إكساب معان إضافية لمفردات قائمة في لغة الهدف. فالبريطانيون، على سبيل المثال، كانوا منزعين جداً، إبان الحرب العالمية الثانية، من تغلغل العامية الأمريكية في لغتهم، ولكن الأيام أثبتت أن هذه الفكرة كانت هامشية، إذ استطاعت الإنجليزية شق غبار هذه المصاعب، لتصبح اللغة الأولى انتشاراً في العالم⁴⁶.

⁴⁵ يجب التأكيد على أن الحركة الصهيونية تعلمت من النماذج التي سبقتها، وعملت على جعل اللغة العبرية لغة تحتوي جميع الأعراق اليهودية، ورأت بها المحرك والمحفز الرئيس لإنشاء دولة عبرية ناجحة، كما سنرى لاحقاً.

⁴⁶ ويخلص سافير (المصدر السابق المذكور أعلاه في النص، 82) إلى أن اللغات القومية فكرة جيدة، ويجب المحافظة عليها. وهذه بالتأكيد فكرة صحيحة، أن يحافظ الإسرائيليون على لغتهم. والوضع المثالي، أن يتحدث الإسرائيليون بالعبرية وأن يكتسبوا ملكة اللغتين الإنجليزية والعربية. أنا أعمل اليوم مع منظمة تعكف على تطوير دراسة الدماغ، ويقر باحثو الدماغ بأنه إذا ما استطاع الولد أن يتعلم عدة لغات، وأن يحافظ عليهن، فإن ذلك يساعده في تعلم مجالات أخرى. للأسف، غالبية الأمريكيين لا يعرفون أكثر من لغة واحدة.

تصنيف اللغات

يصنف بولنجر لغات العالم إلى مجموعات وفقاً لطرق ثلاثة، تعتمد على الأسس الآتية (Bolinger, 1975: 27- 28؛ انظر، أيضاً، عبد العزيز، 1996: 111):

1- القرابة اللغوية بين اللغات Genetically - ويكون ذلك عندما تنتمي اللغات إلى أصل مشترك. فعلى سبيل المثال ثمة قرابة تربط الإنجليزية بالألمانية لأنها اشتقتا من اللغة الجرمانية؛ واللغة الفرنسية لها قرابة باللغة الإيطالية، فكلتاهما تنتميان إلى اللغة اللاتينية؛ وكذلك اللغتان العربية والعبرية اللتان تنتميان إلى أصل مشترك، وهو اللغة السامية.

2- العلاقات الثقافية بين اللغات Culturally - عندما تتلاقى لغتان تنشأ اتصالات واقعية بين الشعبين الناطقين بهاتين اللغتين. على سبيل المثال، نجد بين العربية والفارسية علاقات ثقافية مشتركة انعكست في اقتراض كل لغة من اللغة الأخرى ألفاظاً تتصل بثقافة الآخر، أي ثقافة العرب والفرس.

3- أوجه شبه شكلية بين اللغات (وسائل بناء الكلمات وتوليدها) Typologically - أحياناً نجد أوجه شبه قوية بين لغات ليست بينها علاقة قرابة أو علاقة ثقافية، كما هو الحال في اللغتين الإنجليزية والصينية، وذلك لإيثارهما طريقة مشتركة في بناء الكلمات. وكذلك ثمة أوجه شبه قوية مشتركة بين العربية والسنسكريتية لإيثارهما منهجاً مشتركاً في تعريف الكلمات.

وبناءً على هذا التصنيف، هنالك ثلاثة أنواع من اللغات لها خصائص مشتركة تتصل ببناء الكلمة أو الجملة (ظاظا، 1971: 152- 155)، وهي:

1- اللغات التصريفية Inflectional - في هذه اللغات يتم بناء الكلمة بطريقتين: الأولى، بتغيير داخلي في شكل الجذر؛ والثانية، بإضافة عناصر لغوية مستقلة تندمج في الجذر بحيث لا يمكن عزلها عنه.

ومن اللغات التي تنضم تحت لواء هذا الصنف السنسكريتية واليونانية واللاتينية والعربية.

2- اللغات العازلة Isolating- تستخدم هذه اللغات المورفيمات⁴⁷ الحرة أو الكلمات، وتدل على العلاقات النحوية بنظام الجملة المعين. ومن هذه اللغات، اللغتان الصينية والإنجليزية⁴⁸.

3- اللغات اللاصقة Agglutinating- تتألف الكلمة في هذه اللغات من عدد متنوع من المورفيمات، لكل منها معنى محدد ثابت، ويشيع في هذه اللغات استعمال السوابق واللاحق.

ومن هذه اللغات، اللغة التركية والسواحيلية والكورية⁴⁹.

هنالك من اللغويين من اعترض على هذا التصنيف لأنهم رأوا أن بعض اللغات المعروفة قد تنضم إلى مجموعتين أو أكثر من المجموعات المذكورة أعلاه. على سبيل المثال، تعد العربية (وكذلك العبرية) لغة تصريفية، تستخدم الاشتقاق لتنويع الكلمات المشتقة من الجذر نفسه. وهي، أيضًا، لغة لاصقة لأنها تستخدم كثيرًا من السوابق واللاحق.

⁴⁷ المورفيم Morpheme بالعربية يسمى "الصرقة"، أي الزائدة واللاحقة الصرفية، كتلك التي تتصل بالأفعال أو الأسماء، وتشكل علامات الإعراب والتنثية أو علامات تبتدئ بها الأفعال، وتلك التي تضاف إلى الجذر فتغير علاقته وزمنه، كأحرف المضارعة التي تحدد علاقة الفعل بالفرد وتغير زمنه (لعب- يلعب)، فهي أصغر وحدة لغوية ناقلة للمعنى.

⁴⁸ على سبيل المثال، ليس في اللغة الصينية للاحق تصريفية أو اشتقاقية، فالكلمة فيها تغطي بوجود حر مستقل، والفعل فيها جامد لا يتصرف باعتبار الفرد، أو العدد أو الزمن، ونادرًا ما تستخدم اللغة الصينية السوابق أو اللاحق.

⁴⁹ على سبيل المثال، الشائع في اللغة السواحيلية استخدام السوابق، بينما في اللغة التركية يشيع استخدام اللاحق.

يعد وجود جوانب متشابهة بين اللغات دليلاً على أنها انحدرت من أصل واحد مشترك، أي من اللغة الأولى، التي تفرعت منها اللغات المختلفة على مر العصور التاريخية. لقد تبين لدى دراسة اللغات العربية والعبرية والآرامية والأكدية والحبشية أنها تحمل في طياتها الكثير من الخصائص المشتركة، الأمر الذي حدا بعلماء اللغة إلى الاستنتاج بأنها انحدرت من أصل واحد، أطلقوا عليه "اللغة السامية"⁵⁰ الأولى "proto-semitic". بين هذه اللغات ثمة وجوه شبه عديدة في النظم الصوتية، وتشابه بين النظم الصرفية والنحوية، وتشابه بين المفردات في الشكل والمعنى؛ مما يؤكد على تفرعها من أصلها السامي المشترك⁵¹. ولنضرب على ذلك مثلاً في مجال تشابه المفردات:

⁵⁰ الباحث شلوتسر (ولد عام 1798) من الباحثين الأوائل الذين درسوا هذه المجموعة اللغوية، ولاحظ وجود أوجه شبه كثيرة بينها. ووجد في التوراة تقسيماً للشعوب إلى أبناء حام وأبناء سام وأبناء يافث. "مِنْ هَؤُلَاءِ تَفَرَّقَتْ أُمَمُ الْبَحْرِ يُبْلِدَانِهِمْ وَعَشَائِرُهُمْ، كُلُّ جَمَاعَةٍ بِحَسَبِ لُغَتِهَا" (التكوين، 10: 5)، "وقبل ذلك وكان لأهل الأرض كلُّها لُغَةً واحدةً وكلامٌ واحدٌ" (التكوين، 11: 1). لاحظ شلوتسر أن أسماء هذه اللغات تنطبق إلى حد كبير على أسماء أولاد سام، فسمى هذه اللغات باسم "اللغات السامية". انتشرت هذه اللغات قديماً في المنطقة التي تُحدّد من الجنوب الشرقي بالخليج العربي ومن الشمال الشرقي ببلاد ما بين النهرين، ومن الجنوب الغربي بالهضبة الحبشية، ومن الشمال الغربي بالبحر الأبيض المتوسط (الذي كان يسمى في القديم "بحر تيطس").

⁵¹ ومن الفصائل اللغوية الأخرى التي تتشابه فيها بينها وتمثل مجموعة متجانسة: اللغات الفرنسية والإسبانية والإيطالية، وغيرها من اللغات تنتمي إلى اللغة اللاتينية؛ واللغات الألمانية والسويدية والإنجليزية والتي تنتمي إلى مجموعة اللغات الجرمانية. وهذان الفرعان، اللاتيني والجرماني، فرعان من شجرة كثيرة الفروع هي اللغات الهندو-أوروبية (عبد العزيز، 1996: 257).

العربية	العبرية	الأكدية	الآرامية	الحبشية
جمل	جَمَال	جَمَلُو	جَمَلَا	جمل
أرض	إيرتس	أرصتُ	ارعا	أرض
سلام	شَلوم	شَلَمو	شَلَمَا	سلام
ثور	شور	شورو	تورًا	ثور
كلب	كَلِب	كَلَبو	كلبا	كلب
فم	بيه	بو	بوما	فم

جدول رقم 1: مفردات متشابهة في اللغات السامية شكلاً ومعنىً.

يتبين من الجدول أن الكلمات العربية والحبشية ليست مجرد كلمات متشابهة، وإنما متطابقة. وإن الأمر ليس صدفة، إذ تبلورت في الجزيرة العربية لغتان: العربية الجنوبية - وهي قريبة إلى اللغة الحبشية، التي تنتمي إلى اللغات السامية، وبقي منها القليل؛ والعربية الشمالية - وهي اللغة التي نستخدمها اليوم في العربية الحديثة.

التشابه اللغوي بين العربية والعبرية

إن العربية والعبرية والآرامية هي من أكثر اللغات تشابهاً وقرباً من بين عائلة اللغة السامية⁵² (Semitic Languages)، وقد شبه ابن حزم هذه القرابة بقرابة اللغة الواحدة قائلاً (ابن حزم، د.ت: 30 / 1):

⁵² السريانية هي لهجة آرامية ارتبطت بالمسيحية، وتنقسم إلى لهجة شرقية ولهجة غربية، حيث ازدهرت السريانية مع انتشار المسيحية شيئاً فشيئاً. ووصل التأليف بالسريانية والترجمة إليها مع بداية القرن الثالث الميلادي إلى مستوى رفيع. بداية كانت اللغة في منطقة محدودة في شمال الشام، ومن ثم أصبحت لغة جماعة كبيرة في شمال العراق والشام. وترجع الأهمية التاريخية للسريانية إلى أنها كانت المعبر الذي انتقلت خلاله الثقافة اليونانية إلى الحضارة العربية الإسلامية. ومن الناحية اللغوية انتقلت كلمات كثيرة من

الذي وقفنا عليه وعلمناه يقيناً أن السريانية والعبرانية والعربية التي هي لغة مضر وربيعة لا لغة حمير لغة واحدة تبدلت مساكن أهلها، فحدث فيها جرش كالذي يحدث من الأندلسي إذا رام نغمة أهل القيروان، ومن القيرواني إذا رام نغمة الأندلسي. ونحن نجد من سمع لغة أهل فحّص البلوط وهي على ليلة واحدة من قرطبة كاد يقول إنها لغة أخرى غير لغة أهل قرطبة. وهكذا في كثير من البلاد فإنه بمجاورة أهل البلدة بأمة أخرى تتبدل لغتها بدلاً لا يخفى على من تأمله... وإذا تعرب الجواليقي أبدل من العين والحاء هاء فيقول مهمداً إذا أراد أن يقول محمداً. ومثل هذا كثير، فمن تدبر العربية والعبرانية والسريانية أيقن أن اختلافهما إنما هو من نحو ما ذكرنا من تبديل ألفاظ الناس على طول الأزمان واختلاف البلدان ومجاورة الأمم وأنها لغة واحدة في الأصل.⁵³

هنالك صفات كثيرة مشتركة بين العربية والعبرية⁵⁴، وهنا لا يسمح المجال في الوقوف على كلّ التفاصيل لأن ذلك بحاجة إلى دراسات موسعة ومستفيضة. لذا أكتفي بعرض بعض النماذج المجملّة (انظر أيضاً دنا، 1995؛ طنوس، 2006؛ بصل، 2007):

السريانية إلى العربية، ومنها كلمة "فيلسوف" - يونانية الأصل التي دخلت إلى العربية عن طريق السريانية. وتسمى اللغة السريانية المنسوخة بالأحرف العربية "الكِرشونية" أو "الغرشونية".

⁵³ من بين اللغات السامية الأخرى حظيت العربية والعبرية بدراسات لغوية مقارنة كثيرة. ففي العصور الوسطى شرع النحويون العبريون بدراسات مقارنة مستفيضة بين العبرية والعربية في مجالات علم الأصوات والنحو والصرف وجذور المفردات وغيرها، وانصبت غالبيتها في تبيان تأثير العربية في العبرية (مرعي، 2008).

⁵⁴ هذا التشابه واقع في القديم والحديث، فأجزاء الجسم، والتي تعد من أقدم الألفاظ في اللغات البشرية، نراها في اللغتين متحدة الصورة والدلالة. كما وأن هنالك بعض الكلمات في العبرية تتطابق مع نظيراتها في اللغة العربية الكلاسيكية، مثل: سفر ٦٥٥ (كتاب)، ٦٦ خدر (ربات الخدور)، ٦٦٦ نبضة (برعم شجرة النخيل)، ٦٦٦ منهج (عادة)، ٦٦٦ دَرَكَ (الطريق المنحدر). للمزيد من الأمثلة، انظر (أنيس، 1992).

1- المفردات المتشابهة: هنالك الكثير من المفردات المتشابهة بين العربية والعبرية في مجال الأصوات، أي التشابه الصوتي (Phonology) وتظهر بعدة صيغ⁵⁵:

* نفس الكلمات: عقرب - لاکרב، يوم - יום، دب - דב، عين - עין، حليب - חלב.

* استبدال أحرف: جرو - גור، حنش - נחש، سكت - שתק.

* نسخ الحروف المتقابلة:

حرف لا (تسادي) بالعبرية يقابله بالعربية:

أ- الصاد: صهل - צהל، صرخ - צרח، صاد - צד، صاح - צוח، صدق - צדק، صوم - צום، إصبع - אצבע.

ب- الظاء: طبي - צבי، قيظ - קיץ، الظهر - צהרים، ظل - צל، أظلع - צולע.

ت- الضاد: ضبع - צבוע، ضحك - צחק، أرض - ארץ، ضلع - צלע، ضأن - צאן.

وحرف ש (الشين) بالعبرية يقابله بالعربية:

أ- السين: سأل - שאל، سبعة - שבעה، سييل - שביל، سبي - שבה، أسبوع - שבוע، سبط - שבט، سبت - שבת، سنبله - שבולת، سطحي - שטחי.

ب- الشين: شوق - שוקנות، شرطة - משטרה، شطف - שטף، شبرية - شبرיה، شهق - שחק، شحذ - שחז.

ت- الثاء: ثور - שור، ثمانية - שמונה، ثلاثة - שלושה، ثوم - שום، ثعلب - שועל، أثل - אשל، ثني - שנה، ثانوي - משני، ثلج - שלג.

حرف ז (الزاي) بالعبرية يقابله بالعربية:

⁵⁵ بالإمكان ملاحظة المفردات المتشابهة بين اللغتين من خلال المعجم، وتظهر في أسماء أبناء العائلة وأعضاء الجسم والعدد والأدوات وأحرف الجر وغيرها.

أ- الزاي: زوج- זוג، زرع- זרע، زيت- זית، ازدهر- הצדח، زجاج- זגג، رمز- רמז، زمن- זמן.

ب- الذال: ذقن- זקן، أذن- אוזן، ذنب- זנב، ذهب- זהב، ذكر- זכר، ذئب- זאב، هذا- זה، ذبح- זבח، ذراع- זרוע.

2- تبدل الفونيمات: تمتاز اللغتان بطريقة استبدال الوحدات الصوتية المستقلة (الفونيمات)، أي يمكن أن تحل الواحدة محل وحدة أخرى مستقلة مع تغير المعنى⁵⁶. على سبيل المثال، علامة جمع المذكر السالم في اللغتين العربية والعبرية متشابهة بنظام المورفيم: جمع المفردات (المذكر) في العربية تنتهي بالمورفيم -ون: ناجحون أو -ين: ناجحين، ويقابلها في العبرية "يم": מצליחים. وجمع المفردات (المؤنث) في العربية تنتهي بالمورفيم -ات: ناجحات، ويقابلها بالعبرية "وت": מצליחות. وتتحدد علامة التأنيث في اللغتين بحرف الهاء: تلميذ - תלמיד، تلميذة - תלמידה.

وفي المضارع أحرف "أنيث" مشتركة في اللغتين: أسمع-שמע، نسمع-נשמע، يسمع-ישמע. وفي صيغة الماضي والأمر، تجد أحرفاً مشتركة لصياغة الفعل⁵⁷. تسمع-שמע.

⁵⁶ يجب التأكيد على أنه مما يكسب هاتين اللغتين هذه المكانة، العلاقة المباشرة بين العربية والعبرية اللتين انحدرتا من الأصل السامي، ناهيك عن الأنماط اللغوية التي تتفق فيه اللغتان من منظومات بنوية، وتراكيب نحوية، وتصريف للأفعال والأسماء.

⁵⁷ تمتاز اللغتان أيضاً باستبدال الوحدات الصوتية، بحيث يعد الحرف وحدة مستقلة يمكن أن يحل مكانه حرف شبيه به ويكون المعنى مختلفاً. على سبيل المثال، في كلمة "طاب" يمكن استبدال حرف الطاء بحرف التاء المشابه له في صوته فنحصل على كلمة "تاب"، ومعنى الكلمتين مختلف. وكذلك في كلمة "قال"، إذ يمكن استبدال القاف بالكاف فتتكون كلمة "كال"، التي تختلف في معناها عن الأولى، وسوى ذلك من الأمثلة.

وفي علم الصرف (Morphology)، تجد أن قوالب الصيغة لأوزان الأفعال والأسماء متشابهة إلى حد كبير⁵⁸.

3- صيغ الأسماء والأفعال: تشابه صيغ الأسماء بين العربية والعبرية تظهر في ثلاثة جوانب: العدد (الإفراد، التثنية والجمع)، وتوقفت التثنية في العبرية⁵⁹؛ الحالات الإعرابية (رفع، نصب، جزم)⁶⁰ وتوقفت هذه الحالات في العبرية؛ والجنس (مذكر ومؤنث).

أما الأفعال في اللغتين، فتظهر على صيغة ماضٍ ومضارع وأمر. والفعل المضارع في العربية يدل على الحاضر والمستقبل (بإضافة حرف السين أو سوف)، أما في العبرية فللحاضر حالة הווה أو בינוני، وللمضارع حالة أخرى (المستقبل) - לאתיד.

تمتاز العربية والعبرية بخاصية الاشتقاق الذي يأتي على أنواع تبلغ عشرات الكلمات المشتقة من فعل واحد. مثال على ذلك، نستطيع أن نشق من الجذر (ك-ت-ب)

وفي العبرية تتواجد هذه الظاهرة الصوتية، فثمة تشابه في صوت الحروف: ו-ו, ת-ת, כ-כ, ב-ב, ס-ס. على سبيل المثال، كلمة טיול معناها "رحلة"، وعندما نستبدل الطاء بحرف التاء، تنتج كلمة جديدة תיול وتعني "ربط الأسلاك" وشتان بين معنى الكلمتين.

⁵⁸ من هنا نستطيع القول، إن الاختلافات البنيوية غير الشاسعة بين اللغتين لا تحتاج إلى جهود كبيرة لمن يريد اكتساب اللغة الأخرى، لأنها ترسخ في ذهن المتعلم بشكل أسرع (مقارنة مع اللغة الإنجليزية أو الفرنسية).

⁵⁹ يستثنى من ذلك أعضاء جسم الإنسان، حيث اكتسبت صيغة المثنى الفونيم العبري (-ים) ولكن بإضافة كلمة (שתיים) له للدلالة على اثنين (زوج)، مثل الكلمات: שתי ידיים، שתי רגליים، שתי אזניים.

⁶⁰ تنتهي الألفاظ بالعربية بالحركات لتدل على حالة الإعراب. أما في اللغة العبرية، فالألفاظ تنتهي بالسكون، أي بالصوامت. أما في النحو، فإن هنالك تشابهاً في النحو العربي والعبري، مثل: الفعل، الفاعل، المفعول به، المبتدأ، الخبر، النعت، الحال والظرف. وتجدر الإشارة إلى أن الحركات الرئيسة في العربية والعبرية ثلاث، وهي: i- a- u.

المفردات: يكتب، كتابة، مكتوب، مكتب، كاتب وغيرها⁶¹. وكذلك الأمر بالنسبة للغة العبرية لنفس الجذر (כ-ת-ב): כתיבה, מכתב, הכתבה, כתובת, נכתב⁶².

4- الأصوات اللغوية: اللغات السامية عامة، والعربية والعبرية خاصة، تضم مجموعة أصوات لا توجد في اللغات الأوروبية. وهذه المجموعة تضم:

أ. مجموعة أصوات الحلق: في العربية- الغين والحاء والعين والحاء والهاء والهمزة. وفي العبرية تدعى (אותיות גרוניות)، وهي الأحرف - الحاء (ח) والعين (ע) والهاء (ה) والهمزة (א).

ب. مجموعة أصوات الإطباق (Emphasis): في العربية- القاف والصاد والطاء والظاء والظاء. وفي العبرية تدعى (נחלייות)، وهي الأحرف الثلاثة - القاف والصاد والطاء⁶³.

5- حساب الجُمْل: أُعطيت للأحرف في اللغتين العربية والعبرية قيمًا عددية، بحيث مُنح كل حرف رقمًا معينًا ليدل عليه. وقد استخدمت هذه الحروف لتسجيل الأرقام والتواريخ، فكانوا يتوصلون من تشكيلة هذه الحروف ومجموعها، إلى ما تعنيه من تاريخ مقصود، وبالعكس، فقد كانوا يستخدمون الأرقام للوصول إلى النصوص.

⁶¹ مثال آخر، من الجذر (ز-و-ج) نحصل على الكلمات الآتية: مزاج، تزويج، زواج، مزدوج، ازدواج، زوجان وإلخ. أو (ع-ل-م) ومنها: معلم، متعلم، عالم، علامة، معلومة، علامات، معلمة، مستعلم، متعلم، وإلخ.

⁶² مثال آخر من الجذر (ש-מ-ר) نشق الكلمات الآتية: שומר, שמירה, נשמר, שומרות, תישמר, משמר.

⁶³ لقد اختلف حرفا الضاد والظاء من العبرية واستبدلا بحرف الصاد، كما أشرنا إلى ذلك أعلاه.

استخدم حساب الجُمَّل في اللغات السامية، وهو معروف عند العرب واليهود منذ العصر الجاهلي. ووظفه المسلمون في تثبيت التاريخ. وهناك من يعتمد على بعض الآيات القرآنية ليتوصل إلى تواريخ هامة في الدعوة الإسلامية⁶⁴.

بالنسبة للعبرية المعاصرة، فحساب الجمل شائع الاستعمال فيها أكثر من العربية، ويستخدم لتدوين التاريخ العبري المعمول به، وفق حساب الجمل إلى جانب التاريخ الميلادي، ويلتزم به بالأخص المتدينون المتزمتون، ويدون أيضًا في المكاتبات الرسمية للدوائر الحكومية⁶⁵. كما تستند الكابالاه (علم الصوفية) اليهودية إلى ترميز الجمل.

يسري حساب الجمل وفق الأحرف الأبجدية، بحيث تتطابق الأبجدية العبرية مع الأبجدية العربية حتى حرف التاء، ويضاف إليها الأحرف: "تخذ"، "ضظغ"⁶⁶.

⁶⁴ للاطلاع على الأمثلة وطريقة الحساب حسب طريقة الجمل، انظر في الموقع الإلكتروني الآتي:

<http://www.alargam.com/prove/94.htm>

⁶⁵ على سبيل المثال، سنة 2009 حسب التاريخ العبري هي תשס"ט، وترميز هذه الأحرف: ת=400، ו=300، ו=60، ו=9. وإن مجموع هذه الأرقام هو 769. يضاف لهذا الترميز الرقم 1240 فنحصل على 2009.

⁶⁶ فيما يلي ترميز الأحرف الأبجدية بالعبرية والعربية حسب حساب الجمل:

أ	1	ح	8	س	60	ت	400
ب	2	ط	9	ع	70	ث	500
ج	3	ي	10	ف	80	خ	600
د	4	ق	20	ص	90	ذ	700
هـ	5	ل	30	ق	100	ض	800
و	6	م	40	ر	200	ظ	900
ز	7	ن	50	ش	300	غ	1000

جدول رقم 2: جدول حساب الجمل في الأبجدية العربية والعبرية.

6- الاختصار والنحت والتركيب اللغوي، فكما ذكرنا، اللغات إما اشتقاقية أو إصاقية، والعربية تجمع بين الخاصيتين، مما يهيء لها قدرة عظيمة على استيعاب المعاني، وحسن التعبير عن المضامين العلمية واللغوية معاً (الجيلاني، 1997: 263).

تمتاز اللغتان العربية والعبرية بقدرتهما على اختصار المفردات، بدلاً من كتابتها كاملة. وهذه الاختصارات⁶⁷ ما هي إلا ترميز لمفردات شائعة الاستعمال يعرف استخدامها من يتقن اللغة فقط.

يعتمد تكوين الاختصار في أساسه، عادة، على الأحرف الأولى لعدة كلمات. ففي العربية، تظهر الاختصارات على شاكلتين: حروف منفصلة تلفظ على انفراد مثل: م = التاريخ الميلادي، هـ = التاريخ الهجري، ق.م = قبل الميلاد، م.ض = محدودة الضمان، ص.ب = صندوق بريد، م.ت.ف = منظمة التحرير الفلسطينية⁶⁸، بي.بي.سي = هيئة الإذاعة البريطانية؛ وحروف متصلة تلفظ كمورفيم واحد، مثل: كم = كيلومتر، كغم = كيلوغرام، سم = سنتيمتر، ناتو = حلف شمال الأطلسي، حماس (حركة المقاومة الإسلامية).

⁶⁷ الاختصار في القديم هو التخلص من فضول القول وحشو الكلام، تجنباً لخرج المتكلم من ذكر ما يراد الاستدلال عليه بالقرينة دون التفوه بألفاظ مملّة، ويطلق عليه أسماء أخرى كثيرة كـ "الاستغناء" و "الحذف" و "الإيجاز". أما الاختصار بمفهومه الحالي (الجيلاني، 1997: 277) فهو "الاقتصار على حروف دون أخرى، أخذت من كلمات منفردة كبيرة وعبارات مجمعة طويلة. فالكلمة الكبيرة تحذف أواخرها ويبقى في الغالب مقطعها الأول كي يدل عليها، أو العبارة المطولة فيؤخذ أوائل أحرف كلماتها لتحل محلها وتقوم مقامها مجمعة إذا كانت كثيرة التداول ودعت الحاجة إلى تسهيل نطقها الصعب وتيسير استعمالها المتكرر، نحو: UNESCO".

⁶⁸ بالنسبة لمنظمة التحرير الفلسطينية، عندما أُنشئت أُطلق عليها حركة التحرير الفلسطينية، وإذا ما حولنا الاسم إلى الترميز المختصر نحصل على (ح-ت-ف) ويعني الموت. ولهذا تم قلب الأحرف، فسميت "فتح". ومن ثم تم تغيير حركة إلى منظمة، وبقي الترميز الحرفي للاسم م-ت-ف.

وفي العبرية تسمى ראשי-תיבות ويمكن تمييزها من خلال علامة التنصيص التي توضع قبل الحرف الأخير المختصر، وتأتي في ثلاث حالات (شليزenger، 1994: 32):

أ. أحرف تكون كلمة جديدة، مثال: סכו"ם = סכין، כף ומזלג "سكوم" (سكين، ملعقة وشوكة)، שב"כ = שירות ביטחון כללי وتقال بالعربية أيضًا "شباك" (مصلحة الأمن العام)، אש"ף = ארגון שחרור פלסטיני "أشاف" (منظمة التحرير الفلسطينية).

ب. اختصار كلمتين بحرفين مع النطق بالحرفين منفصلين، مثال: מ"צ "م. تسادي" (الشرطة العسكرية). מ"פ "م. بيه" (قائد كتيبة).

ت. اختصار تعابير لغوية مع لفظها كاملة مثال: אחה"צ = אחרי הצהרים "أحري هتسهورايم" (بعد الظهر).

إن ظاهرة الاختصار شائعة جدًا بالعبرية مقارنة مع العربية، ونجد أن الكثير من شرائح المجتمع الإسرائيلي تحاول إيجاد مفردات مختصرة في مجال عملها، ما يسمى "معجم صغير تخصصي"، مثل المصارف، جهاز التعليم، المجالات الصحية، وسائل الاتصالات، وعادة ما يقتصر فهم الكثير من هذه الاختصارات على المشتغلين في ذلك المجال.

أما المنحوت، فهو كلمة مدمجة عن جملة، أو عن كلمة متعددة المقاطع، سهّل النحت تداولها ونُطقها⁶⁹. وهو قليل جدًا بالنسبة للغة العربية المتميزة بألفاظها الغزيرة⁷⁰، ونجده على

⁶⁹ يذكر حماد (1983: 34) أن النحت بالعربية مكون من أربعة أقسام: نحت فعلي - أن تنحت من الجملة فعلاً يدل على النطق بها أو على حدوث مضمونها، مثل بأبأ أي بأبي أنت، جعفل، أي جعلت فذاك؛ وينتشر هذا النوع في مفردات تخص الأمور الدينية وغيرها، مثل: حوقل = لا حول ولا قوة إلا بالله، بسمل = بسم الله الرحمن الرحيم، عذبل = أعوذ بالله من الشيطان الرجيم وهلم جرّا؛ نحت وصفي - أن تنحت من كلمتين كلمة واحدة تدل على صفة بمعناها، مثل، الصلدم وهي منحوتة من الصلد والصدم؛ نحت اسمي - أن تنحت من كلمتين اسمًا، مثل، جلمود من جلد وجمد؛ ونحت نسبي - أن تنسب شيئاً أو

حالة دمج عدة كلمات في كلمة واحدة: سامراء = سر من رأى؛ هلال = وحد الله أو شهد بأن لا إله إلا الله؛ حنّفي = أي يذهب مذهب أبي حنيفة والمعتزلة. وفي حالة كلمتين مركبتين من مقطع قصير، مثل: بر مائي = برمائي، رأس مال = رأسمال، بعل بك = بعلبك، ثلاث مائة = ثلاثمائة⁷¹.

أما المركب فهو لفظ مكون من مقطعين متلازمين جعل الاستعمال منهما كلمة واحدة. بعبارة أخرى، هو عبارة عن كلمتين تنتهي الأولى بمقطع تبتدىء به الكلمة الثانية، مثال على ذلك: الفوق قطعية = الفوقطعية، تحت تربة = تحتربة، حيز زمن = حيزمن.

أما النحت في العبرية فيأتي على صيغ شتى:

- مزيج بين كلمتين على أساس حرف مشترك بينهما (نهاية الكلمة الأولى وبداية الكلمة الثانية): ددور + رگل = ددورگل (كدوريغل)، أي كرة قدم؛ מחזה + זמר = מחזמר (مخزيمر)، أي مسرحية غنائية؛ אומן + נול = אומנול (أوفنوع)، أي دراجة هوائية.
- حذف الحرف ألف من الكلمة الثانية: רמז + אור = רמזור (رمزور)، أي إشارة ضوئية؛ מגדל + אור = מגדלור (مغدالور)، أي منارة.
- مزيج بين كلمتين مكونتين من مقاطع صغيرة: קול נול = קולנול (قولنوع)، أي السنيما.

شخصاً إلى بلد في طبرستان وخوارزم مثلاً، فننحت من اسميهما اسماً واحداً على صيغة اسم المنسوب، فتقول طبرخزي، أي منسوب إلى المدينتين كليهما.

⁷⁰ إن ظاهرة النحت قليلة بالعربية إذا ما قارناها مع اللغات الأوروبية وكذلك العبرية. وفي ذلك يقول حماد (1983: 35): "الكلمات المنحوتة أي المركبة من كلمتين أو أكثر، تعد بالآلاف في الفارسية والأرمنية، وفي عدة لغات أوروبية كالإنجليزية والألمانية. أما في لغتنا فإنها تحصى بالعشرات، مما يصعب صوغ كلمات جديدة، ولا سيما المختصة بالعلوم والفنون".

⁷¹ تجدر الإشارة، إلى أن العرب في إسرائيل يستخدمون نحتاً لغوياً لبعض الألفاظ غير الدارجة في العالم العربي، مثل: حتى الآن = حتلنة (المقابلة للفظة العبرية מעלודכן)، حتان؛ جعل الظاهرة تابعة لعلم الاجتماع = جتمعها وغيرها.

- مزيج من كلمتين عن طريق حذف الأحرف: ركدوت+ دكدل= ركدل (ركيفل)، أي القطار الهوائي؛ مدرכה+ رחוב= مدرחוב (مدراخوف)، أي الرصيف⁷².

حاولنا في هذه المقدمة تبيان العلاقات التي تربط بين اللغة والموضوعات الأخرى كالقومية والثقافة وغيرها، فاللغات في العالم في صراع مستمر، فهي كالإنسان تعيش وتموت، وأحياناً تستبدلها لغات أخرى. وهناك من اللغات ما ينبعث من جديد، إذا أتيحت لها الظروف القومية والسياسية والاجتماعية.

اللغة لا تعيش في فراغ، إذ وُجدت لكي تخدم الإنسان، ومع الوقت، أصبحت تؤثر على سلوكيات الإنسان وتفكيره، وتبلور أنماط معيشتة. لكل لغة ميزات تختص بها، ولكن في الوقت ذاته، ثمة أساسيات مشتركة بين اللغات، خاصة تلك التي انبثقت من نفس العائلة اللغوية، كاللغات السامية، العربية والعبرية على سبيل المثال، إذ تمتاز كلاهما بعوامل مورفولوجية وبنوية ونحوية مشتركة.

تتناول الفصول القادمة، المقاربة بين اللغتين من حيث المراحل التاريخية السنكرونية والديكرونية، والتشابه في الظروف التي مرت فيها كل منهما، والتصادم بينهما.

⁷² وهناك تكوين نحت من كلمتين مختلفتين، فكلمة פלמוני (بلموني) التي ظهرت في التوراة (دانييل، 8:

13) هي مزيج من اللفظتين פלוגי + פלמוני (بلوني + ألموني). وهي شبيهة للتعبير في الإنجليزية motel

المكون من الكلمتين motor+ hotel (شليزنغر، 1994: 31).

الفصل الثاني

اللغتان على مرّ العصور

الفرش التاريخي

يتمثل القاسم المشترك بين العرب واليهود على مرّ الأجيال بالانتماء إلى العائلة السامية، التي انعكست في مجالي قرابة الدم، والأصل السامي للغتين العربية والعبرية. يعاين هذا الفصل بإيجاز مسرد تتبع المراحل التاريخية التي مرت بها اللغتان، العربية والعبرية، على مرّ العصور.

إن الظروف التاريخية التي عصفت باللغتين جعلتهما في صراع دائم مع الزمن، فالعربية خاضت، وما زالت، تخوض صراعاً بين الفصحى والعامية (ازدواجية اللغة)⁷³. وأما العبرية، فقد وقعت تحت محك صراع البقاء، حيث كانت في عداد الموتى على مدى قرون طويلة، وانبعثت من جديد قبيل ولادة الدولة العبرية.

اللغة العربية في الجاهلية والاسلام

إن موطن العربية هو شبه الجزيرة العربية، حيث كانت القبائل تتكلم بلهجات⁷⁴ مختلفة، بينما كانت لغة أدبية مشتركة موحدة ومفهومة لدى الجميع، تُستخدم على المستوى الجمعي

⁷³ يطلق الازدواج اللغوي Diglossia على وجود مستويين لغويين في بيئة لغوية واحدة. أما الثنائية اللغوية عند الفرد تسمى Bilingualism.

⁷⁴ أطلق القدماء على لهجات القبائل "لغات" وعلى ما نسميه اليوم "اللغة العربية" "اللسان العربي". يعرف حسام الدين (2002: 104) اللهجة بأنها "مجموعة من الصفات الصوتية التي تنتمي إلى بيئة خاصة ويشترك في هذه الصفات جميع أفراد البيئة". ويضيف بأن هذه الصفات، التي تميز اللهجة عن الأخرى، تكاد تنحصر في الاختلاف الصوتي في المقام الأول إلى جانب الصفات الصرفية التي تتعلق ببنية الكلمات،

الأدبي⁷⁵، وذلك للتواصل بين القبائل المختلفة (يعقوب، 1982: 146؛ أنيس، 1992أ: 40-42)، وهذه كانت بمثابة لغة نموذجية Standard Language أو لغة موحدة مشتركة Common Language مفهومة عند الجميع، يخطب بها الخطباء وينظم بها الشعراء شعرهم الذي ازدهر في القرن السادس الميلادي في وسط الجزيرة العربية وشمالها وجنوبها (نولكده، 1963: 74). يصف المستشرق بروكلمان (1961: 107) هذه اللغة قائلاً:

تمتاز لغة الشعر العربي بثروة لغوية وتعد أرقى اللغات السامية تطوراً من ناحية تركيبات الجمل ودقة التعبير. أما المفردات، فهي غنية غنى يسترعي الانتباه؛ ولا بدع، فهي نهر تصب فيه الجداول من شتى القبائل.

انتشرت العربية، لغة وثقافة، من الجزيرة العربية إلى العالم الخارجي بفضل الإسلام ونشر دعوته. فقد جاء الإسلام وعزز من مكانة لغة قريش لأنها أضحت لغة القرآن، كما اعتمد الشعراء والكتاب في إثرائهم للعربية على القرآن الكريم والشعر الجاهلي. فقد استطاع القرآن الكريم أن يجمع القلوب على عقيدة واحدة، وأن يجمع السنة القبائل على لسان عربي داخل الجزيرة. ومن ثم جاءت الفتوحات الإسلامية التي صهرت أفراد القبائل القريبة

والصفات الدلالية التي تتعلق بمعاني الكلمات. وكلما كثرت هذه الصفات بعدت اللهجة عن لغة الأم أو الأصل، الذي عنه تشعبت، وتصبح لغة مستقلة بحد ذاتها.

⁷⁵ مرت اللغة الأدبية بمراحل عدة قبل أن وصلت إلى الصورة التي نعرفها، وقد تشكلت نتيجة اختلاط القبائل وتمازجها طوال قرون. وفي الوقت ذاته، احتفظت هذه القبائل بلهجاتها الخاصة لشؤون حياتها اليومية. وكانت العصبية القبلية والعزلة عاملين رئيسيين في استمرار هذه اللهجات في الحياة (الفصيل، 1992: 14).

والبعيدة في الجيوش الإسلامية وجعلتهم إخوانًا متعاونين⁷⁶، كما صهرت لهجاتهم في لسان عربي موحد (حسام الدين، 2002: 133).

اندفع المسلمون إلى البلدان التي فتحوها واستقروا في مدنها، يخالطون سكانها الأصليين، ويتعاملون بينهم في البيع والشراء، ويخالطونهم في حياتهم اليومية⁷⁷. وكما يقول المستشرق يوهان فك (1951: 9): "فالتقى هؤلاء وأولئك، وتحقق الاختلاط بينهم، والذي استتبع تلاقي العربية ولغات ولهجات سكان هذه المدن". وبهذا انتشرت العربية في الأقطار والأمصار المفتوحة شرقًا حتى سور الصين وغربًا حتى الأندلس وجنوب أوروبا، وتغلبت على اللغات السائدة في هذه البلدان⁷⁸.

في الواقع، لم يكن انتشار العربية في البداية مفروشا بالورود، إذ لقيت لغة القرآن مقاومة في الإمبراطورية الساسانية، التي كانت فيها الفارسية لغة الحكام ولغة الشعب. وفي أماكن أخرى، كانت المهمة أسهل في تغلغل العربية بسبب قرابة المكان واللغة والبيئة والمجتمع (الفیصل، 1992: 17). ويؤكد شكري فیصل (1966) أن الفتوحات ولدت لغة تفاهم

⁷⁶ كما ورد في القرآن الكريم: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ (آل عمران، 3: 103).

⁷⁷ إن اللغات التي تحدثت بها الشعوب التي تواصلت مع العرب قبل الفتوحات الإسلامية هي كالأتي (الفیصل، 1992: 17؛ أنيس، 1992: 16): الفارسية والآرامية في العراق، القبطية واليونانية في مصر، البربرية في المغرب، الآرامية واليونانية في منطقة الشام.

⁷⁸ في الواقع، قضت العربية بعد الإسلام على اللغات التي كانت منتشرة في البلاد المفتوحة وحلت محلها، فقد تغلبت على الآرامية في العراق والشام، وعلى القبطية في مصر، والبربرية في بلاد المغرب (عبد العزيز، 1996: 249).

جديدة نتيجة التفاعل اللغوي بين العربية ولغات الشعوب التي دخلت الإسلام، وهذا التفاعل كان كثير التباين بين منطقة وأخرى⁷⁹.

وأضحت العربية لغة العلم والأدب الوحيدة على امتداد العالم الإسلامي، وترسخ اللسان العربي في جميع المناطق، كما أكد على ذلك ابن خلدون⁸⁰. وقد أصبحت اللغة العربية ابتداءً من العصر الأموي، ذات مكانة مرموقة وطيدة في الدولة الإسلامية⁸¹. وبلغت العربية

⁷⁹ وعن لغة التفاهم الجديدة يقول فيصل (1966: 264): "تكون أقرب إلى العربية في البيئات التي تتصل بالعربية بنسب.. فحيث كانت تسود أخوات العربية كان يكون أمر لغة التفاهم أيسر في النشأة وأسرع في النمو. ذلك لأن الانتساب إلى أصل لغوي واحد يسهل الانتقال بين فروع هذا الأصل ويمكن من ملء الهوة بينها. فانتشار لغة التفاهم هذه في المناطق اللغوية الآرامية في الشام والعراق لم يلقَ من الصعوبة والكيد مثل الذي لقي في إيران نفسها، حيث كانت تعيش على ألسنة الناس لغة من أسرة أخرى هي الأسرة الآرية، أو مثل الذي لقي فيما وراء النهر، حيث كانت تعيش التركية من فصيلة طورانية أخرى بعيدة عن العربية.. والأمر في البربرية قريب من ذلك. فقد كانت هذه اللغة حافلة بما خلف الفنيقيون من طوابعهم، فكان الفنيقية السامية قد مهدت لها الطريق ومكنت لها من النفاذ وأعانتها عليه".

⁸⁰ يقول ابن خلدون (د.ت: 379): "لما كان لسان القائمين بالدول الإسلامية عربيًا، هُجرت اللغات الأعجمية في جميع ممالكها لأن الناس تبعوا للسلطان وعلى دينه، فصار استعمال اللسان العربي من شعائر الإسلام وطاعة العرب، وهجر الأمم لغاتهم وألسنتهم في جميع الأمصار والممالك، وصار اللسان العربي لسانهم، حتى رسخ ذلك لغة في جميع أمصارهم ومدنهم وصارت الألسنة العجمية دخيلة فيها وغريبة".
⁸¹ ويذكر فهمي (1992: 243-244) أن هذه المكانة تعود لعدة أسباب وأهمها:

أ- العربية أصبحت اللغة الرسمية للدولة الإسلامية، فقد عربت الدواوين سنة 705 ميلادي.
ب- العربية كانت لغة الطبقات الحاكمة في المجتمع، واستخدام الفصحى دليل على الرقي وعلى المكانة الاجتماعية.

ت- العربية المولدة، أي التي تحوي أخطاء كانت لغة الطبقات الدنيا في المجتمع.

ث- العربية الفصحى ظلت لغة الشعر الذي تعز به الطبقات العليا من المجتمع.

ج- العربية هي لغة الدين ولغة القرآن الكريم ولغة العبادات.

أوج رفعتها في عصر ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، وذلك بفضل التراكمات المعرفية والحضارية التي عرفتها الحياة الفكرية في القرن الثاني الهجري بتأثير من المنصور وهارون الرشيد، ثم بما هياها لها المأمون بعد ذلك (الشابي، 1990: 58).

ساهم خروج العرب من الجزيرة العربية، أيضًا، في تطوير العربية في المفردات والقواعد. ويقول الباحث فيرستاي في كتابه "العناصر الإغريقية في التفكير اللغوي" (Versteegh, 1977) إن اللغويين العرب اطلعوا على النظريات الإغريقية وغيرها وأفادوا منها، ثم كونوا النظرية اللغوية الخاصة بهم. كما وأكد أن بنية العربية وأنماطها الواضحة سهلت من مهام النحويين العرب في إرساء نظام من القواعد يتيح تفسير التعبيرات الصوتية.

وفي الوقت ذاته، اتسعت العربية للمعرفة اتساعاً لم تعرف مثيله لغة أخرى، وكانت وعاءاً للفكر في كل مجالاته وأداة للعلم في متباين صوره (خشيم، 2001: 17). وقد بذل الدارسون اللغويون جهداً كبيراً ليظهروا العدد الوفير من الكلمات المأخوذة عن العربية في اللغات الأوروبية⁸².

كما أدى الاطلاع على ثقافة الغير، واختلاط العرب بالشعوب التي اندمجت في الحياة الإسلامية؛ إلى اقتراس العربية الفصحى كلمات لم يستخدمها أو يعرفها العرب من قبل. فاللغات تقترض بعضها من بعض، ويقتصر الاقتراض عادة على الألفاظ والكلمات، ولا تكاد تتعداها إلى العناصر اللغوية الأخرى، كالتصريف والاشتقاق وتركيب الجمل (حماد، 1983؛ خشيم، 2001).

كما اقترض العرب من الفرس واليونان ألفاظاً للتعبير عن أشياء ليست مألوفة في بلاد العرب. واستخدموا المفردات المقترضة وجعلوا بنيتها على نسج الكلمات العربية (حماد،

⁸² أمثلة على ذلك: كتاب بيري جيرو عن الكلمات الأجنبية في الفرنسية، فقد قدم قائمة من مائتين وثمانين كلمة عربية في تلك اللغة؛ وفي معجم دوزي أسماء عربية للثياب دخلت الفرنسية، ومعجم للألفاظ العربية الأصل في الإسبانية والبرتغالية طبع سنة 1882 (خشيم، 2001: 17).

1983: 119). على سبيل المثال، اقترضت العربية من الفارسية كلمات: الديوان، المسك، الدهقان، المجوس، البستان وإلخ⁸³. واقترضت من الحبشية: المحراب، حوارى، منافق، وإلخ. ومن اللاتينية دينار، سراط؛ ومن التركية قنبلة، بوغاز، دوشك؛ ومن الآرامية: رمان، زيت، خمر، كبريت، ترعة، بترول، وإلخ (برجستراسر، 1929: 143-149)⁸⁴. وفي المقابل، ثمة لغات أخرى اقترضت ألفاظًا، لا تعد ولا تحصى، من العربية⁸⁵.

الجدير ذكره، أن الاقتراض لا يقف فقط على الألفاظ المعجمية، وإنما يتعداها ليشمل عناصر صرفية في السوابق واللواحق. فاللغة الفارسية اقترضت من العربية الألف والتاء التي تُستخدم لجمع المؤنث، وجمعت بها كلمات عربية الأصل أو فارسية نحو: امتيازات، وإطلاعات، وباقات ودهات وبنديات (محفوظ، د.ت: 327).

استوحت العربية مفرداتها من منابع شتى، أهمها: القرآن الكريم، الشعر الجاهلي، الأدب العربي، شعرًا ونثرًا في العصر الإسلامي والأموي والعباسي؛ الترجمة إلى العربية من اللغات السريانية والهندية والفارسية، التي ساهمت في استحداث كلمات لم تعرفها العربية من قبل⁸⁶.

⁸³ ومن الكلمات الفارسية التي تتصل بالأطعمة والملبوسات والآنية: السميز والفالودج والقرفة والخز والديباج والسندس والطست والخوان وإلخ (الثعالبي، 1972: 394).

⁸⁴ كما وأخذ العرب عن اليونان أسماء بعض الآلات ومصطلحات الطب والفلسفة والعلوم الطبيعية، مثل: الاصطربالاب والقرسطون والنقرس والقولنج وإلخ (الثعالبي، 1972: 307).

⁸⁵ وعن ذلك انظر فيما يلي، في هذا الفصل.

⁸⁶ مع ازدهار الدولة الإسلامية وتوسعها في جميع قارات العالم القديم، واختلاط العرب بالشعوب الأخرى، استدعت الحاجة إلى حركة ترجمة للكتب، فبدأ العرب والمسلمون بنقل المعرفة من اللغات الأجنبية إلى العربية.

ويلخص زكي حسام الدين تطور اللغة العربية في عصورها الزاهية قائلاً (حسام الدين، 2002: المقدمة، ح):

لقد احتكت العربية في انتشارها بلغات متعددة أثرت فيها وتأثرت بها، ودخلت مع غيرها من اللغات في صراع فتغلبت عليها، كما أنها انتقلت من طور إلى أطوار أخرى. فبعد أن كانت لغة شفاهية مرتبطة بفني القول: الشعر والخطابة، أصبحت لغة مدونة مرتبطة بالدين الإسلامي الذي انتقلت به إلى طور ثانٍ. ومن هذا الطور انتقلت إلى طور ثالث لتقوم بدورها لتلبية احتياجات الحضارة الإسلامية. فاستطاعت أن تستوعب انجازات العلوم والفنون المختلفة التي أبدعتها هذه الحضارة، مما هيأ العربية لتكون لغة عالمية في العصور الوسطى تدرّس بها العلوم في الجامعات الأوروبية. ويمكن أن تعود لتمارس دورها السابق إذا استرجع أهلها حضارتهم المفقودة.

تراجع العربية ونشوء الازدواجية اللغوية

قبيل تضعضع الحكم الإسلامي في الدولة العباسية، تجزأت الدولة الإسلامية إلى عشر ولايات مستقلة، وبدأت تتكون فيها مجموعة من اللهجات، مثل اللهجة العراقية والسورية والمصرية وشمال أفريقيا وغيرها (فك، 1951: 167). وبعد أفول الإمبراطورية الإسلامية، وقعت غالبية المنطقة العربية تحت سيطرة الدولة العثمانية، على مدى أربعة قرون ونصف، وكانت التركية اللغة الرسمية للدولة العثمانية⁸⁷، ويقول ممدوح خسارة (1994: 72):

وحتى الأتراك الذين كان من المفترض أن يشجعوا، أو أن يتساهلوا في تدريس العربية، لم يوفرُوا جهداً في محاربة العربية، إذ تُرك التعليم الرسمي والإدارة.

⁸⁷ كانت لغة الإدارة المركزية في الدولة العثمانية هي اللغة التركية، وكان أصحاب المراكز العليا يستخدمون اللغة التركية في الإدارة أيضاً، أما العربية فاقترنت على الإدارة المحلية (فهيم، 1992: 269).

وكانت المدارس الحكومية تدرس كل موادها باللغة التركية، وحتى اللغة العربية والنحو العربي فكانا يدرسان وفق برامج الدراسة المتبعة في تركيا نفسها. معظم المعلمين كانوا أترًاكًا، بينما المعلمون العرب كانوا قلة، وفُرض عليهم أن يعلموا موادهم باللغة التركية. وقد وشاعت مسألة الازدواج بين التركية والعربية، التي ظهرت جليًا في الصحف المحلية في نهاية القرن الثامن عشر.

وعندما أصاب الضعف الإمبراطورية العثمانية في القرن التاسع عشر، بدأت الدول الأوروبية تغلغل في المنطقة لاستعمارها. عمل المستعمرون الأوروبيون على نشر عقيدتهم الدينية ومبادئهم الأيديولوجية من خلال مدارسهم التي أنشأوها على نفقتهم الخاصة، والتي كانت تدرس كل المواد باللغة الأجنبية. وكانت اللغة العربية لا تدرس على الإطلاق، وإذا ما دُرست فكانت تدرّس كمادة دراسية، وليست كلغة أم⁸⁸.

يؤكد هتزون أن الازدواجية اللغوية أصبحت في العصر الحديث حقيقة اجتماعية لغوية (Social Linguistics) في جميع أنحاء العالم العربي (Hetzorn, 1997: 277). ويصنف الباحثون اللهجات العربية الحديثة وفق مقياسين: الاجتماعي والجغرافي. فحسب المقياس الاجتماعي، تنقسم اللهجات إلى مجموعتين أساسيتين: لهجات السكان الرحل ولهجات السكان الثابتين. وهؤلاء الثابتون، تتكون لهجاتهم من مجموعتين ثانويتين: لهجة مدنية ولهجة قروية (Lipinski, 1997: 77 ؛ ليفين، 1995: 250؛ فيشر ويسترو، 2001: 17).

⁸⁸ لقد اتبع المستعمرون، وخاصة الإنجليز في مصر، السياسة اللغوية الداعية إلى هجر الكتابة بالفصحى، والدعوة إلى الكتابة بالعامية. وتهدف هذه السياسة إلى التجزئية، وذلك من أجل ضرب المؤسسات الدينية الملتزمة باللغة الفصحى، هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى، التمهيد لفرض اللغة الإنجليزية في مجالات التعليم.

وحسب المقياس الجغرافي، تُقسم اللهجات إلى مجموعتين: المجموعة الشرقية والمجموعة الغربية (ليفين، 1995: 249) ⁸⁹.

وبدأ النضال من أجل استرداد مكانة اللغة العربية الفصحى في البلاد العربية منذ سيطرة الإنجليز على مصر عام 1881، وتمثل الصراع في صورتين أساسيتين (حجازي، 1998: 20-21):

الصراع من أجل اللغة العربية في المناطق الخاضعة للحكم العثماني المباشر من جانب واحد، والصراع من أجل العربية الفصحى في البلاد الخاضعة للنفوذ الاستعماري الأوروبي في مواجهة دعوات العامية والتجزئية من جانب آخر.

العربية القديمة واللغات اليهودية

يرى اللغويون العبريون (بن حاييم، 1985؛ بيرمان، 1989؛ غالنط، 1989) أن تطور اللغة العبرية مر بعدة أطوار، وهو بمثابة سلسلة مكونة من عدة حلقات، وهي على التوالي: لغة التوراة (العبرية القديمة أو العبرية الكلاسيكية)، ولغة المشناة، وكتابات الحكماء، ولغة العصور الوسطى، والعبرية الحديثة.

ويعود تاريخ اللغة العبرية ⁹⁰ إلى منتصف القرن الثالث عشر قبل الميلاد، والتي انبثقت عن إحدى اللهجات الكنعانية ⁹¹، عندما دخل اليهود أرض فلسطين بقيادة يهوشوع بن نون.

⁸⁹ تضم المجموعة الشرقية الدول الآتية: السعودية واليمن ودول الخليج والكويت والبحرين وعمان والإمارات المتحدة والعراق وسوريا ولبنان والأردن وفلسطين ونصف شبه جزيرة سيناء في مصر وأفغانستان وأكزبستان وقبرص وأنطاليا. أما مجموعة اللهجات الغربية فتشمل الأماكن الآتية: من حدود مصر في الشرق وحتى المحيط الأطلسي في الغرب، ومن جنوب غرب السنغال ونيجيريا وحتى تشاد، وليبيا وتونس والجزائر والمغرب وموريتانيا والأندلس (فيشر ويسترو، 2001: 24-25).

⁹⁰ وللمزيد حول أصول مسميات اللغة العبرية واليهودية، انظر في كتابي "الأدب العبري في الأندلس بين التقليد والتجديد" (مرعي، 2008: 41-47).

لقد سبقت مرحلة العبرية الكلاسيكية مرحلة متوسطة تسمى קדם לברית أي "ما قبل العبرية" Proto- Hebrew، وهي مزيج من العبرية النامية والكنعانية (قداري، 2004: 21). ظهرت العبرية المبلورة كلغة مستقلة في النصوص الأدبية المركزة في التوراة، لذا أُطلق عليها لغة التوراة، وهي الحلقة الأولى من سلسلة أطوار اللغة العبرية.

فاللغة العبرية هي لغة العهد القديم، وهو الكتاب المقدس عند اليهود⁹²، ويسمى "كتاب التوراة" أو "التناخ" (اختصاراً للكلمات: תורה - توراة، נביאים - الأنبياء، כתובים - المكتوبات). و"كتاب التوراة" مدون باللغة العبرية، ما عدا بعض الصفحات كُتبت باللغة الآرامية⁹³.

تحدث اليهود باللغة التوراتية حتى خراب الهيكل الأول عام 587 ق.م. وبعدها سبى نبوخذ نصر اليهود إلى بابل كما ذكر في التوراة: "وسبى سُكَّانُ أُورُشَلِيمَ وَجَمِيعَ الْأُمَرَاءِ وَالْقَادَةِ وَهُمْ عَشْرَةُ آلَافٍ، وَجَمِيعَ الْمَهَرَّةِ مِنَ الْعَمَالِ، مِنْهُمْ الْحَدَادُونَ، وَلَمْ يَتْرُكْ فِي يَهُوذَا إِلَّا مَسَاكِينَ الشَّعْبِ" (الملوك الثاني، 24: 14). هؤلاء الباقون لم يكونوا متمكنين من العبرية التوراتية الكلاسيكية، بل تحدثوا باللهجات المحلية. وكانت النتيجة أن تقلص استخدام اللغة العبرية الكلاسيكية كلغة ثقافة (قيرون، 2004: 13)، ومن ثم توقفت العبرية كلغة محكية أيضاً (بادربوش، 1967؛ راين، 1976؛ مغيد، 1984).

⁹¹ الكنعانية هي لغة سامية، ومنها انحدرت اللغات الآتية: العمونية والآدومية والفنيقية والموايية والعبرية (قداري، 2004: 16).

⁹² "العهد القديم" اسم أطلقه المسيحيون The Old Testament، وأما الأناجيل فيسمونها "العهد الجديد" The New Testament، ويكوّن الكتابان معاً الكتاب المقدس عند المسيحيين The Bible.

⁹³ هنالك من الباحثين من يعتقد بأن أسفار التوراة المتأخرة من المكتوبات، كسفر الجامعة وأخبار الأيام الأول وأخبار الأيام الثاني، لم تُكتب بالأساس بالعبرية، بل ترجمت عن اللغة الآرامية (قيرون، 2004: 13).

كانت اللغة الأكادية اللغة السائدة في الشرق في الألفية الثانية قبل الميلاد، وتمتعت بمكانة لغة دولية حتى القرن السابع قبل الميلاد. ومنذ القرن السادس (سنة 539 قبل الميلاد فصاعدًا)، أي في فترة حكم الفرس، حلت الآرامية مكان اللغة الأكادية، وأصبحت اللغة الدبلوماسية الرسمية المحكية والمدونة في المكاتب والمعاملات في جميع المجالات الحياتية⁹⁴. فاليهود الذين كانوا في بابل تحدثوا بلغة الدولة آنذاك، وهي اللغة الآرامية. ولدى عودة اليهود ثانية إلى فلسطين، أصبحت الآرامية اللغة الثانية عندهم⁹⁵.

ومنذ ذلك الحين، تحدث اليهود باللغتين، وأصبح تبادل واقتراض لغوي بين الآرامية والعبرية⁹⁶. ومنذ القرن السادس قبل الميلاد أخذت العبرية بالانكماش، حيث بدأ اليهود يتعاملون باللغة الآرامية في حياتهم اليومية، ومن ثم بدأت العبرية بالاختفاء وحلت مكانها اللغة الآرامية في القرن الثاني للميلاد (غالوسكا، 1999: 16-18)⁹⁷.

بالرغم من تغير مكانة العبرية المحكية في التعامل اليومي، إلا أنها ظلت لغة الدين اليهودي، فقد اهتم بها رجال الدين، وكتبت بها بعض المواد الدينية اليهودية، وظل بعض

⁹⁴ تأثرت اللغة الآرامية الرسمية من الأكادية في المفردات وفي القواعد. كما ودخلت إليها مفردات من الفارسية، خاصة في المجال الإداري، وقليل من الكلمات اليونانية (انظر الموسوعة التوراتية، لفظة "آرامية"، الجزء الأول، ص 584-586؛ 592-595).

⁹⁵ يذكر أن اليهود، في فترة حكم الفرس وفي أعقاب تصريح كورش، لم يتمكنوا من قراءة التوراة الكلاسيكية، وكان هنالك حاجة إلى ترجمة التوراة للغة الآرامية.

⁹⁶ من اليهود من كانت العبرية بالنسبة لهم اللغة الأولى والآرامية لغة ثانية. ومنهم من شكلت لهم الآرامية اللغة الأولى والعبرية اللغة الثانية.

⁹⁷ إن اللغة العبرية كانت لغة حية على مدى 1500 سنة (من القرن الثالث عشر قبل الميلاد وحتى نهاية القرن الثاني للميلاد).

اليهود يهتمون بتعلمها، وبقراءة النصوص الدينية المكتوبة بها⁹⁸. وهذا يعني، أن العبرية، على مدى فترة طويلة، اقتصرَت وظيفتها على الأمور الدينية، مثل الصلوات، وقراءة التوراة، وكتب المشناة والتلمود والأساطير⁹⁹.

وقد ألف رجال الدين اليهود كتبًا دينية باللغة العبرية، ومن أهم هذه الكتب المشناة¹⁰⁰، الذي تم تأليفه بين أواخر القرن الأول الميلادي ومنتصف الثالث الميلادي، ويعد هذا الكتاب العبري الثاني بعد التوراة. وفي هذه الفترة لم يعرف عامة اليهود العبرية، لذا كان رجال الدين يقرأون نص المشناة بالعبرية ثم يشرحونه لهم بالآرامية¹⁰¹. ومن ثم ظهر التلمود، وهو نوعان: التلمود البابلي والتلمود الأورشليمي (أو المقدسي)¹⁰².

⁹⁸ مثالاً على ذلك في عصرنا الحالي الديانة المسيحية بالنسبة للغة اللاتينية، فبالرغم من توقف استخدام هذه اللغة كلغة منطوقة إلا أن الكنيسة الرومانية الكاثوليكية تستخدم اللاتينية في الأغراض الدينية، وكذلك تستخدم الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية اللغة اليونانية في الأغراض نفسها. وهذا الشيء حدث أيضاً للغة القبطية التي اختفت تماماً، ومع ذلك ما تزال تستخدم اليوم في بعض الكنائس لأداء الطقوس الدينية.

⁹⁹ تحدث اليهود فيما بينهم بالعبرية أيام السبت، وذلك عندما كانوا يلتقون في الكنس، وكذلك عندما قصدوا عدم إعلام الأغيار بما يتحدثون (قداري، 2004: 42).

¹⁰⁰ أصل الكلمة بالعبرية من الجذر ش-ن-ي/ه، أي شنى الشيء، ويعني الثنية والتكرار.

¹⁰¹ لم تكن الآرامية آنذاك لغة موحدة، بل مكونة من عدة لهجات، وتعددت الشروح الآرامية التي كتبها الأحرار والربانيون على المشناة بتعدد هذه اللهجات. ويسمى هؤلاء "التنائين"، والتناء هو فقيه في الدين اليهودي. وقد وضع هؤلاء التناؤون المشناة والإضافات، وجاء بعدهم الأموريون حيث وضعوا تفسير التنائين.

¹⁰² التلمود هو عبارة عن مجموعة التفسيرات والشروح الشفاهية الدينية المنقولة التي تضم المشناة نفسها والإضافات الفقهية، ويعد من أهم الشرائع والسنن اليهودية بعد الكتاب المقدس نفسه. التلمود البابلي هو مجموعة الأحكام الفقهية اليهودية التي وضعها حاخامات بابل إضافة إلى المشناة، وهو محبوب حسب أبواب المشناة الستة، تم تدوينه في بداية القرن السادس الميلادي. أما التلمود الأورشليمي (ويسمى بالعربية التلمود الفلسطيني أو التلمود الشامي) فهو مجموعة الأحكام الفقهية وتفسيرات المشناة التي

وقع الأدب العبري الذي كُتب منذ القرن الثاني تحت تأثير الآرامية الذي كان واضحًا في جميع المجالات اللغوية: المفردات، والنحو، والأصوات والصرف (قيرون، 2004: 14). ومن الكتب التي دُوّنت، كتاب ابن سيرا، وترجمة التوراة إلى اليونانية (ترجمة السبعين). خلال الفترة، التي توقفت فيها استخدام العبرية كلغة أدب وكلغة منطوقة، أوجد اليهود لغات بديلة في أماكن تجمعاتهم السكنية، وصل عددها إلى 16 لغة (رايين، 1979). ويمكن تصنيف هذه اللغات إلى مجموعتين: المجموعة الأولى - ثلاث لغات مهمة تكونت في أوروبا، وهي على التوالي، العربية - اليهودية، واللادينو واليديدش:

1. اللغة العربية - اليهودية تكونت في إسبانيا، فقد تأثر اليهود من اللغة العربية وتكلموا بها في حياتهم اليومية، فالعربية كانت بالنسبة لهم لغة الأم، والعبرية كانت بمثابة لغة ثانية يتعلمونها في الأطر التعليمية. دونت هذه اللغة العربية بأحرف عبرية، واستخدمت للكتابات النثرية. أما الشعر، فنظمه الشعراء اليهود مباشرة باللغة العبرية، وهناك من نظمته بالعربية، وكذلك الأمر بالنسبة للمقامات التي ألّفت معظمها باللغة العبرية (مرعي، 2008).

2. لغة اللادينو (الإسبنيولة) - لغة استعملها يهود إسبانيا والبرتغال، وهي مدبجة بكلمات وتعابير عبرية. ظهرت هذه اللغة قبل حوالي 500 سنة، ويعرفها اللغويون، كما يذكر بن - رفايل، بأنها "لغة انصهار" لكونها تحتوي على تراكيب ومجموعة

وضعها حاخامات إسرائيل، وخصوصًا حاخامات طبريا وتسبوري وكيسارين. تم تدوينه قبل التلمود البابلي بمائة وخمسين سنة، أي في عام 375 ميلادي (سغيف، 1985: مادة "تلمود").

مفردات لغوية قديمة العهد، وأخرى حديثة، ذات طابع شرقي وغربي (Ben- Rafael, 1994)¹⁰³.

3. أما اليبديش أو الإيديش (اشتق الاسم من "يهوديت") فهي لغة ألمانية في أصلها ممزوجة بكلمات عبرية وآرامية من التلمود والأسطورة، تحدث بها اليهود الأشكناز في وسط أوروبا ودونوها بحروف عبرية. هذه اللغة حديثة العهد، وكتبت بها المؤلفات النثرية والشعرية، واستخدمها اليهود كلغة محكية في مجتمعاتهم السكنية¹⁰⁴.
اللغتان الأخيرتان مستقلتان من الناحية البنيوية اللغوية والصرفية والنحوية، ولم تتأثرا باللغات الأخرى (رايين، 1979: 42)¹⁰⁵.

أما المجموعة الثانية، فتكونت في بلاد الشرق ويطلق عليها رايين (1979: 42) "اللغات المهودة"، إذ نشأت عن تهويد اللغات المحلية. وهذا يعني، أن اليهود تحدثوا باللغات المحلية، ذات الصبغة العبرية. وانتشر هذا المزيج اللغوي ليس بين أوساط المثقفين فحسب، وإنما بين العامة أيضاً¹⁰⁶.

¹⁰³ تفرد هذه اللغة بـ "ابتلاعها" عدة ألفاظ من اللغات اليونانية والتركية والإيطالية والعربية والبلغارية على مرور الزمن، وفي الآونة الأخيرة، اكتسبت ألفاظاً من اللغة الفرنسية. يمكن القول إن هذه اللغة تحولت إلى "بوتقة اتصالية" انصهرت فيها الحكايات الشعبية والأشعار.

¹⁰⁴ ما زالت اللغة حية حتى اليوم وينطق بها حوالي 5٪ من اليهود في إسرائيل، خاصة المتدينون الملتزمون، إذ تتم جميع التعاليم الدينية والطقوس الرسمية عندهم بلغة اليبديش. ومن أشهر كتابها في الأدب العبري: مندلي - موخير هسفاريم - (أي بائع الكتب)، ي.ل. بيرتس وشالوم عليخم.

¹⁰⁵ تجدر الإشارة إلى أن نسبة المفردات العبرية في اللغتين الإسبنيولية واليديش غير متساوية. وتصل المفردات العبرية الدخيلة في لغة اليبديش إلى حوالي 20٪، بينما المفردات العبرية من أصول لغة اللادينو أقل من ذلك بكثير (Mark, 1954).

¹⁰⁶ وحول مكانة العبرية في هذه الفترة يقول حايم رايين (1975: 229): سادت لدى الشعب اليهودي، منذ التوقف عن التكلم بالعبرية، حالة الازدواجية اللغوية. لقد خدمت العبرية الاحتياجات الأدبية

الصراع اللغوي: استمرار العربية الفصحى وإحياء العبرية

يرى الباحثون بعض جوانب شبه مشتركة بين إحياء العبرية المحكية وإحياء العربية في العصر الحالي (بلاو، 1976، 1996؛ شحادة، 2008). لقد مرت هاتان اللغتان بصراعات إلى أن انبعثتا من جديد. إذ أن المباني اللغوية المستحدثة والمتشابهة، والظروف الخارجية المماثلة التي وقعت اللغتان تحت تأثيرهما، تدعم إجراء مقارنة بينهما. بداية، سنلقي الضوء على المراحل والصعوبات والصراعات التي مرت بها كل لغة على إنفراد، ومن ثم سنوجز أوجه الشبه والاختلاف بينهما.

الصراعات الداخلية والخارجية التي خاضتها اللغة العربية

يذكر الباحث ياسر سليمان أن اللغة العربية تقع في دائرة الصراع (Suleiman 2004)، والتي يمكن حصرها في ثلاث دوائر¹⁰⁷:

أ- الدائرة الأولى: الازدواجية اللغوية

تعاني اللغة العربية من مشكلة الازدواجية، المتمثلة بالفصحى والعامية، إذ ثمة فرق شاسع بين اللغة المحكية واللغة الفصحى، فالفصحى لا يعرفها إلا المثقفون، ويتخاطب بها طائفة محدودة منهم. هذه اللغة تعتبر ذات مستوى متوسط أو وسيط بين اللغة الكلاسيكية واللغة المحكية المعاصرة. أما اللغة العامية أو المحكية أو الدارجة، فهي لغة

والعلمية والدينية في كل بلد، وفي كل زمان بطرائق استعمال مختلفة، وأحياناً كانت اللغة المكتوبة الوحيدة. وبما أن كل رجل يهودي ملزم بمعرفة العبرية، ولو قليلاً، فإن العبرية أصبحت بشكل طبيعي تتمتع بمكانة "اللغة الفرانكية" بين اليهود، وقت الحاجة.

¹⁰⁷ الدائرتان الأولى والثانية تمثلان الصراع الداخلي، أما الثالثة فتمثل الصراع الخارجي.

قائمة بحد ذاتها، إذ تتوافر فيها الظواهر اللغوية المتمثلة بالنظام الصوتي والصرفي والنحوي والدلالي¹⁰⁸.

واكبت قضية الازدواج اللغوي اللغة العربية منذ العصر الجاهلي وحتى العصر الحالي. وفي ذلك يقول كريم حسام الدين (2002: 11):

إن العربي الذي كان يعيش في العصر الجاهلي مثل العربي الذي يعيش اليوم، كان يعرف الازدواج اللغوي، فذاك كان له لهجة قبيلة، وهذا له لهجة إقليمية إلى جانب اللغة الفصحى، ولكل من اللغتين أدوار في حياته، فمن المواقف ما يستعمل فيها اللهجة القبلية، ومنها ما يتطلب الاستعمال الفصيح، كما نفعل الآن، وتختلف الفصحى في نطقها وتراكيبها واستعمال بعض مفرداتها على ألسنة أبناء الوطن العربي، كما كانت تختلف على ألسنة أبناء القبائل العربية قبل الإسلام.

فاللغة المكتوبة أو الفصحى تُستخدم في المجالات الرسمية، مثل الكتابة الأدبية والعلمية ونظم الشعر وكتب التدريس وفي الخطابات السياسية والدينية وإلخ. واللغة المحكية لغة الفطرة والسليقة السائرة في الحياة اليومية دون تصنع. وبسبب التباين بين مستوى اللغتين فإنه من الصعوبة بمكان التحدث عن الفصل بين لغتين فقط، وإنما تبلورت مع الزمن

¹⁰⁸ يقول حسام الدين (2002: 104): "إن المعيار الذي يجعل مستوى لغويًا ما يتصف بأنه عامية أو فصحية يعتمد على موقف الجماعة اللغوية منه، فليس في بنية اللهجة أو اللغة ما يحتم تصنيفها هذا التصنيف، ولكن مجالات الاستخدام هي التي تحدده. فالمستوى اللغوي، الذي يستخدم في دور العلم ومجالات الثقافة والأدب، هو ما يصنف اجتماعيًا بأنه فصيح أو لغة فصحية. والمستوى اللغوي يقتصر استخدامه على مجالات الحياة المختلفة والتعامل اليومي في المنزل والسوق والمقهى، وبين الأهل والأصدقاء، هو ما يصنف اجتماعيًا بأنه عامية أو فصحية".

خمسة أنماط لغوية في العربية الحديثة وهي (بدوي، 1973): فصحي التراث، فصحي العصر، عامية المثقفين، عامية المتنورين (خريجي المدرسة الابتدائية) وعامية الأميين¹⁰⁹. تعد اللهجة العامية ظاهرة اجتماعية تتأثر بظروف البيئة الطبيعية ونظم المجتمع، وهي الأكثر انتشاراً في العالم العربي وتختلف اختلافاً بيناً على المستوى الإقليمي¹¹⁰ والمحلي بين قطر عربي وآخر، وحتى بين سكان القطر نفسه (الحصري، 1971: 45).

ولو مُنحت اللهجات الإقليمية مكانة رسمية في الدول العربية، أو لغات قومية للأقاليم العربية المتعددة، لأصبح لدينا كم هائل من اللغات، الأمر الذي يؤدي إلى فوضى لغوية ينتفي معها التفاهم بين أبناء الشعوب العربية، وسيتم القضاء على وحدة الأمة العربية (الملا، 1995: 111).

¹⁰⁹ ويعلق حسيب شحادة على هذه الأنماط قائلاً (شحادة، 2008: 260): "الحس اللغوي أو الاقتران (التلازم) اللغوي (collocation) من حيث التوافقية والمدى والتواترية والقدرة اللغوية (competence) لدى العربي المثقف كان موجوداً على الدوام على الصعيد العملي بالنسبة للهجة، لغة الأم، وعلى صعيد آخر، وهو مزيج من الجانب النظري والعملي ليصبح أداء (performance) على حد سواء. معنى ذلك، أن العربي المثقف تراثياً بمقدوره إلقاء محاضرة ارتجالية في مجال تخصصه باللغة الأدبية المعاصرة، وما خطب الجمعة في المساجد ومواعظ يوم الأحد في الكنائس رغم الفرق الواضح من حيث المستوى اللغوي بينهما، إلا خير دليل لما نهدف إليه".

¹¹⁰ اللهجة الإقليمية الخاصة بالبلد العربي الواحد تنفرع إلى مجموعات لهجية - اجتماعية بحسب تعدد البيئات الاجتماعية في كل قطر عربي. على سبيل المثال، هنالك فرق في اللهجات بين السكان في المناطق النائية والأرياف والقرى، قياساً باللهجة المدن والعواصم الكبيرة.

¹¹¹ ويقول الملا (1995: 6): حين تضعف اللغة العربية، أو حين تتنوع (وتتوزع) إلى "لغات" بحسب المناطق الجغرافية للوطن العربي الكبير، تصبح اللهجة المصرية "لغة" للإقليم المصري؛ وتصبح اللهجة السورية "لغة" للإقليم السوري؛ وتصبح اللهجة العراقية "لغة" للإقليم العراقي، وتصبح اللهجة المغربية "لغة" للإقليم المغربي، وهكذا مع بقية اللهجات الإقليمية الأخرى كاللبنانية والأردنية

إن الفصحى لها نظام كتابي ثابت، واستخدام الرموز الكتابية فيها يعمل على تثبيتها على حالها ويحافظ على أنظمتها المختلفة، وعلى تراثها العلمي والأدبي، وهي تمتاز بصفات تختلف عن اللغة المحكية¹¹². كما تعمل اللغة الفصحى المكتوبة على توحيد العرب، بينما اللهجات تفرقهم إلى درجات مختلفة. وحول الازدواجية الواضحة في العربية بين الفصحى والعامية، يقول محمود حجازي (1998: 11):

لقد ظلت العربية الفصحى عدة قرون قبل العصر الحديث في أكثر أنحاء العالم العربي مقروءة ومفهومة في أحسن الأحوال، بينما كانت اللهجات المحلية تسود الحياة اليومية. وبهذا الازدواج بين الفصحى واللهجات المحلية دخل العالم العربي في العصر الحديث، وهو ازدواج بين لهجات محلية كثيرة من جانب ولغة فصيحة ارتبطت بتلاوة القرآن

-
- والجزائرية واليمنية والسعودية والكويتية والعمانية والسودانية وغيرها من لهجات الأقاليم (أو الأقطار) العربية. وعندها، يصبح التفاهم بين هذه الأقاليم (أو الأمم) صعباً إن لم يكن متعذراً في بعض الأحيان.¹¹² ومن أهم العناصر التي تؤلف تعريف اللغة الفصحى أو المعيارية (عبد العزيز، 1996: 210 - 211):
- أ- اللغة الفصحى شكل لغوي مختار يكتسب أهميته من ظروف سياسية أو اجتماعية أو أدبية.
 - ب- وهي شكل يعده الناس لغتهم القومية، وهو مظهر شخصية أصحابه، ورمز استقلالهم وتميزهم، ومن ثم يحظى بمكانة تفوق أي شكل لغوي آخر في المجتمع.
 - ت- وهي شكل له وظائف أكثر ارتباطاً بالشؤون العامة للفرد، فهي لغة الدولة وهيئاتها المختلفة، والتعليم بكل مراحل، والعلم بكل فروع، وإلخ.
 - ث- وهي شكل لغوي ثابت نسبياً يعد معياراً للصواب وحسن القول، شكل تحفظه الكتابة، وترعاه الهيئات المعنية باللغة، ويحاول الالتزام به أفراد المجتمع.

الكريم و ببعض المناسبات الدينية من جانب آخر. ولذا كانت المعرفة بها على مدى عدة قرون- تشير في أحسن الأحوال- إلى الانتهاء إلى المعاهد الدينية التقليدية¹¹³.

في بداية القرن العشرين، احتدم الصراع بين المناصرين والمعارضين لقضية الفصحى والعامية. وكانت هذه القضية متعددة الألوان والاتجاهات، وما زالت أصدائها تتفاعل حتى يومنا هذا؛ فقد طالب البعض بتبديل الحروف العربية بحروف لاتينية بهدف حل مشكلة المصطلحات العلمية، وناشد آخرون بجعل العامية لغة رسمية في الدول العربية¹¹⁴. وقد باءت جميع هذه المحاولات بالفشل لأسباب سياسية وقومية ودينية وحضارية¹¹⁵.

أما في عصر الانحطاط فقد تغلبت اللغة المحكية الدارجة على اللغة الفصحى، وبدأت حملات التغريب تعمل لضعضة مكانة اللغة العربية. واستطاع قادة هذه الحملات

¹¹³ من أهم المراكز الإسلامية التي دعمت اللغة العربية قبيل العصر الحديث: الجامع الزيتوني في تونس (758)، وجامع القرويين في فاس (859)، وأهمها جامع الأزهر في القاهرة (969). ويعتبر الأزهر أهم مركز لدراسة العلوم الإسلامية ولتعليم اللغة العربية.

¹¹⁴ قام أنصار الفصحى بمحاربة الذين يدعون إلى العامية لما تضره هذه الدعوة من أهداف معادية للأمة العربية تتمحور في النقاط الثلاث الآتية (الفصل، 1992: 41):

أ- هجر الفصحى تمهيداً للقضاء عليها، وما يستتبعه ذلك من فصل العرب عن تراثهم ودينهم.
ب- نقل العامية من اللهجة المنطوقة المقصورة على الاستعمال في الحياة اليومية إلى اللغة المكتوبة المستعملة في التأليف والبحث والإدارة، أي جعل العامية لغة أدبية بدلاً من الفصيحة.
ت- نشر اللغات الأجنبية واعتمادها لغة التعليم بغية السيطرة على العرب وجعلهم تابعين للاستعمار تبعية مطلقة.

¹¹⁵ إن الصراع بين الفصحى والعامية، أو ما يسمى بـ "ظاهرة التفتت اللغوي" ولّد خمسة تيارات: تيار دعاة الفصحى لغة التدريس؛ تيار دعاة العامية لغة التدريس؛ تيار دعاة العامية من المستشرقين والأجانب من غير العرب؛ تيار دعاة استبدال الحروف العربية باللاتينية؛ وتيار دعاة تطعيم اللهجات بالفصحى.

محاربة العربية والتقليل من أهميتها ومكانتها إلى أن قامت حركات التحرر الوطنية في الأقطار العربية، وجعلت العربية لغة قومية مشتركة لجميع البلدان العربية.

ب- الدائرة الثانية: اللهجات المحلية (اللسان الدارج)

كما ذكرنا، لازمت مشكلة اللهجات اللغة العربية منذ الفترة الجاهلية وكانت لغة قريش من أقوى اللهجات وأشهرها، فامتزجت اللهجات العربية الأخرى بها، وخلقت لغة مشتركة أدت إلى توحيد الناطقين بها في الفترة الجاهلية. لقد وُحِدَت القبائل اللغة، ودون أصحابها فيها أشعارهم وخطبهم وحكمهم وأمثالهم، وأطلقوا عليها اسم "اللغة الفصحى" أو "الفصيحة" أو "اللغة النموذج".

في الواقع، يمكن أن نقسم العالم العربي إلى أربع لهجات رئيسية: المصرية، والخليجية، والمغربية والشامية (سوريا، الأردن، لبنان، فلسطين). تتفرع من هذه اللهجات عدة لهجات ثانوية إقليمية ومحلية. تلاحظ الاختلافات والتنوعات اللهجية في كيفية نُطق الأصوات، وكذلك في اختلاف الصيغ أو القوالب الصرفية أو الحركات، وأيضًا، في استخدام المفردات والكلمات (الملا، 1995: 13).

ومن الصعوبة بمكان فهم اللهجات العربية المختلفة، فاللهجة تُسمع أحيانًا وكأنها لغة أجنبية تلزم الترجمة لفهمها، وهذا يدل على مدى خطورة التفهيم، الذي تصنعه

اللهجات المحلية في الأمة العربية¹¹⁶. في المغرب العربي على سبيل المثال، هنالك محاولة لتفسيح العامية لحل مشكلة اللهجات¹¹⁷.

وخلص الملا (1995: 5) إلى القول إن التحدث باللهجات المحلية يؤدي إلى تقلص سُبل التواصل بين الشعوب العربية، وتتسع الفجوة بين مشرق العالم العربي ومغرب، وتتفرق شعوب الأمة العربية لتصبح دولاً وأممًا متعددة، بعد أن كانت أمة واحدة بفضل اللغة العربية.

فيما يلي جدول يبين الفرق بين اللغة الفصحى واللغة العامية:

نقاط المقارنة	اللغة الفصحى	اللغة العامية
الاستخدام	المجالات الرسمية، مثل الكتابة الأدبية والعلمية ونظم الشعر	مجالات الحياة اليومية في المعاملات والتخاطب
تنامي اللغة	تغلب عليها سمة الركود	ديناميكية - تتسم بالنشاط والحيوية والتبدل
المكانة	مستوى عالٍ، تشير إلى المكانة الاجتماعية للمتحدث بها	منخفضة تفي بغرض الخطابة وقضاء الحاجات
التدوين	لغة الكتابة - تدون في الأدبيات والمراجع العلمية	لا يتم تدوينها إلا في حالات معينة، في سياق النص (الأدبي)

¹¹⁶ على سبيل المثال، عندما يتحدث المغربي بلهجته المحلية على شاشة التلفاز لا يستطيع المواطن العربي المصري أو الشامي أن يفهم حديثه. ومن إحدى الطرائف المحكية أن شخصين من أصول مغربية تواجدا في إحدى القنوات الفضائية اللبنانية، أحدهما يتقن العربية الفصحى، والآخر لا يتقنها بتأناً. وعندما تحدث الأخير بلهجته المحلية، طلب المذيع من زميله أن يترجم أقواله لكي يفهمها المشاهدون العرب.

¹¹⁷ إن أشكال التفرع اللغوي بالمغرب يجد حله الأنسب فقط في "تفسيح العامية" ولا ينحل أبداً عن طريق "تلهيج الفصحى"، ولا أدل على ذلك من فشل جميع المحاولات التلهيجية التي سبقت في المشرق العربي (الأوارغي، 2002: 12).

نقاط المقارنة	اللغة الفصحى	اللغة العامية
حالة الإعراب	ينتهي بالتشكيل حسب حالات الإعراب	ينتهي بالتسكين، ولا تطبق عليه حالات الإعراب المتبعة في اللغة الفصحى
النظام الكتابي	نظام كتابي ثابت يسير وفق أنظمة لغوية متفق عليها	لا يوجد نظام كتابي خاص لكتابة اللهجات المحلية ويتبدل وفق القطر
وظيفة اللغة	شكل لغوي معياري مشترك، يؤدي إلى التفاهم وقضاء الحاجات المتبادلة والتعبير عن الأحاسيس المشتركة	شكل لغوي يخص الفرد أو المجموعة المتجاورة يختلف باختلاف الأقطار
المنحى القومي	تدعم توحيد الأمة العربية كأمة قومية واحدة	تساهم في التفتيت القومي وفي مزيد من الانقسام والتفرعات، إذ يعترف الفرد ببلده أكثر من قوميته
معرفة اللغة	يتم تعلمها عن طريق الدراسة	تُكتسب عن طريق السماع

جدول رقم 3: الفرق بين اللغة الفصحى واللغة العامية

ت- الدائرة الثالثة: الاستعمار ومزاحمة اللغات الدولية.

داهمت الأمة العربية انتكاسات كثيرة، بدءًا بالغزو المنغولي والقضاء على الدولة العباسية، ومرويًا بسقوط الأندلس، ومن ثم انهيار الإمبراطورية العثمانية (التي لُقت بالرجل المريض)، وانتهاء بالاستعمار الأجنبي (البريطاني والفرنسي). أثرت جميع هذه المراحل التاريخية أثرت سلبًا على الحركة الثقافية في الشرق العربي ومغربه. ورأى بعض المثقفين من المستعمرين (الذين أطلقوا على أنفسهم اسم "المستشرقين") أن العربية تعد العامل الرئيس في وحدة شمل الأمة العربية وتجميع شعوبها، لذا عملوا على إضعاف لغات الشعوب التي تقع تحت سيطرتهم. ولتحقيق مآربهم عملوا في مسارين متوازيين:

الأول- دعوتهم إلى العامية: اهتم المستشرقون اهتمامًا كبيرًا باستخدام الكتّاب العرب اللغة الفصحى في الإبداع الأدبي، سواءً كانت قصة أم رواية أم مسرحية، ودعوا إلى استخدام اللغة العامية¹¹⁸. ويعد ذلك، من أخطر الهجمات التي تعرضت لها اللغة العربية¹¹⁹.

والثاني- تعليم الشعوب لغتهم الاستعمارية، والرقى بها إلى مستوى لغة الأم العربية: لقد فرض الاستعمار تعلم لغاته في الأقطار العربية التي وقعت تحت سلطانه، من أجل تربية الشعب العربي على التبعية له، والنفور من الفصيحة وتراثها، وقطع صلة الأجيال بحضارتها العربية الإسلامية (الفصل، 1992: 70). وقد حدث ذلك بشكل بارز في المغرب العربي لدى تعميم اللغة الفرنسية التي فرضت سلطانها على الجزائريين بالحديد والنار¹²⁰، وبشكل جزئي في نشر اللغة الإنجليزية في المشرق العربي. فالاستعمار سلب

¹¹⁸ وتأكيدًا على هذا الاهتمام، بدأت الجامعات الغربية في نشر كتب نحو متخصصة في اللهجات وقواميس خاصة بكل لهجة من العربية إلى الإنجليزية.

¹¹⁹ أكد ذلك عثمان أمين بقوله (أمين، 1967: 3-4): "إن حملات التغريب التي شنها النفوذ الغربي وأعوانه في آسيا وأفريقيا مصوبًا هجماته إلى التراث العربي الإسلامي بوجه عام، وإلى اللغة العربية بوجه خاص".

¹²⁰ ويقول المناصرة (2004: 171) إن ذلك تم في إطارين أساسيين: الأول- تأسيس المدارس لتعليم اللغة الفرنسية والتركيز على استخدامها كلغة اقتصادية وثقافية وأيديولوجية؛ والثاني- محاربة اللغة العربية في المساجد التي تستخدم العربية الفصحى، والعمل على إحياء اللهجات الجزائرية القديمة، وإعداد القواميس بحروف وكلمات لاتينية. هذا وما زالت بعض الشرائح الاجتماعية الجزائرية تدافع عن الفرنسية بادعاء أنها مفتاحهم نحو أوروبا والمدنية والمعرفة الحديثة.

إرادة الشعوب وهويتها، مما دفعها إلى خوض صراعات دامية مع المستعمر لسنوات طويلة¹²¹.

وحول دور الاستعمار في تهميش اللغة العربية يقول شاعر الفحam (ت 2008)، رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق (الفحam، د.ت: 13):

وحرم الاستعمار على الأمة العربية تعليم اللغة العربية، أو حجرها في نطاق ضيق لا تعدوه ليحل محلها لغاته الغربية، كي تكون أداة التعليم في المدارس والجامعات وبالتالي أداة تغريب للأجيال العربية، تقطعها عن تراثها وماضيها، وتقف دون غرس العلم العربي واستنباته ونشره في الأرض العربية. وهكذا أضاع الاستعمار على الأمة فرصة لا تعوض، وآخر دخولها ميدان البحث العلمي والتقني، وأقصى العربية عن المشاركة الجادة في العلوم الحديثة.

وحديثاً، تبنت العولمة¹²² استراتيجية تدعيم اقتصاد الولايات المتحدة، وجعل كل اقتصاديات العالم في خدمتها، وتعزيز اللغة الإنجليزية وجعلها فوق كل اللغات، وفرضها على المجتمعات في جميع المناحي العلمية والسياسية والثقافية. وقد أدركت عدة دول خطر

¹²¹ ويؤكد ممدوح خسارة (1994: 74) على أنه بالرغم من انتهاء الاستعمار في الدول العربية تحت ضغط الثورات الوطنية والمتغيرات الدولية، إلا أن الوطن العربي ما زال يعاني من النفوذ اللغوي، إذ تحتل الإنجليزية جناحه الشرقي والفرنسية جناحه الغربي. ومن الطبيعي، أن يبذل المستعمر طاقته للإبقاء على نفوذه اللغوي، الأمر الذي لا يتسنى له إلا بمحاربة التعريب.

¹²² في عام 1968 أصدر مارشال ماكلوهان كتاباً بعنوان "الحرب والسلام في القرية الكونية" وأشار فيه للمرة الأولى إلى مصطلح "العولمة". وفي عام 1993 ترسخ مصطلح "العولمة" في مؤتمر دافوس، حيث ربط مصطلح "العولمة" بالاقتصاد (انظر لدى المناصرة، 2004: 281).

العولمة الذي يدهم ثقافتها، وتعالى الأصوات، على المستوى الدولي، تدعو إلى مناوئة العولمة والحد من غزوها¹²³.

تعمل معظم الجامعات في الدول العربية على تعليم العلوم الطبيعية والتطبيقية والطبية والرياضيات والحقوق باللغات الأجنبية¹²⁴. وثمة جامعات في الدول العربية يتم تدريس جميع الموضوعات فيها باللغات الأجنبية¹²⁵. ويدعي أنصار التدريس باللغات الأجنبية أن اعتباراتهم ناجمة عن الأسباب الآتية: الألفاظ العربية قاصرة عن احتواء المصطلحات التكنولوجية المستجدة، وإن نُقل المصطلح إلى العربية فهو لا يفي بالمعنى المراد¹²⁶؛ التعلم باللغة الأجنبية يفتح الآفاق أمام الباحثين والدارسين للتعرف على الثقافة الغربية المتنورة،

¹²³ في الاجتماع الدوري لليونسكو، المنظمة الدولية للثقافة والعلوم والتربية، صوت الأعضاء المشاركون في الجلسة على وثيقة دولية تحارب تأثير العولمة، وتدعو إلى التعددية الثقافية في العالم بدلاً من هيمنة الثقافة الواحدة. عارضت الولايات المتحدة القرار بشدة، وألقت بكل ثقلها لشطب الموضوع عن جدول الاجتماع، ولكنها لم تنجح في ذلك، وكانت إسرائيل هي الدولة الوحيدة التي دعمتها في هذا الموقف.

¹²⁴ ففي مصر، على سبيل المثال، كان تعليم الحقوق في الماضي غير القريب باللغة الفرنسية. وكانت الحجة في ذلك، أن القوانين المصرية مأخوذة من القوانين الفرنسية، وعلى الطالب أن يدرس المادة وشرحها من الكتب التي وضعها الفرنسيون (هيكمل، 1986: 65)، وبعدها أصبحت العلوم القانونية والاقتصادية تدرس باللغة الإنجليزية.

¹²⁵ ففي لبنان، لغة التدريس في الجامعة الأمريكية هي الإنجليزية، وفي الجامعة اليسوعية هي الفرنسية. وفي جامعتي الخرطوم في السودان، وجامعة النفط والمواد الخام في العربية السعودية يتم التدريس باللغة الإنجليزية.

¹²⁶ هذا الادعاء يسوغ له المستعمرون والمستشرقون ويتقبله قسم من المثقفين العرب كحقيقة. وفي ذلك يقول ممدوح خسارة (1994: 74): "أما ما تعرضت له العربية من هجوم كثير من المستشرقين الاستعماريين واتهامها بالقصور والعجز عن التعبير العلمي، فهو استمرار للغزو العسكري بوسائل أخرى غير البندقية، ولعلها أمضى منها وأنفذ؛ وكنا ذكرنا ما اتهم به المستشرق (رينان) اللغات الشرقية - بالقصور، وأنها لا تصلح لنقل المعارف العلمية".

والتي تشكل المصدر العلمي الهام للتقدم التكنولوجي؛ غالبية المحاضرين تلقوا تعليمهم في الدول الأجنبية، وإنهم لا يتقنون العربية كلغة مهنية في المادة التي يدرسونها.

ويرد في فصل العلي (1998: 16) على هذه الادعاءات بأن العربية تحتوي على ثروة عظمى من أسماء الأشياء المحسوسة والأفعال المنوعة لحياة الإنسان اليومية أو بحوثه العلمية، وهي لغة حية نامية في وسعها أن تواكب التطور العالمي والاكتشاف والإبداع.

يُضعف قيام وزارات التربية والتعليم في بعض الأقطار العربية بتدريس العلوم والرياضيات باللغة الإنجليزية أو الفرنسية من فهم الطالب لهذه المواد، وينجم عن هذا الوضع ازدواجية مرهقة للطالب والمعلم والباحث على السواء. كما أن هذا الوضع لا يشجع على نمو مناخ علمي عربي مشترك لنشر دراسات بالعربية تتعاضد الطاقات العربية وتتفاعل فيه.

أما الكتب المترجمة أو المادة التي تدرّس بالعربية في العلوم الإنسانية فتظهر تبايناً في استخدام المصطلحات المتعلقة بالمفهوم الواحد، وإذا ما تم ترجمته أو تعريبه اختلفت الترجمة من قطر عربي إلى آخر، وهذا بحد ذاته يشكل خطراً على وحدة الفكر بين المثقفين. أدى هذا الإشكال إلى ضعف العربية بنظر غير الناطقين بها، الأمر الذي آل إلى نشوء حركات قومية في بعض الدول الإسلامية تدعو إلى التخلص من الحروف العربية واستبدالها بحروف لاتينية، كما حصل في تركيا.

يُذكر أن سوريا كانت أول دولة عربية اتخذت العربية لغة التدريس في جميع الموضوعات، ومن ضمنها الموضوعات العلمية والهندسة، وذلك منذ عام 1970. أما بالنسبة لموضوع الطب في الدول العربية فيقول صادق الهلالي (1986: 106-107) إنه يوجد في الوطن العربي خمس وأربعون كلية طب، لغة التعليم في ثلاث منها هي العربية، وهي كليات الطب الثلاث في سوريا، وفي واحدة بالصومالية والإيطالية، وفي اثنتين وثلاثين بالإنجليزية، وفي تسع كليات بالفرنسية.

يعود الفضل في المحافظة على اللغة العربية من الضياع، وهو المصير الذي واجه شقيقاتها من اللغات السامية، إلى القرآن الكريم بالدرجة الأولى ومن ثم إلى بعض المثقفين التقليديين، حملة لواء الحضارة والقومية العربية ورجال الدين¹²⁷، الذين أصروا على استخدام اللغة العربية وجعلها القلب النابض للهوية العربية. لقد ارتبطت دراسة العربية الفصحى في الوجدان الشعبي بدراسة الدين، وأصبح رجل الدين والمتخصص في العربية شخصاً واحداً هدفه الدين ووسيلته العربية.

ويؤكد غياث (2005) على أن ارتباط اللغة العربية بالدين الإسلامي جعلها هدفاً لهجمات أعدائها لتيقنهم بأنه لا يمكن القضاء على الإسلام وحضارته دون القضاء على اللغة العربية التي يُتلى بها القرآن الكريم، بل وفي بعض الأحيان تعدى الصراع إلى الرموز الثقافية كاللباس وغيره¹²⁸.

أما بلاو فيعزو الحفاظ على العربية إلى التعليم التقليدي، فهو الذي احتوى وعاء اللغة العربية وحضارتها (بلاو، 1976: 10-15)، ونقله إلى الأجيال اللاحقة، وبفضله استطاعت العربية تلمس طريقها في الفترات العصبية التي انتابتها.

¹²⁷ كانت العربية الفصحى تُسمع في المدارس التي تعلم الأولاد حفظ القرآن الكريم، وكانت خطبة الجمعة في المساجد تلقى باللغة الفصحى. ومما لا شك فيه، أنه كان هنالك تفاوت في القدرة اللغوية بين المعلمين والخطباء، الأمر الذي أثر إيجاباً أو سلباً على السامعين في مسألة اكتساب اللغة الفصحى.

¹²⁸ مثال على ذلك، شُرّع قانون في فرنسا عام 2003 يحظر على التلاميذ الحضور إلى المدرسة بملابسهم الدينية الظاهرة: الحجاب الإسلامي، والكيما (القبعة اليهودية) والصليب كبير الحجم. وقد اعتبر المسلمون أن هذا الحظر موجه ضدهم لمنع ارتداء الحجاب في المدارس الفرنسية، وعليه، هناك من سمى هذا القانون "قانون الحجاب". وبالمقابل، تم السماح باستخدام الرموز الخفيفة، كالصليب الصغير ونجمة داوود ويد فاطمة (قلادة تحوي أصابع اليد الخمسة وتلبسها المسلمات).

ويرى محمود تيمور أن بقاء العربية الفصحى على مدى قرون طويلة يعد معجزة، وذلك على ضوء التقلبات والمحن المريعة التي مرت بها هذه اللغة العريقة منذ نشأتها وحتى الفترة التي عاش فيها. وفي ذلك يقول (تيمور، 1952: 7-8):

ولا جرم أن بقاء الفصحى على هذا النوع، يكاد يعد معجزة في عالم اللغات، لكنها معجزة لها مسوغاتها الطبيعية.

في النهاية، توجت الفصحى كلغة الكتابة الرسمية للناطقين بالعربية. هذا التوزيع ليس بالأمر اليسير، لأنه فرض سلطان الفصحى دون إعطاء حل جذري لقضية العامية. مثلاً، التلميذ في المدرسة غالباً ما يتعلم المقررات الدراسية بالعامية، وعندما يعود إلى الكتاب يجدها مدونة بالفصحى؛ فالانتقال من العامية للفصحى يثير البلبلة ويثقل أعباء فهم المادة. على ضوء هذه الإشكالات وجد ساطع الحصري أن هناك حاجة ماسة للقيام بأبحاث علمية لغوية ميدانية واسعة النطاق، تتناول اللغة الفصحى واللغات الدارجة في آن واحد وتدرس القضية بجميع تفاصيلها، حتى يتسنى إيجاد حل جذري لهذه المعضلة (الحصري، 1971: 45).

إحياء العبرية وصراعها مع اللغات الأوروبية

كما ذكرنا، وقبل الهجرات إلى فلسطين في نهاية القرن التاسع عشر من القرن الماضي، اقتصر استعمال العبرية على اللغة المكتوبة، ولم تستعمل كلغة مخاطبة بين اليهود، مما دفعهم في النهاية، وفي خضم تبلور اللغات القومية في أوروبا، إلى إحياء لغتهم.

تعد ظاهرة إحياء العبرية ظاهرة لغوية فريدة من نوعها في علم اللسانيات، فقد شهدت هذه اللغة أطواراً متناقضة بين حياة وموت، أو بين صعود وهبوط في فلسطين وخارجها، إلى أن وصلت مرحلة اللغة المكتوبة والمحكية في أيامنا. وبهذا الصدد هنالك جدل قائم بين

اللغويين اليهود حول تسمية العبرية بمصطلح "لغة ميتة". والسؤال الذي يطرح نفسه: هل حقاً كانت العبرية لغة ميتة على مدار قرون عديدة من الزمن؟

لقد تضاربت الآراء حول هذه المسألة، فالدراسات القديمة تبنت هذا المنحى واعتبرت العبرية لغة ميتة تم إحيائها من جديد. وبالمقابل، نجد من الباحثين من يرفض بشكل قاطع وصف العبرية بالميتة، ولا يوافقون على "معجزة إحياء العبرية" ¹²⁹ (هرماتي، 1992: 89). ونشير فيما يلي إلى رأيين يرفضان مسألة إحياء العبرية ¹³⁰:

الرأي الأول تبناه زئيف حومسكي (1977: 212) حيث يقول:

لقد انبثقت العبرية من جديد لسبب بسيط، وهو أن هذه اللغة لم تكن قط لغة ميتة، ولم تمر عليها فترة تجمد أو تلاشٍ، كما لم تنقطع عن بناء نسيج حياتها، كتابة ومخاطبة، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

¹²⁹ يؤكد شلومو هرماتي في كتابه "سر المحادثة" (هرماتي، 1992) أن التحدث بالعبرية لم يتقطع في بداية القرن الثالث للميلاد. ومن الوثائق التي جمعها، يتضح بأن التحدث بالعبرية مر في مراحل مد وجزر من الناحيتين الكمية والكيفية. تمثل التحدث بالعبرية في الأمور الآتية: التدريس، الخطب والمواظب الدينية، المحاضرات، قراءة الرسائل، صلاة الجماعة، التدريس المسموع، وأحياناً في مجالات الحياة اليومية.

¹³⁰ يضاف إلى ذلك، ما قاله القنصل البريطاني في القدس، جيمس فين، في الثمانينيات من القرن التاسع عشر، إذ أشار إلى اللغة العبرية في سيرته الذاتية قائلاً (Finn, 1878: 127-128): "وما يخص اللغة العبرية، فإن المثقفين في أوروبا يخطئون خطأ فادحاً عندما يسمونها "لغة ميتة". في القدس كانت لغة حية في الاستعمال اليومي، وذلك بسبب الضرورة الملحة، إذ بأي لغة يمكن أن يتحدث اليهود، الذين يقدمون من كل أنحاء العالم إلى هنا؟ في مكتب قنصليتنا تسمع أحياناً محادثة بالعبرية. ففي إحدى المرات جاء يهودي من كابول ليفحص أمراً ما مع يهودي آخر قدم من كاليفورنيا، وبالطبع دار الحديث بينهما بالعبرية".

الرأي الثاني للإعيزر ليفشيتس (1990: 25) ويقول فيه:

لم تكن العبرية لغة ميتة قطعاً، حيويتها لم تتوقف طيلة أيام حياة الشعب، إذ كانت توازيها دائماً لغة داخلية في الصلب الروحاني للأمة. لقد قَلَّتْ حقاً سلطة العبرية في اللغة المحكية، ولكنها لم تتوقف عن كونها لغة حية كل أيام شتاتها. نتاجات عظيمة تم تأليفها بالعبرية طيلة الوقت، آراء المفكرين على مدى الأجيال دونت بها، وكل جيل أنتج أسلوباً خاصاً به- كل هذا يشير إلى وجود لغة حية. الحياة الفكرية للشعب كانت أيضاً في المهجر، رجالات الأمة ورؤساء الجاليات شرعوا قوانيناً وأنظمة بالعبرية. خاطب رجال الأعمال وأصحاب الفقه الشعب بالعبرية، ووضعوا أطراً بالعبرية للحياة بين الإنسان وصديقه، وبين الإنسان والمكان، فالأمة لم تتحدث منذ القدم إلا بالعبرية.

ويدعم هذا التوجه أيضاً الباحث قداري، الذي يدعي (قداري، 2004: 40) أن العبرية لم تكن ميتة، ومع أن الاستخدام اللغوي اليومي بالعبرية كان قد تقلص، لكنها في نفس الوقت، أخذت بالاتساع في مجال المفردات وتغيرت في مجال النحو، خاصة كلغة كتابة في النتاجات الشعرية والنثرية. ففي العصور الوسطى، التي تزيد عن ألف سنة، خف استعمال العبرية كلغة محكية، ولكنها استمرت في الحياة داخل مساكن اليهود، إذ أداروا بها شؤون حياتهم اليومية، مثل المعاملات والأحوال الشخصية، كعقود القران والزواج والطلاق والميراث، والتي سارت جميعها وفق الشريعة اليهودية، وتم تدوينها بالعبرية.

كما لا ننسى، أن الشعراء والأدباء اليهود على أرض الأندلس وشمال أفريقيا، كانوا متمكنين من العبرية المنطوقة والمكتوبة، وبها نظموا الشعر وكتبوا المؤلفات النثرية، الفكرية والفلسفية والنحوية، ناهيك عن الترجمات إلى العبرية (مرعي، 2008). ساهمت جميع هذه النشاطات الأدبية في إبقاء العبرية على الخارطة اللغوية كلغة قائمة.

ومهما تختلف المسميات، فإن مسألة إحياء العبرية تعد ظاهرة فريدة من نوعها لسببين: إن طبيعة اللغات تكون في البداية محكية ومن ثم تتحول إلى لغة مكتوبة، والعبرية الحديثة

المحكية تطورت باتجاه معاكس؛ والثاني أنه لا يوجد في تاريخ اللغات لغة اندثرت من حيث الاستعمال اللغوي المحكي، وتحولت إلى لغة محكية لدى الناس باعتبارها لغة أم (شحادة، 2008: 256).

نبدأ النقاش حول دراسة مراحل عملية الإحياء، ومن ثم نرصد العقبات التي وقفت حجرة عثرة أمامها.

مراحل انبعاث العبرية

تناول العديد من الباحثين دراسة انبعاث اللغة العبرية حديثاً، وقد أجمع هؤلاء على تقسيم هذه الفترة إلى ثلاث مراحل رئيسية¹³¹ (بار- يوسف، 1981؛ مغيد، 1984)، وهي على التوالي:

أ- فترة عصر النهضة: وهي فترة تطور العبرية المكتوبة من سنة 1800م - حتى نهاية 1900م، والتي كانت وليدة نشوء القوميات الحديثة في أوروبا. وقد انعكس تطور العبرية المكتوبة في الترجمة للعبرية، وإصدار صحف، وتأليف كتب وروايات وقصص قصيرة (أغمون وألون، 1994: 15).

امتازت بداية هذه الفترة بالكتابة بالأسلوب التوراتي¹³²، واعتمد هذا الأسلوب على البلاغة والفصاحة، كوسيلة أدبية فنية للكتابة؛ ولكنه في الوقت ذاته، أهمل المضامين التي تعالج القضايا الحياتية.

¹³¹ أما أغمون وألون (1994: 98) فيقسمان ذلك إلى أربع مراحل، وهي: الأولى - عصر النهضة (1780- 1881)؛ الثانية - من الثمانينيات من القرن التاسع عشر وحتى الحرب العالمية الأولى؛ الثالثة - من نهاية الحرب العالمية الأولى وحتى إقامة دولة إسرائيل (1918- 1948)؛ والرابعة - من إقامة الدولة وحتى اليوم.

تعدّ لغة التوراة محدودة في ثروتها اللغوية¹³³، هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى، تعتمد هذه اللغة التوراتية في أساسها على الأسلوب القصصي، وتخلو من المفردات العلمية، ولا تفي بحاجات التقارير الصحفية¹³⁴. ولذا، ففي نهاية فترة النهضة، حاول الأدباء ملاءمة كتابتهم لروح العصر، وذلك باتباعهم الأسلوب اللغوي المزدوج المركب من لغة الأجداد (التوراة والمشناة والعصور الوسطى) ومن الألفاظ العبرية المستحدثة.

ناقشت النصوص المدونة بالعبرية موضوعات اجتماعية ناجمة عن واقع الحياة، وحفرت اليهود الذين يحسنون قراء العبرية العكوف على قراءتها، الأمر الذي ساهم في تقرب اليهود من لغتهم والاهتمام بها.

كان لحركة النهضة الثقافية اليهودية¹³⁵، التي بدأت في نهاية القرن الثامن عشر وبلغت أوجها في القرن التاسع عشر في أوروبا الشرقية، دور كبير في انبعاث الأدب العبري

¹³² أي الرجوع إلى جذور الآباء، والابتعاد عن الكتابة باللغات اليهودية الأخرى، إذ رأى الأدباء أن الكتابة بأسلوب التوراة سيساهم في إثراء الثقافة اليهودية في تلك الفترة.

¹³³ اشتمل كتاب التوراة على 8000 لفظة، منها 200 لفظة استخدمت مرة واحدة.

¹³⁴ في هذه الفترة انتشرت الصحف، وكانت تشكل منبرًا لنشر النتاجات الأدبية، بالإضافة إلى القضايا الحياتية اليومية. الكثير من الأدباء بدأوا مشوارهم الأدبي من خلال نشر مؤلفاتهم، والتي كانت في أساسها قصصًا قصيرة، ومن ثم جمعوا هذه القصص في كتاب واحد. تجدر الإشارة أن بعض الأدباء حافظ على نشر قصصه، كما وردت في مصدرها الأولي، والآخر أدخل عليها تعديلات جذرية.

¹³⁵ هي حركة روحية يهودية تأثرت بالنهضة الثقافية الأوروبية، وطالبت بنشر العلم والثقافة بين سواد الشعب، ونبيل الحقوق ليهود أوروبا، وبإلغاء الحواجز بين بني إسرائيل وسائر الشعوب. رأس الحركة مثقفون من أوروبا، خاصة من ألمانيا (1780-1820)، ومن ثم من هنغاريا وتشيكوسلوفاكيا وإيطاليا (1820-1850). وصلت الحركة إلى قمة تطورها في شرقي أوروبا، في روسيا وبولندا (1850-1881). وقد أصدر مثقفو الحركة مجلات أسبوعية بالعبرية في أوروبا، وهي: همغيد: الراوي (سنة 1856)، هماليتس: المترجم، البليغ (سنة 1860)، همفسير: المبشر (سنة 1861)، هتسفيرا: الصفار أو الضفيرة

والكتابات العبرية على أجناسها المختلفة¹³⁶. وعند زوال حركة المثقفين ظهرت إلى الوجود الحركة الصهيونية، التي تبنت إحياء اللغة العبرية كجزء لا يتجزأ من مشروع الإحياء القومي. وقد أشار زعماء الحركة الصهيونية إلى توثيق الصلة التاريخية بين "القومية اليهودية" وبين التحدث باللغة العبرية، كوسيلة لتوحيد الأمة اليهودية من أجل بناء البيت القومي.

ب- مرحلة إحياء العبرية كلغة مخاطبة في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين: تعتبر سنة 1882 نقطة التحول في انبعاث اللغة العبرية، إذ وصلت في هذه السنة الهجرة الأولى إلى فلسطين. وفي هذه السنة، أيضًا، وُلد إيتمار بن يهودا، الذي يرى به الباحثون أول طفل اكتسب العبرية كلغة أم، لأن والده (يهودا) فرض على نفسه وعلى زوجته أن يتحدثا معه منذ ولادته باللغة العبرية فقط. واستحدث إيتمار الكثير من الألفاظ العبرية المرادفة لألفاظ أجنبية، وقد جُمعت في معجم خاص به (كنعاني، 1972).

تنتاب الأمة الغيرة على لغتها صحوحة قومية تدفع الغيورين إلى ترجمة الأيديولوجية النظرية إلى أمر حقيقي على أرض الواقع. فقد دعا القوميون العبريون إلى إحياء العبرية متسلحين بالشعار "لغة واحدة وشعب واحد" (كرمي، 1997).

(سنة 1862). وفي المقابل، صدرت في فلسطين صحيفتان، وهما: هحفاتسيلت: الزنبقة (سنة 1863)، وهلفانون: السمك الصغير الأبيض (سنة 1864).

¹³⁶ وعن أسلوب الكتابة في هذه المؤلفات، يقول بن أور (1975: 150): "إنه أسلوب مركب احتوى على مزيج لغوي كان استعماله دارجًا في المصادر العبرية؛ وهو لا يعتبر أسلوبًا تقليديًا، بل تجديدًا، ساهم في تشعب اللغة وأثرها بمفردات منحت العبرية القدرة على الانبعاث من جديد كلغة محكية، تستوعب أيضًا الموضوعات العلمية والدينية والفلسفية والفكرية".

ومن الشخصيات الريادية التي دفعت عملية الإحياء نحو الأمام، وعززت المنحى القومي، رافعة لواء أن مبدأ إحياء الأمة لا يتأتى إلا بإحياء اللغة، هو إلعيزر بن يهودا. وفي ذلك يقول (بن يهودا، 1978: 35):

ماتت العبرية بموت الأمة وعند بعثها من جديد تنبعث اللغة أيضًا سيالة على ألسنة ذريتنا، وليس عبر التراجم.

ويقول أيضًا (أغمون وألون، 1994: 63):

شيئان أساسيان بدونهما لا يصبح اليهود شعبًا: الأرض واللغة.

يُعتبر إلعيزر بن يهودا أول من استحدث لفظة "قومية" بالعبرية¹³⁷. ففي سنة 1878 سافر بن يهودا إلى أوروبا، ومن خلال اتصالاته بالمفكرين الأوروبيين تبلورت لديه فكرة "القومية اللغوية". وتستند رؤية بن يهودا إلى دعوة اليهود للهجرة إلى فلسطين والاستيطان فيها بغية إنقاذ العبرية من الضياع، والمحافظة على القيم الثقافية اليهودية المشتتة.

انتقد بن يهودا بعض المفكرين اليهود، الذين رفضوا فكرة القومية اليهودية¹³⁸. إذ تتجسد هذه القومية بدايةً في إحياء اللغة وزيادة الاستيطان في فلسطين، ومن ثم تأتي فكرة إقامة الدولة العبرية. يقول عن هذه الخطوة (رايين، 1976: 51):

أرض إسرائيل ستكون مركزًا لجميع اليهود، وعندما يرى يهود الشتات أن الشعب عاد إلى وطنه ويتحدث بلغته العبرية، ستزداد الهجرات وتتجذر العبرية وتتطور بشكل ملحوظ.

¹³⁷ وذكر ذلك في مقال نشره في صحيفة همغيد عام 1880 (بادربوش، 1967: 356) يقول فيه: "العبرية هي لغتنا القومية، وهي الملك الثمين الذي تبقى لنا من كنوز أجدادنا الأوائل. إن ترك العبرية بمثابة إثم عظيم. لقد أخطأ أجدادنا في استبدالها بلغات أجنبية، ويقع علينا واجب إحيائها كلغة مخاطبة وكلغة تدريس في المدارس".

¹³⁸ يقول (رايين، 1976: 51): "لدينا لغة يمكن الكتابة بها حول جميع الموضوعات التي تختلج في الصدور، ونستطيع التحدث بها فقط إذا رغبتنا في ذلك".

عملياً، يرى بن يهودا¹³⁹ أن ضياع الاستقلال السياسي لليهود أدى إلى عدم تطور اللغة القومية، وخاصة اللغة المحكية. كما ويعتقد أن التحدث بالعبرية سيعطي اليهود الحق في مطالبة دول العالم بالعودة إلى أرض الأجداد.

أطلق على إلعيزر بن يهودا "محيي اللغة العبرية" لأنه عمل بتفانٍ وإخلاص طيلة أربعة قرون (1879-1922) على تحويل العبرية من لغة مكتوبة إلى لغة محكية (لانغ، 2008). ويستشف من الدراسات الحديثة بأن خمسة أشخاص سبقوا بن يهودا في ذلك: ثلاثة مدرسين وأديبان (هرماتي، 1978)¹⁴⁰، فقد مهّد له هؤلاء الطريق نحو تطوير طموحه القومي. كما وساهمت شخصيات يهودية متدينة في عملية الإحياء (هرماتي، 1996).

ولد بن يهودا (1858-1922) في شمال روسيا لعائلة متدينة، وفي سنة 1881 وصل إلى فلسطين وطالب اليهود عدم التحدث إلا بالعبرية. ولكن هذا المطلب كان صعب المنال لعدم معرفة ملكة اللغة. وبعد ذلك بسنة، أنجب ابنه إيتار ورباه على لغة الأم العبرية، وأحضر له حاضنة تتحدث العبرية¹⁴¹. وهذا يعني، أن أيديولوجية بن يهودا في تطوير

¹³⁹ الذي كان اسمه إلعيزر فيرمان وحوله إلى بن يهودا (تيمناً بأحد أسباط اليهود)، إذ اعتبر أن الرجوع إلى أسماء عبرية وردت بالتوراة هو جزء من مخطط يرمي إلى إحياء الأصول القومية.

¹⁴⁰ وهؤلاء المدرسون هم: يوسف هليفي (1827-1917)، والخابام باروخ بن إسحاق ميطني (1847-1919)، نيسيم بيخار (1848-1931). أما الأديبان فهما: مندلي (1835-1917) واسمه شالوم يعقوب أبراموفيتش ويلقب ببائع الكتب (موخير هسفاريم)، وإحاد هعام (1856-1927)، واسمه الحقيقي آشر تسفي.

¹⁴¹ طلب بن يهودا من زوجته أن تمنع أولاده من الاختلاط مع أولاد الحلي، الذي يسكنون فيه بالقدس، لئلا يؤثر على لغتهم العبرية المحكية الناشئة.

مشروع اللغة العبرية بدأت داخل إطار العائلات اليهودية، ومن ثم كثف جهوده في المجالات الخارجية المتعددة¹⁴².

لم تحدث عملية إحياء العبرية بين عشية وضحاها، فبالإضافة إلى أعمال بن يهودا وشخصيات أخرى، فقد ساهمت المؤسسات العلمانية اليهودية في توثيق العلاقة بين اليهودي المعاصر وثقافته، واستخدامه العبرية كلغة للتثقيف (شفيد، 1974). يقول سدان (1972) إن لغة الثقافة كانت من إحدى العوامل الرئيسة التي دعمت إحياء اللغة العبرية، وذلك من خلال إنشاء مؤسسات يهودية خاصة بها¹⁴³.

ساهمت هذه المؤسسات في انتشار الأدب والكتابة، وفي إنشاء حركات قومية اجتماعية، وعلى رأسها الحركة الصهيونية، التي أولت العبرية مكان الصدارة وذلك من خلال ربطها المباشر مع الإحياء القومي. كما وتكونت لدى اليهود تنظيمات وجمعيات اجتهدت في دعم العبرية ونشرها على جميع الأصعدة، نذكر منها:

¹⁴² وهذه المجالات تتلخص في المشاريع الآتية:

أ. الإصرار على تدريس العبرية في المدارس كلغة قومية مكتوبة ومحكية.

ب. أحدث ثورة في إصدار الصحف العبرية، وشغل محرراً للصحف التالية: "هتسفي" - الغزال، "هاور" - الضوء، "هشكفا" - وجهة نظر.

ت. أسس عام 1890 "لجنة اللغة" وترأسها حتى مماته.

ث. أصدر معجماً لغوياً مختصراً في عام 1903. وعكف منذ عام 1908 على إعداد معجم كبير تم إنجازه بعد وفاته على يد طور سيناوي عام 1959، والذي يقع في 16 مجلداً واحتوى على 8000 صفحة.

ج. استحدث ألفاظاً جديدة شائعة الاستعمال في الحياة اليومية. وكان يعمل على إيجاد كلمة لكل مصطلح، وابتعد قدر الإمكان عن المصطلحات المعقدة (فايس، 1961).

¹⁴³ انعكس ذلك من خلال إنشاء مؤسسات يهودية، مثل مسرح يهودي (هبييا)، وإقامة شركات يهودية، ونشر صحف يهودية بالعبرية.

1. جمعية "سفاه بروراه" (اللغة الواضحة) والتي ضمت في صفوفها أعضاء من اليهود الأشكناز والسفراديم، وهدفت إلى بلورة لغة عبرية موحدة، وذلك من منطلق أن توحيد اللغة يؤدي إلى توحيد الأمة. وقد استبدلت الجمعية فيما بعد بـ "لجنة اللغة".

2. لجنة اللغة - تأسست عام 1890 من أدباء ولغويين برئاسة إلعيزر بن يهودا. ووضع أعضاء اللجنة نصب أعينهم تحقيق الهدفين الآتين: استحداث ألفاظ جديدة لموضوعات مهنية في مجالي العلوم والتكنولوجيا؛ والمحافظة على نشر اللغة السليمة كتابةً ونطقاً. وفي عام 1953 انتهت مهام اللجنة، وتم إنشاء المجمع اللغوي العبري¹⁴⁴.

3. إنشاء نادي المعلمين: في المؤتمر الأول للمعلمين طُرحت قضية اللغة العبرية، وناشد قادة المؤتمر جمهور المعلمين التدريس بالعبرية¹⁴⁵. وتجدر الإشارة إلى أن لدور المعلمين، وخاصة المربين في رياض الأطفال، اللواتي درسن العبرية كلغة أم؛ دوراً هاماً في إنجاح مشروع إحياء العبرية¹⁴⁶.

4. تأسيس جمعيات يهودية في أوروبا¹⁴⁷ ونشر الصحف العبرية هناك¹⁴⁸.

¹⁴⁴ عن المجمع اللغوي العبري، انظر الفصل الثالث.

¹⁴⁵ وقد ازداد هذا التوجه زخماً عام 1903 عندما أُعلن عن تأسيس نقابة المعلمين (بدل نادي المعلمين)، ومن الأهداف الرئيسة للنقابة التي ظلت حتى اليوم، كان المحافظة على العبرية ونشرها في المؤسسات التعليمية.

¹⁴⁶ ويؤكد على ذلك هرماتي (1979، 2001) بأنه لولا دورهن الجاد في التدريس لما استطاعت العبرية شق طريقها كلغة محكية. هذا يعني، أن بن يهودا وزملاءه هم أصحاب مشروع (أو فكرة) الإحياء، أشرف المربون والمربيات على تنفيذه فيما بعد.

¹⁴⁷ يذكر في هذا المقام جمعية "خوفني سفات عير" (محبو اللغة العبرية) في روسيا التي نشرت اللغة العبرية وآدابها، ومنها انبثقت جمعية "تربوت" (ثقافة) عام 1917.

ومن العوامل المهمة الأخرى التي دعمت إحياء العبرية بزخم كانت الحركة الصهيونية التي لم يقتصر دورها على إحضار اليهود إلى فلسطين، وإنما تركز أيضًا في بلورة مجتمع يهودي، يتخذ من العبرية لغة الاتصال الوحيدة فيه.

تبنّت الحركة الصهيونية الدعاية القومية لترسيخ الجذور اليهودية (Harshiv, 1993). استهدفت هذه الدعاية حياة الأفراد، أي تسليط الضوء على شخصيات معينة رأت بهم الرمز في التضحية من أجل خدمة الوطن، حتى يشكلوا أنموذجًا يحتذى به للآخرين¹⁴⁹، هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى، تعزيز الجذور التاريخية وربط الماضي (التقاليد اليهودية)¹⁵⁰ بالحاضر، أي بالجيل الجديد.

بالإضافة إلى الدعاية، سعت الحركة الصهيونية إلى إثارة المشاعر الوجدانية من خلال التركيز على كلمة "عبري". لقد ترددت عدة شعارات زرعته الصهيونية في أذهان المهاجرين، مثل: "العمل العبري"¹⁵¹، و"زراعة الأرض العبرية"، ومنها تبلور الشعار

¹⁴⁸ لعبت الصحف التي نشرت بالعبرية دورًا مهمًا في إحياء العبرية وفي اكتساب الثقافة اليهودية خارج البلاد. ومن هذه الصحف: "هشاحر" (الفجر)، "همغيد" (الراوي)، "هكرمل" (الكرومل)، "هتسفيرا" (الصفار)، "قول همفسير" (النداء المبشر).

¹⁴⁹ انظر الفصل الرابع.

¹⁵⁰ يذكر بلاو (1976، 1996) أن جذور العبرية عميقة في المجتمع اليهودي التقليدي كلغة ثقافة. وأن العلاقة الحميمة بين المصلين اليهود وبين لغتهم القومية على مر العصور مثلت رمزًا لوحدة الأمة في الماضي، وأعطت دفعة لتجديد اللغة وإحيائها عندما سنحت الفرصة التاريخية لذلك. ويخلص بلاو إلى القول بأن المعجزة في إحياء العبرية حدثت لأن الحركة الصهيونية أحضرت إلى البلاد عددًا كافيًا من اليهود الذين تربوا على أسس المجتمع التقليدي، وهؤلاء شكلوا النواة للتحدث بالعبرية.

¹⁵¹ هذا التعبير جاء لتعزيز مكانة العمل العبري المتقن، خلافًا للعمل العربي الرديء وغير المتقن (روزنبلوم وطريغر، 2007: 237-240).

الذي كان يوجه لكل يهودي: أيها العبري الطلائعي "اعمل في الأرض العبرية"، و"تحدث العبرية"، و"تعلم العبرية بالعبرية".

رأت الحركة الصهيونية في إحياء العبرية، أمراً أيديولوجياً لا يمكن التخلي عنه، ووظفت جميع السُّبل لإخراجه إلى حيز الوجود. وقد برزت معالم الأيديولوجية في اختيار أسماء للأفراد لها صلة بالجدور التاريخية اليهودية والثقافة العبرية، واتبعت سياسة تبديل أسماء المهاجرين الجدد بأسماء لشخصيات صهيونية وقادة عسكريين وشعراء قوميين ومؤلفين وربانيين مشهورين. ويذكر ستال أن بعض هذه الأسماء استمدت من التوراة ومن طبيعة البلاد (Stahl, 1994) ¹⁵².

إن التحدث بالعبرية كان في البداية أمراً صعباً للغاية، حيث لم يكن الجميع قد اكتسب ملكة اللغة ¹⁵³، كما استخدم المتحدث لغة جديدة غير لغة أمه، وكان يظهر محرجاً لأنه يستنفد

¹⁵² وفي هذا السياق، يُذكر أن منظمة "عزرا"، التي عملت من أجل سيطرة اللغة العبرية في فلسطين، بادرت إلى إقامة "يوم اللغة العبرية" في عام 1941 والذي يرمي إلى تعزيز مكانة اللغة العبرية وإثارة الوعي نحوه. وهذه المناسبة أصدرت منشوراً تحت عنوان "أبعدوا الأسماء الغريبة عنكم". وجاء في المنشور: "ليعلم كل يهودي ينتمي إلى الأمة العبرية، العائد إلى وطنه، أن عليه المحافظة على كيان اللغة العبرية المسيطرة في جميع المجالات الحياتية. وعلى كل مواطن أن يختار اسماً عبرياً أصلياً، يعكس ماضينا ويتلاءم مع حياتنا المتجددة في البلاد. سنقوم بمساعدة كل يهودي يبحث عن اسم عبري يناسبه. كما يجب أن تُكتب جميع اللافتات بالعبرية، وإذا كان من الضروري وجود لغة أخرى على اللافتة، يجب إبراز اللغة العبرية" (بادربوش، 1967: 390).

¹⁵³ بين السنوات 1916 - 1918 أجرت النقابة الصهيونية إحصاءً حول استعمال اللغات في فلسطين بين أبناء الطائفة اليهودية. وصرح 34000 أي 40% من اليهود الذين وصل تعدادهم آنذاك 85000 أن العبرية هي لغتهم الرئيسية. وكانت نسبة الشباب الذين تحدثوا العبرية 50%. وفي سنة 1954 تحدث بالعبرية 681000 يهودي من أصل مليون (بيقر، 1957). وفي سنة 1961 تحدث بالعبرية حوالي مليون وستمائة ألف إسرائيلي، وفي سنة 1965 زاد عدد المتحدثين عن مليوني نسمة (بادربوش، 1967: 386).

جميع طاقاته حتى يتسنى له إيجاد الكلمة التي تفي مبتغاه. وقد اتصف الكلام في تلك الفترة باستخدام لغة مصطنعة غير سليمة من الناحية الصرفية والنحوية.

ت- مرحلة التبلور النهائي والإعلان عن قيام إسرائيل:

أعطى قيام إسرائيل العبرية مكانتها، كلغة أساسية مكتوبة ومحكية. وبهذا الحدث انتهى الحديث عن إحياء اللغة العبرية، وانصببت الجهود في تعميق معرفتها واكتسابها لدى الجمهور الواسع. وكان الحدث الأكبر في تطور العبرية، هو أنها أصبحت لغة الدولة، ومسؤولة عن إدارة الشؤون الحياتية على المستويين الرسمي والشعبي. أصبحت العبرية لغة ديناميكية، لديها قابلية استيعاب جميع الطرائق القديمة والحديثة المتبعة في تطوير اللغة. وقد شجع التنوع في استحداث الألفاظ العبرية بعض المجموعات العرقية في العالم العمل على إحياء لغتهم¹⁵⁴.

ألزمت موجات الهجرة المتتالية، التي ملأت البلاد بعد قيام إسرائيل، صناع القرار باتخاذ إجراءات سريعة لاستيعاب المهاجرين الجدد. ووضعت مسألة تعلم العبرية في مقدمة سلم الأولويات كمهمة مقدسة من الدرجة الأولى. وشاركت في هذه المهمة عدة أطراف:

¹⁵⁴ شهد إحياء العبرية صدى لا بأس به بين الشعوب. وقدبًا لاقت العبرية استحسان النصارى، فالديانة المسيحية وريثة اليهودية، ويجسد ذلك، كما ذكرنا، في "العهد الجديد"، حيث عكف الدارسون على قراءة التفاسير بالعبرية بغية فهم الكتاب المقدس. وفي العصر الحديث، نجد أن إحياء العبرية أثار الشعوب الأخرى، التي تطمح إلى إحياء لغاتها، ورغبت في التعلم من خبرة اليهود في هذا المجال. ومن بين هؤلاء الشعب الهندي الذي يحلم في إعادة اللغة السنسكريتية، إذ أنشئت جمعية لإحياء السنسكريتية، وأجرت اتصالات مع لغويين إسرائيليين للتعلم منهم. ومن الشعوب الأخرى نذكر الشعب الإيرلندي الذي أُجبر على التحدث بالإنجليزية، مع أنه يريد التخلص من السيطرة البريطانية ورد الاعتبار لنفسه. وكذلك الشعب الباسكي، الذي يسكن في الشريط الحدودي بين إسبانيا وفرنسا، ويبدل جهودًا جبارة لإعادة لغته الباسكية (بادربوش، 1967: 371).

معاهد تعليمية درست العبرية في مساقات مكثفة في المعاهد اللغوية لمدة خمسة أشهر في الساعات الصباحية، وأخرى في الساعات المسائية؛ ومتطوعون علموا العبرية في المعبروت¹⁵⁵ وفي المساكن الثابتة؛ ووظفت الطاقات التربوية بتصنيف الشباب إلى مجموعات، وتعليمهم العبرية حسب مستويات.

وشارك الجيش الإسرائيلي، أيضاً، في إكساب العبرية في الثكنات العسكرية حيث شكل مدارس بديلة للمهاجرين الجدد، وعمل على ملاءمة مستوى التدريس وفقاً لجيل المتعلم واحتياجاته اللغوية. ويضاف إلى ذلك، انتشار الزواج المختلط بين الأزواج الشابة، والتحدث فيما بينهم بلغة مشتركة-العبرية.

كما وأصدرت صحف بالعبرية المبسطة، مثل: أومر אומר = قول، لمتحيل למתחיל = للمبتدئ، شاعر שاعر = بوابة. وعملت دار الإذاعة على بث برامج خاصة للقادمين تعنى بشؤون الحياة في الدولة ونشر الأخبار بلغة سهلة.

عند فحص المفردات التي تُستعمل اليوم في اللغة العبرية المعاصرة، يتبين أن العبرية المحكية والمكتوبة، مركبة من مفردات لغوية وليدة المراحل التاريخية التي مرت بها هذه اللغة. فالعبرية الحديثة هي لغة انصهار (شفارتسولد، 1994: 21-25)¹⁵⁶، امتزجت بها مؤثرات لغوية من الفترات المختلفة، ويُلاحظ فيها تأثير اللغات الأجنبية التي تواصل اليهود فيها مع السكان الناطقين بها.

¹⁵⁵ المعبروت (מעברות) هي مساكن وقتية من الخشب والخيام أُقيمت في بداية نشأة إسرائيل لاستيعاب المهاجرين الجدد.

¹⁵⁶ وفق هذا المصطلح، فإن عملية الانصهار- היתוך لا تدل على انبعاث لغة من جديد، وإنما إنشاء لغة جديدة مكونة من طبقات لغوية مختلفة: لغة قديمة (لغة التوراة والحكماء)، ولغة حديثة (اللغات الأوروبية).

ويدعي رؤوبين سيفان أنه لدى معاينة معجم مفردات العبرية الحديثة، نجد أن أصول المفردات، من حيث انتشارها، تندرج وفق النسب الآتية (Sivan, 1980: 27)¹⁵⁷:

65٪ من المفردات في النصوص تعود أصولها إلى التوراة.

16٪ أصلها من لغة الحكماء.

5٪ من لغة العصور الوسطى.

14٪ من العبرية الحديثة.

مما لا شك فيه، أن الكثير من المفردات التي انبثقت عن لغة التوراة والمشناة والعصور الوسطى قد انقرضت أو توقفت استعمالها، وأن المفردات المتداول استعمالها حالياً هي جزء من رصيد لغوي تاريخي.

لقد سادت العبرية في إسرائيل بفضل اتباع صناع القرار سياسة "بوتقة الصهر" أو "بوتقة الانصهار"، والتي استهدفت توحيد الأمة اليهودية على مختلف انتماءاتها العرقية وتحويلها إلى "يهود إسرائيليين". ولعبت العبرية الدور الرئيس في تحقيق هذه الأيديولوجيا، حيث استخدمت كلغة الاتصال الأساسية بين أبناء الطوائف المختلفة.

ولدى دراسة العبرية الحديثة، نجد أنها تمتاز بالصفات الآتية:

أ. من الناحية الصوتية تأثرت العبرية الحديثة باللغات الأوروبية، فخف النطق بأصوات الحلق وأصوات الإطباق لأنها غير موجودة في اللغات الأوروبية.

¹⁵⁷ أما ابن شوشان في معجمه (ابن شوشان، 1983) فيرى أن النسب مغايرة، وتبعه في ذلك حسيب شحادة (Shehadeh, 1994)، وهي كالآتي: 22٪ لغة توراة (8198 كلمة)، 22٪ لغة مشناة (7879 كلمة)، 16٪ لغة العصور الوسطى (6421 كلمة)، 40٪ لغة حديثة (14762 كلمة). وانظر أيضاً (شفارتسولد، 1994: 25).

ب. كل نص أو مرجع يشتمل على مفردات من لغة التوراة أو المشناة أو التلمود لا يُلاقي الاستحسان من قِبل الإسرائيليين، لأن الهدف كان استعمال لغة حديثة بغية التقرب من العالم الغربي واكتساب ثقافته.

ت. تجنب المفردات الدخيلة من الإيدش والآرامية والعربية في اللغة الدارجة قدر الإمكان. وعلى الرغم من أن بعض هذه المفردات موثقة في المعاجم، لكن لا يجذب استعمالها.

ث. الثورة الحقيقية في عصرنة اللغة حصلت في مجال علمي الدلالة والنحو، أي استعمال القوالب اللغوية والتراكيب النحوية المألوفة في اللغات الأوروبية، فاللغة العصرية تنفي بالمعنى المراد وتبتعد عن التعقيدات البلاغية.

ج. مع الزمن تطورت اللغة العبرية العامية، حيث تضمنت مفردات دارجة على ألسنة العامة، وهي مركبة من خليط لغوي أجنبي. تعتبر العبرية العامية قليلة الانتشار مقارنة مع العربية، ونجدها أكثر انتشارًا في المجالات الرياضية والعملية لأنها شعبية ومادتها غير مركبة.

ح. تُلاحظ فروق في ملكة اللغة بين اليهود الذين وُلدوا في إسرائيل وبين المهاجرين الذي يمتلكون "لغة أم" إضافية. ويفضّل هؤلاء أحيانًا التحدث فيما بينهم بهذه اللغة، كما هو الحال بالنسبة للمهاجرين الروس.

خ. تعتمد الكتابة الحديثة لدى بعض الأدباء، وخاصة الأديب شموئيل يوسف عغنون (1887-1970)، الحاصل على جائزة نوبل للأدب عام 1966، على التراث اليهودي. ومن الصعوبة بمكان ترجمة المواد المكتوبة، لأن الترجمة تُفقد النص قيمته المعنوية والجمالية، كما أن القارئ الذي لا يلم بالثقافة اليهودية يصعب عليه فهم المواد المترجمة.

مرت مراحل إحياء العبرية بضرورة مركبة، ابتدأت من القرن التاسع عشر وذلك على أيدي المستوطنين الصهيونيين في فلسطين. ورويداً رويداً شُرع باستخدام العبرية في الشعر العلمي والأدب والتقارير الصحفية وفي الحياة اليومية. ويذكر فيشمان أنه خلال عدة عقود، أصبحت العبرية ملائمة لحياة العلمانيين وللرجال والنساء المتدينين، وليس فقط للأرثوذكس المتزمتين (Fishman, 1991a: 289- 291).

ويؤكد الباحث رايت على أن تحويل العبرية للغة محكية تم دون مساعدة خارجية من قبل السلطات التركية أو البريطانية في فلسطين، وهذا بحد ذاته شكل خطوة هامة جداً في الحفاظ على العبرية كلغة مستقلة (Wright, 2002).

الصراعات الداخلية ضد إحياء العبرية

لم يكن إحياء العبرية بين أوساط اليهود أمراً سهلاً كما يتصور البعض، ومنذ أن بدأت رياح التغيير تهب لصالح العبرية، تولدت عدة صراعات خاضتها هذه اللغة كالصراع الداخلي مع اللغات اليهودية¹⁵⁸ التي تطورت في الشتات، وشكلت عائقاً أمام إحياء العبرية.

من أهم اللغات التي وقفت للعبرية بالمرصاد كانت لغة اليديش، إذ سخر الكثير من اليهود الأشكناز من دعاة إحياء العبرية، واعتبروا اليديش وريثة اللغة العبرية، كلغة موحدة لجميع أسباط إسرائيل. وقد تزعم هذا التوجه شعراء وأدباء في مؤتمر عقده في أوروبا سنة 1908. هذه القضية أشغلت بال مناصري إحياء العبرية الذين تصدوا لها بشدة باعتبارها "لغة شتات".

انعكس الصراع بين العلمانيين والمتدينين على العبرية أيضاً، فقد ثار المثقفون العلمانيون اليهود على المتدينين وعلى لغتهم الدينية، لغة اليديش، التي تحتوي على ألفاظ من العبرية

¹⁵⁸ في الواقع، لم تنافس اللغات اليهودية اللغة العبرية كلغة قومية للأمة اليهودية، ولم تشكل خطراً عليها أو بديلاً لها، باستثناء لغة اليديش التي تحدث بها الكثير من اليهود الأشكناز من الأصل الغربي.

التوراتية الدارجة عندهم تحت مسمى "لويشن قويديش" (أي اللغة المقدسة). وعليه، تصدى العلمانيون لهذه اللغة، وطالبوا المتدينين التحدث بلغة التوراة، التي تعد بنظرهم اللغة الأصلية الخالية من الأخطاء الصرفية والنحوية. كما استخدم الكثير من الكتاب الأسلوب التوراتي كركيزة أساسية في مؤلفاتهم، وعدت الكتابة بأسلوب التوراة، في تلك الفترة صرخة موجهة ضد المتدينين وكتاباتهم بلغة اللويدش¹⁵⁹.

كما ولاقت فكرة إحياء العبرية، كلغة محكية، معارضة الكثير من الزعامات اليهودية الثقافية والسياسية، فضلاً عن المستدروت الصهيونية، فقد عارض معظم الأدباء الفكرة ومنهم منديلي (موخير هسفاريم)، الذي يعتبر أبو الأدب العبري الحديث، وتيودور هرتسل (1860-1904) مؤسس الحركة الصهيونية السياسية، الذي أشار في كتابه "دولة اليهود" إلى أنه لا أحد من اليهود يعرف العبرية بشكل كافٍ، ولا يستطيع أن يتدبر بها في حياته اليومية. ولكن بعد ذلك غير هرتسل رأيه، ودعا إلى جعل العبرية لغة للدولة اليهودية العتيدة، بالرغم من أنه لم يتعلم هذه اللغة ولم يتحدث بها (هرماني، 1996: 102-122). كما نجد أن زعماء آخرين من اليهود فضلوا في البداية لغة اللويدش على العبرية¹⁶⁰.

في نهاية المطاف، انتصر مؤيدو العبرية وتوقف المؤلفون عن نشر كتاباتهم باللويدش وتحولوا إلى العبرية. وانعكس ذلك في الترجمة إلى العبرية، وإصدار صحف، وتأليف كتب وروايات وقصص قصيرة (فروخطمان وألون، 1994: 15). وبهذا الصدد، يقول حاييم بلانك إن إحياء العبرية الحديثة ما هي إلا محاولة من اليهود الأوروبيين لبعث لغة سامية إلى الحياة المعاصرة (Blanc, 1968).

¹⁵⁹ كما ذكرنا، تحدث اليهود الأشكناز في حياتهم اليومية بلغة اللويدش، ونشروا غالبية مؤلفاتهم بها، وأما التدريس فكان بلغات أخرى.

¹⁶⁰ على سبيل المثال، دافيد بن غوريون ويتسحاق بن تسفي هما زعيمان يهوديان أشرفا على تحرير مجلة ناطقة باسمهم بلغة اللويدش. ولكن خلال فترة قصيرة تحولوا إلى الكتابة بالعبرية.

ازداد الوعي تجاه اللغة العبرية كلغة قومية عندما قدمت إلى البلاد أفواج الهجرة الثانية (1904-1915)، حيث بدأت هذه الهجرة طريقها بالتحدث باليديش¹⁶¹، ولكن سرعان ما تبدل الحال بسبب الضغوطات التي مارستها الشخصيات اليهودية، التي دأبت على عملية الإحياء اللغوي.

حرب اللغات

لا يتأتى نشر اللغة إلا بتعليم النشء الجديد لغة الأم، وعادة ما تلقى هذه المهمة على عاتق المؤسسات التربوية. فالتعليم بالعبرية كان في البداية صعبًا، إذ كانت تشرف عليه منظمات يهودية، وكانت كل منظمة منها تسعى إلى التدريس بلغة الأم، التي قدم منها المستوطنون. ففي المستوطنات الزراعية تم التدريس باللغة الفرنسية، وذلك بتأثير جمعية إيلانس (كل إسرائيل أصدقاء)¹⁶²، أو باللغة الألمانية بتأثير جمعية عزرا¹⁶³ (مساعدة يهود ألمانيا). وفي القدس تم التدريس، أيضًا، باللغة الإنجليزية.

¹⁶¹ أثناء الهجرات وقبلها ساد الخليط اللغوي لدى اليهود فتحدثوا بعدة لغات. إذ بالإضافة إلى العبرية والعربية، نجد اللادينو والبيديش والفرنسية والألمانية والروسية. يضاف إلى ذلك، اللغات التي ارتبطت بالحركات التبشيرية، التي انتشرت في فلسطين، مثل: الفرنسية، الإيطالية، الألمانية، الروسية، والإسبانية.

¹⁶² تأسست الجمعية عام 1860 في فرنسا، ووضعت نصب أعينها نشر الثقافة الفرنسية في الشرق. توجهت الجمعية إلى المركز الثقافي في بولندا لجعل اللغة الفرنسية لغة التدريس في المدارس اليهودية. وفي المدارس التي سيطرت عليها الجمعية كانت الفرنسية هي لغة التدريس، كما تعلم التلاميذ فيها العبرية والدين اليهودي.

¹⁶³ تأسست الجمعية في برلين عام 1901. أنشأت مؤسسات عديدة للتربية في فلسطين. أدى اندلاع الحرب العالمية الأولى إلى إيقاف نشاطها.

أصرت الحركة الصهيونية على التدريس بالعبرية، ولكن الجمعيات¹⁶⁴ المذكورة أعلاه لم تنصع لهذا القرار، كما ذكر كوهن وسيفان، الأمر الذي وُلد مصطلح מלחמת השפות "حرب اللغات" (سيفان، 1984: 99-114؛ Cohen, 1918)، التي وصلت ذروتها في السنوات 1913-1914 (سيفان، 1984؛ سبولسكي Spolsky، 1999، 61، 0022).

وصل الصراع ذروته حول لغة التدريس في المؤسسات التعليمية في السنوات 1913-1914، ففي سنة 1913 سيطرت اللغة الألمانية على اليهود في فلسطين، وحينئذ شُرع في حيفا بإنشاء التخنيون (معهد الهندسة التطبيقية) ومدرسة ثانوية (בית-ספר ריאלי חיפה) ومدرسة لتدريس العلوم التقنية. وفي 13/10/1913 اتخذ مجلس أمناء المشروع قرارًا بقي التدريس باللغة الألمانية، وذلك لإكساب المتعلمين الثقافة الغربية، لتسهيل الحصول على المعرفة.

اعترض الأعضاء الصهيونيون في المجلس على القرار الذي رأوا فيه ضربة قاضية لإحياء العبرية. وقدم هؤلاء الأعضاء استقالتهم من المجلس وتوجهوا إلى المربين وأعضاء نقابة المعلمين معلنين الإضراب في المستوطنات اليهودية. لم تكن الذرائع التي استخدمتها "شركة عزرا" لتغيير القرار وإنهاء الإضراب الصهيونيين عن مطلبهم. وفعلاً، في سنة 1914 أصبح التعليم بالعبرية قرارًا يلزم جميع المؤسسات اليهودية في فلسطين.

اتخذ سلوك اليهود في "حرب اللغات" طابع المقاومة القومية، إذ ولدت الأحداث، ولأول مرة في تاريخ اليهود المعاصر، تكوين الأمة اليهودية التي ارتكزت دعائمها على اللغة العبرية (رايين، 1976: 56). ويعتبر انتصار الصهيونيين في هذا الصراع، نقطة التحول التاريخية في إحياء اللغة العبرية، ففي سنة 1918 تأسست الجامعة العبرية على جبل المكبر (هارتسوفيم) في القدس، التي اتخذت من العبرية لغة للتدريس. وفي سنة 1919 تأسست

¹⁶⁴ أعطت جمعية "عزرا" أهمية أكثر للعبرية من جمعية "إيلانس"، إذ أنشأت هذه الجمعية رياض أطفال، تم تدريس العبرية فيها. (أغمون وألون، 1994: 39)

أيضًا في القدس الصحيفة اليومية "هآرتس" (أي البلاد أو الديار) بالعبرية، والتي ما زالت تصدر حتى اليوم.

جابهت العبرية مشاكل كثيرة في بداية تدريسها بالمدارس اليهودية، وخاصة النقص الحاد في المفردات الجديدة، كما يتضح من الوثائق التي تطرقت إلى هذه القضية في تلك الفترة (مقتطفات، 1970: 27):

أدى التحدث بالعبرية، الذي بدأ في أرض إسرائيل مع بداية إنشاء المستوطنات الجديدة، إلى ضرورة إيجاد مفاهيم عبرية مستمدة من الحياة اليومية العادية، والتي حتى الآن لم يجدوا لها مسميات في الأدب العبري، أو أنها لم تكن معروفة لدى غالبية القراء. وكلما ازداد التحدث بالعبرية وأخذ بالانتشار، ليس فقط في صفوف المثقفين، وإنما أيضًا لدى الجمهور، كانت ضرورة ابتكار المفردات ملحّة أكثر فأكثر. برز النقص في مفاهيم مختلفة بالذات عندما وضعوا الألفاظ العبرية في أفواه الأولاد الصغار، وبدأوا يعلمون في المدارس كل المواد التعليمية بالعبرية.

بفضل إصرار بن يهودا تطورت العبرية وأصبحت كثيرة الاستعمال تتماشى والحياة الحديثة، مثلها مثل باقي اللغات الأخرى. كما منحت سلطة الانتداب اليهود الاستقلالية التامة في تدبير شؤونهم التربوية والتعليمية (ريشف ودرور، 1999)¹⁶⁵، وقد ساهم هذا الأمر في

¹⁶⁵ كان للانتداب البريطاني دور مهم بالنسبة لليهود ولغتهم العبرية، بخلاف ما فعله اللغة العربية. فقد اعترف الانتداب بالعبرية كلغة رسمية في فلسطين، من جهة؛ ومن جهة أخرى، نجد من قادة الانتداب من أشاد بأهمية اللغة العبرية، وعلى رأسهم اللورد آرثور جيمس بلفور (1848-1930)، صاحب "وعد بلفور"، الذي تعاطف أيضًا مع اللغة العبرية قائلاً (بادربوش، 1967: 365) إنه بالرغم من عدم إجادته العبرية، فالعبرية هي لغة عظيمة، وتكفي الإشارة إلى أن الناطقين بالإنجليزية تربوا على الترجمة الإنجليزية للكتب المقدسة العبرية.

تنفيذ القرار الذي اتخذ من العبرية لغة التدريس الرئيسة في المدارس العبرية الناشئة، وفي تنامي الشعور القومي عند الحركة الصهيونية، والذي كُرس لإقامة الدولة العتيدة¹⁶⁶. في سنة 1922 اعترف الانتداب البريطاني بمرسومية اللغة العبرية، وقد نص بند 22 من صك الانتداب على ما يلي: الإنجليزية والعربية والعبرية هي لغات رسمية في فلسطين. وكل إعلان أو كتابة بالعربية على الطوابع البريدية أو العملات يجب أن يكتب مقابلها بالعبرية وبالعكس (مرحافيا، 1943: 214)¹⁶⁷.

ثمة من الباحثين من يؤكد (كرمي، 1997: 135) على أن الفضل في إرساء جذور العبرية لغة تدريس ولغة ثقافة، يعود إلى المستوطنين الجدد الذين قدموا في الهجرة الثانية. فقد اشتملت هذه الهجرة على شعراء وأدباء بنوا صرحًا ثقافيًا مهمًا، وعلى رأسهم الشعراء حاييم نحمانيك (توفي عام 1924)، الذي يعتبر الشاعر القومي الأول، إذ حث اليهود على الهجرة إلى فلسطين، وترجم راشد حسين ديوان شعره إلى العربية. والشاعر شاؤول تشارنيحوفسكي (توفي عام 1931) الذي كرس شعره لتمجيد طبيعة "أرض إسرائيل" وخاطب اليهود بهذا الشعار "ما الإنسان إلا قالب لصورة وطنه"¹⁶⁸. والأدباء أبرهام شلونسكي، يوسف عغنون وغيرهم.

¹⁶⁶ أما التعليم العربي فقد بقي تحت سيطرة الانتداب، وهذا بدوره أدى إلى تقليص حجم الميزانيات والسيطرة على مناهج التعليم، وجعل القوميين تحت مجهر الرقابة.

¹⁶⁷ اتخذ القرار في 24.7.1922 وأصبح ساري المفعول بتاريخ 29.9.1923. وبعد قيام الدولة عام 1948 أصبحت العبرية اللغة الأولى وتليها العربية، أما الإنجليزية فقد تم إلغاؤها مرسوميًا.

¹⁶⁸ استحدث تشارنيحوفسكي ألفاظًا استوحى بنيتها اللغوية من طبيعة البلاد، مثل أسماء النباتات والحيوانات وغيرها واستعملها في أشعاره بكثرة. وهدف من ذلك تعزيز القراء على طبيعة البلاد، وعلى حب جمالها.

يذكر فيشمان أن محاربة اللبديش بدأت في أوروبا في فترة إحياء اللغة العبرية (Fishman, 1991)، لأن هذه اللغة عملت على إبعاد اليهودي عن جذوره اللغوية. واستمرت محاربة اللغات، أيضاً، بعد قيام إسرائيل، وفي العقدَين الأخيرَين من القرن العشرين، حسمت المعركة نهائياً لصالح اللغة العبرية، الأمر الذي اقتضى تغيير التوجه اللغوي وتوظيف اللغة العبرية لبلورة بناء الشخصية الإسرائيلية على الأسس الاجتماعية، بينما تركز بناء الشخصية اليهودية في فترة الإحياء على المشاعر القومية.

ينبع سر بقاء اللغة العبرية قديماً من دوافع دينية، ويعود الفضل في ذلك إلى "كتاب التوراة"، الذي اشتملت مفرداته على "اللغة المقدسة"، وخيمت روحانيته على العبرية في فترة السبات. فكلما كان العنصر الديني قوياً لدى أبناء الطائفة، كان استعمال العبرية في الحياة اليومية أكثر (بادربوش، 1967). وأما بقاء العبرية وإحيائها حديثاً فهو نابع من دوافع قومية¹⁶⁹، فالحركة الصهيونية، كما ذكرنا، وظفت طاقات كثيرة لجعل العبرية لغة قومية، وتكملت مساعيها بالنجاح.

¹⁶⁹ ويشيد سافير (معاريف، 24.6.2005، نهاية الأسبوع، ص48) بالدافعية القومية التي تسعى للمحافظة على لغة الأم، وينصح بتعلم لغات أخرى لها علاقة بالتركيبة السكانية المحلية قائلاً: اللغات القومية فكرة جيدة، ويجب المحافظة عليها. وهذه بالتأكيد فكرة صحيحة، أن يحافظ الإسرائيليون على لغتهم. والوضع المثالي، أن يتحدث الإسرائيليون بالعبرية وأن يكتسبوا ملكة اللغتين الإنجليزية والعربية. أنا أعمل اليوم مع منظمة تعكف على تطوير دراسة الدماغ، ويقر باحثو الدماغ بأنه إذا ما استطاع الولد أن يتعلم عدة لغات، وأن يحافظ عليهن، فإن ذلك يساعده في تعلم مجالات أخرى. وللأسف، غالبية الأمريكيين لا يعرفون أكثر من لغة واحدة.

التشابه والاختلاف في إحياء العربية الفصحى والعبرية

عند معاينة إحياء العربية الفصحى والعبرية، نجد أن خطوطاً متشابهة جمعت بين اللغتين من حيث تحديث الألفاظ والظروف الخارجية، كما هو مبين في الجدول الآتي:

وجه الشبه	العربية الفصحى	العبرية الحديثة
الوازع الديني	حفظ القرآن الكريم والحديث الشريف العربية من الضياع	حافظت نصوص العهد القديم والمشناة والصلوات على العبرية
اللحمة القومية	الفصحى عامل موحد بين الناطقين بالعربية، والعامية تساهم في التفريق	العبرية المكتوبة عنصر جامع بين اليهود، واللغات المحكية عامل مفرق لهم
الصراع اللغوي	حدث صراع بين المحافظين التقليديين وبين المطالبين بتحديث العربية	ثارت حرب اللغات في مسألة التدريس بالعبرية
ظاهرة الأوربة ¹⁷⁰	العمل على تعريب المصطلحات ذات الأصول الأوروبية	عبرنة المفردات الأجنبية ¹⁷¹

¹⁷⁰ أي اتباع المعيار الأوروبي في إيجاد ألفاظ جديدة. هنالك تشابه بين العربية والعبرية في ابتكار المصطلحات اللغوية الجديدة: محاولة إيجاد جذور للمصطلح في المراجع القديمة، وإذا تعذر ذلك، اقترضوا اللفظة الأجنبية بطريقة التوسع الدلالي، أو ملاءمة اللفظة للمبنى المورفولوجي المتبع في لغة الهدف.

¹⁷¹ تأثرت كل من العربية والعبرية كثيرًا باللغات الأوروبية عبر استعارة وترجمة مصطلحات فنية وتقنية وعلمية تلائم الحياة الحديثة، تختلف هذه المصطلحات كليًا عن لغة الثقافة التقليدية في مفرداتها وبنيتها وتراكيبها في جميع المجالات الحياتية. يذكر أن العربية تأثرت أكثر من اللغة الفرنسية حتى الحرب العالمية الأولى وبعدها، ومن ثم كان الاعتماد أكثر على اللغة الإنجليزية. أما العبرية فقد تأثرت من الروسية والييديش والألمانية والإنجليزية. فيما يلي بعض التعبيرات اللغوية في العربية والعبرية المترجمة مباشرة من اللغات الأوروبية (بلاو، 1996: 298): أنقذ الموقف = הציל את המצב، طلب يدها = ביקש את ידה، سادت الفوضى = שררה אנדרمولסיה، قتل الوقت = הרג את הזמן، ذر الرماح في العيون = זרה חול בעיניים، يمثل الرأي العام = מייצג את דעת הקהל، البرج العاجي = מגדל שן، شهر العسل = ירח דבש، يعطي دروس = נותן שיעורים، يلعب بالنار = משחק באש، حجر عثرة = אבן נגף.

وجه الشبه	العربية الفصحى	العربية الحديثة
عصر الزمن	احتدم الصراع حول إرجاع مكانة الفصحى في القرن التاسع عشر	ابتدأت عملية الإحياء في القرن التاسع عشر وامتدت إلى إنشاء إسرائيل عام 1948
الحس اللغوي	الاعتماد على التعليم التقليدي	التعلم في إطار مدارس الكتاب
الدافعية لحياء اللغة	الدافع القومي لبناء أمة عربية موحدة	الدافع الأيديولوجي القومي الذي ربط بين إحياء اللغة وبناء إسرائيل
توحيد الألفاظ	تسعى المجامع اللغوية لتثبيت المفردات العربية لفظاً ومعنى	توحيد اللفظ العبري حسب اللفظة الأشكنازية وإلغاء اللفظ السفارادي

جدول رقم 4: وجه الشبه في إحياء الفصحى والعربية الحديثة.

بالرغم من الظروف المتشابهة التي ساهمت في إحياء اللغتين، إلا أن هنالك العديد من العوامل المختلفة بينهما، وهي:

أ. كانت العربية على مر العصور لغة مكتوبة ومحكية، بينما توقف التحدث بالعبرية لفترة طويلة.

ب. يتواصل العرب مع بعضهم جغرافياً، بينما يتوزع اليهود في بقاع مختلفة من الأرض.

ت. تطورت في العربية عدة لهجات وتوسع الاختلاف بينها مع مضي الزمن، وفي العبرية تكونت لغات يهودية حافظت على الحرف العبري.

ث. اعتمدت ثقافة العرب على الحضارة العربية العريقة المدونة في المراجع الدينية والأدبية، بينما ابتعد اليهود عن ثقافة الأجداد، وهذا بدوره عزز العنصر العلماني عند الكثير، باستثناء المجموعات ذات الصلة بالديانة اليهودية.

ج. إن الحس اللغوي متجذر لدى الناطقين بالعربية بسبب صلتهم الوثيقة بالعربية المحكية، بينما تربي اليهود على لغات شتى، الأمر الذي يسهل عليهم استيعاب اللغة العبرية المنبعثة من جديد.

ح. هنالك تشابه بين العربية الفصحى والعامية في كثير من المفردات والأصوات والتركيب، بينما الهوة شاسعة بين العبرية القديمة والعبرية الحديثة التي اعتمدت على الحضارة الأوروبية.

موقع اللغتين من خريطة العالم

تعتبر اللغة العربية التي تنفرد بحرف الضاد من أغنى لغات العالم في ألفاظها¹⁷²، وقد قام ابن منظور بجمع الألفاظ في العصور الوسطى في معجمه "لسان العرب" (ابن منظور، 1994)¹⁷³، الذي احتوى على حوالي ثلاثين ألف مادة، تم ترتيبها حسب الحرف الأخير. مع مضي الزمن، تطورت اللغة العربية واتسعت ألفاظها، وهي اليوم من أكثر اللغات انتشاراً في قارتي آسيا وأفريقيا، وتصل مفرداتها إلى حوالي 550 ألف كلمة¹⁷⁴.

يتحدث بالعربية أكثر من 350 مليوناً يعيشون في دول عربية وغير عربية¹⁷⁵، وهي تشكل لغة ثانية لحوالي 30 مليون نسمة، ويؤازرها أكثر من مليار مسلم في أنحاء متفرقة من الكرة الأرضية، كونها لغة القرآن، على الرغم من تعدد لغات المسلمين الأصلية (غانم، 1990:

¹⁷² ترجع تسمية العربية بـ"لغة الضاد" إلى القرن الرابع الهجري تمييزاً لها عن لغات الأقوام المجاورة للعراق. وتُعزى هذه التسمية إلى أنماط نطق حرف الضاد الصعبة إما منحرفاً تجاه اللام أو قريباً من الظاء أو الخلط فيما بينهما (الجيلاني، 1997: 126).

¹⁷³ سبقت محاولة ابن منظور محاولات كثيرة لجمع اللغة، مثل كتاب "العين" للخليل بن أحمد، و"جمهرة اللغة" لابن دُرَيْد، و"المجمع" للصاحب بن عباد وغيرهم.

¹⁷⁴ تعتبر الإنجليزية اليوم أغنى لغة في العالم إذ تصل مفرداتها حسب الإحصائيات الأخيرة إلى حوالي 620 ألف كلمة.

¹⁷⁵ في موزيتانيا تستخدم العربية كلغة رسمية أولى في الدولة.

15). وفي إسرائيل وتشاد¹⁷⁶ وجيبوتي وصوماليا، هنالك اعتراف بالعربية كلغة رسمية ثانية إلى جانب اللغات الرسمية¹⁷⁷.

وهنالك العديد من البلدان التي تكتب أحرف لغاتها بالرسم العربي وهي: ماليزيا وجاوة ومدغشقر وإيران وأفغانستان، والمقاطعات الناطقة بالأردية في كشمير وجامو والهند ودولة باكستان، والتي يدعي الجيلاني (1997: 105) أن العربية كادت أن تكون لغتها الرسمية عند الاستقلال، ولكن الحضور العربي تقاعس آنذاك ولم يحقق شيئاً.

كما ظلت تركيا تستعمل الأبجدية العربية حتى مجيء كمال مصطفى أتاتورك، الذي استبدل في عام 1924 الأبجدية العربية بالأبجدية اللاتينية، وذلك باستخدامه "سياسة التريك"،

¹⁷⁶ وعن وضع اللغة العربية في تشاد يقول حجازي (1998: 159): "أهم تجمع بشري يتعامل بالعربية في هذه المنطقة [القارة الأفريقية] موجود في تشاد، حيث يعيش حوالي 1800000 ممن يستخدمون اللغة العربية بوصفها اللغة الأم. والعربية في تشاد هي أكثر اللغات الوطنية انتشاراً، فآباء اللغات الأخرى يكونون مجتمعين حوالي 40٪ فقط من السكان، من هذه اللغات لغة سارو sarwa التي يتحدث بها نحو نصف مليون نسمة، ولغة كانوري kanuri التي يتحدث بها أقل من ثلث مليون. وهنالك لغات أخرى أقل عددًا. وبذلك تعد العربية أكثر اللغات الوطنية انتشاراً في تشاد، وعلى الرغم من هذا فاللغة الرسمية في تشاد هي اللغة الفرنسية".

¹⁷⁷ يذكر أن اللغة المالطية- التي يتحدث بها سكان جزيرة مالطة، والذين يربو عددهم على ثلاثمائة ألف - هي تطور عن اللغة العربية، بالرغم من أن هذه المنطقة تكاد تخلو من المسلمين. لغة الحديث فيها هي إحدى اللهجات العربية المغربية. ومنذ إعلان المالطية لغة رسمية للبلاد وتدوينها بالحرف اللاتيني، اتخذت هذه اللغة ذات الأصل العربي مساراً جديداً (المصدر السابق: 159-160). لقد زار أحمد فارس الشدياق مالطة ووقف على اللغة العربية ساعاً ومشافهة وسجل ذلك في كتابه قائلاً (الشدياق، 1299هـ: 66): "إن بقاء اللغة العربية في جزيرة مالطة ولو محرفة مع عدم تقييدها في الكتب دليل على ما لها من القوة والتمكن عند من تصل إليهم من الأجيال، ألا ترى أن مالطة قد تعاقبت عليها دول متعددة ودوا لو يحملون أهلها على التكلم بلغاتهم فلم يتهياً لهم وبقوا محافظين على ما عندهم فهم خلف بعد سلف".

واستبدال مفردات أجنبية بكثير من المفردات الإسلامية الراسخة في وجدانهم وثقافتهم¹⁷⁸.

يدعي دافيد كرسنال أن اللغة العربية تحتل المركز الخامس من بين اللغات العشرين التي تمثل القمة بالنسبة لعدد الناطقين بها¹⁷⁹ بوصفها اللغة الأم (اللغة الأولى). واللغات التي تسبقها هي التالية (Crystal, 1995: 287)¹⁸⁰:

- أ. الصينية: وتحتل المركز الأول، ويتحدث بها حوالي مليار من البشر.
- ب. الإنجليزية: ويتحدث بها حوالي ثلاثمائة وخمسين مليوناً.
- ت. الإسبانية: ويتحدث بها حوالي مائتين وخمسين مليوناً.
- ث. الهندية (لغة شمالي الهند الأدبية والرسمية): ويتحدث بها حوالي مائتي مليون.
- ج. العربية: ويتحدث بها حوالي مائة وخمسين مليوناً¹⁸¹.

¹⁷⁸ وفي هذا السياق يذكر الجيلاني (1997: 105) أن روسيا استعملت الأبجدية العربية طويلاً، وتحولت هي الأخرى إلى اللاتينية ثم عدلت عنها إلى السلافية.

¹⁷⁹ مجموع لغات العالم تقدر بحوالي 5000 لغة.

¹⁸⁰ تجدر الإشارة إلى أن هذه الدراسة أجريت عام 1995، وأن الأرقام الواردة فيها غير دقيقة في أساسها، وهي بالطبع غير ملائمة للعقد الأول من الألفية الثالثة بسبب الازدياد السكاني الملحوظ في هذه الفترة.

¹⁸¹ ويؤكد كرسنال أنه لدى تقدير عدد المتحدثين باللغة العربية بوصفها لغة رسمية يتراجع ترتيبها إلى المكان السابع، وتسبقها اللغات الآتية (Crystal, 1995: 287):

- أ- الإنجليزية: ويستخدمها مليار وأربعمائة مليون من البشر.
- ب- الصينية: ويستخدمها مليار من البشر.
- ت- الهندية: ويستخدمها سبعمائة مليون متحدث.
- ث- الإسبانية: ويستخدمها حوالي مائتين وسبعين مليون متحدث.
- ج- الروسية: ويستخدمها ما يقرب من مائتين وعشرين مليون متحدث.
- ح- الفرنسية: ويستخدمها ما يقرب من مائتين وعشرين مليون متحدث.
- خ- العربية: ويستخدمها مائة وسبعون مليوناً.

تعتبر العربية اللغة الأكثر تداولاً من بين اللغات الأفروآسيوية¹⁸² في عدد كبير من الدول العربية والإسلامية، وهي لغة المعاملات في عدد كبير من المنظمات الدولية والإقليمية والعالمية (حجازي، 1990: 102-103)، مثل: جامعة الدول العربية، منظمة الوحدة الإفريقية، منظمة المؤتمر الإسلامي، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة. في العام 1970 دخلت هذه اللغة منظمة اليونسكو. وبعدها دخلت إلى منظمة الأمم المتحدة¹⁸³ ومنظمة الأغذية والزراعة. يدل الاعتراف بالعربية كلغة رسمية في منابر دولية ومنظمات اجتماعية عربية، على عظمة هذه اللغة، ويعزز من مكانتها بين اللغات العالمية المعاصرة.

أما اللغة العبرية، فيستدل من معجم םאגא (كتاب أصول الشعر العبراني) للمؤلف راف سعادي غاؤون (سنة 920) أن مجموع ألفاظ العبرية هو حوالي 5200 مادة، رتبها غاؤون حسب الترتيب الأبجدي لجذور الكلمات (غاؤون، 1969). ومنذ تلك الفترة تضاعفت الألفاظ ووصلت إلى حوالي 37260 مادة، جمعها ابن شوشان في معجمه "القاموس الحديث" (1983: 1564/3). إن العبرية الحديثة آخذة بالازدياد، فقد وصل مجموع

¹⁸² تعرف هذه اللغات، أيضاً، باسم "اللغات الحامية السامية"، وهي أكبر مجموعة لغوية في شمال أفريقيا والطرف الشرقي منها، فضلاً عن جنوب غرب آسيا. تضم هذه المجموعة مائتي لغة، يتحدث بها ما يزيد عن مائتين وثلاثين مليوناً (فايد، 2003: 7).

¹⁸³ أقرت هيئة الأمم المتحدة اللغة العربية لغة معاملات ولغة رسمية للجمعية العامة في عام 1973 بموجب قرار الجمعية العامة رقم 3190 (د-28) المؤرخ في 18 ديسمبر عام 1973، ثم تساوت مع باقي اللغات المعتمدة فيها سنة 1979، وذلك بموجب قرار الجمعية العامة رقم 34/226 المؤرخ في 20 ديسمبر 1979. وبمقتضى قرار الجمعية العامة رقم 35/219 المؤرخ في 19 ديسمبر 1980 أصبحت من لغات المعاملات واللغات الرسمية للهيئات الفرعية للجمعية العامة. ثم اعتمدها مجلس الأمن والمجلس الاقتصادي والاجتماعي لغة معاملات ولغة رسمية. وأدخلت اللغة العربية في منظمة الأمم المتحدة للتنمية الصناعية (اليونيدو) في عام 1982 (المصدر السابق: 8).

ألفاظها في نهاية القرن العشرين إلى 90000 مادة رئيسية ومواد ثانوية وتعريفات وفقاً لمعجم سبير (أفنيژون، 1997).

وفي المقابل، فإن عدد الناطقين باللغة العبرية قليل جداً، إذا ما قارناه مع الناطقين بالعربية وباللغات الأخرى؛ فالناطقون بالعبرية هم: اليهود سكان إسرائيل وقسم من اليهود خارج إسرائيل بالإضافة للعرب الذين يعيشون في داخلها. يعود ضيق اللغة العبرية إلى عدة أسباب، نذكر منها:

أ- عدد الحروف العبرية هو 22 حرفاً¹⁸⁴ الأمر الذي يحد من مفردات هذه اللغة، ومن استعمالها. وقد اشتكى الأدباء اليهود في العصور الوسطى في الأندلس من قلة ألفاظ العبرية، ومن عدم استجابتها لكل المشاعر التي تختلج في قلب الأديب (مرعي، 2008).

ب- عدد اليهود قليل جداً مقارنة مع الشعوب الأخرى في العالم، وعليه تستخدم العبرية كلغة محلية وليست إقليمية.

ت- اعتبار العبرية لغة مقدسة، بحيث لا يفضل المتدينون تعلمها من غير اليهود. فهوية اليهودي مستمدة من العنصر الإثني اليهودي، وترتكز على الديانة والقومية واللغة. هذه الأسس الثلاثة، تحد من انتشار العبرية ومن الاهتمام بتعلمها، بل تجعلها مغلقة أمام الأمم غير اليهودية.

جعلت هذه العوامل العبرية، لمدة طويلة من الزمن، لغة محدودة بمفرداتها وغير معترف بها في المنظمات الدولية، واقتصرت استعمالها على المجمعات السكنية ذات الطابع اليهودي

¹⁸⁴ مقارنة مع عدد الحروف الإنجليزية الذي يصل إلى 26 حرفاً؛ والحروف العربية 28 حرفاً، علماً أن عددها من ناحية اللفظ (الصوت) هو 32 حرفاً.

المحض. والمنظمة الوحيدة في العالم التي اعترفت بالعبرية كلغة يسمح التحدث بها، أسوة بباقي اللغات المعترف بها، هي منظمة الأغذية والزراعة العالمية، وذلك عام 2002.

ولكن في الآونة الأخيرة، يلاحظ وجود تغيير جذري تجاه العبرية بسبب القوة العسكرية والسياسية التي حظيت بها إسرائيل في منطقة الشرق الأوسط، والدعم الذي تتلقاه من الولايات المتحدة الأمريكية والدول الأوروبية. لقد استغلت إسرائيل هذه المكانة، وبدأت تعمل على تعزيز مكانة العبرية في المنابر الدولية لجعلها جزءاً من الخارطة اللغوية في هذا العالم، وذلك بعد أن ترسخت جذور هذه اللغة ومكانتها بين سكان إسرائيل، على جميع فئاتهم الإثنية وشرائحهم الاجتماعية.

وقد انعكس التوجه الإيجابي نحو العبرية في الجوانب الثلاثة الآتية:

1- قبول العبرية في الاتحاد الأوروبي كلغة رسمية: في مطلع عام 2004 التأم برلمان "اليورو- ماد"، وهو هيئة منبثقة عن الاتحاد الأوروبي، والذي يضم في صفوفه أعضاء من إسرائيل وتركيا والمغرب وتونس والجزائر ولبنان، وأقر الاعتراف بالعبرية كلغة رسمية (معاريف، 13.2.2004: 10). ويعني هذا القرار، أن بإمكان الممثلين الإسرائيليين التحدث بالعبرية، بحيث تُترجم أقوالهم إلى اللغات الفرنسية والإنجليزية والعربية، كما وأن كل النقاشات المتداولة في البرلمان ستترجم إلى العبرية ترجمة فورية¹⁸⁵.

2- اعتراف الأمم المتحدة بإحياء اللغة العبرية: بمناسبة مرور 85 عاماً على وفاة إيلعيزر بن يهودا (1879-1922)، الملقب بـ "محيي اللغة العبرية"، اجتمعت الهيئة العامة لمنظمة

¹⁸⁵ ينص أحد قوانين مؤسسات الاتحاد الأوروبي على أن كل عضو ممثل دولة شريكة بالاتحاد يستطيع التحدث بلغة أمه. ووفق ذلك، فإن النقاشات داخل الاتحاد تترجم إلى اللغات الآتية: الفنلندية والهلندية والسويدية واليونانية، وإلى العربية والعبرية والتركية.

اليونيسكو¹⁸⁶ في باريس وقررت الاعتراف بشخص إلعيزر بن يهودا كشخصية جديرة بالتركيم على المستوى الدولي، ويستحق تخليد ذكره مكافأة على نشاطاته الجملة في إحياء اللغة المقدسة (يديعوت أحرونوت، 2.11.2007)¹⁸⁷.

3- إلقاء خطاب بالعبرية في تركيا لرئيس دولة إسرائيل: ألقى رئيس الدولة شمعون بيرس خطاباً باللغة العبرية يوم الثلاثاء 13.11.2007 في البرلمان التركي، وتلاه الرئيس الفلسطيني محمود عباس الذي ألقى خطاباً بالعربية. والجدير بالذكر أن هذه كانت المرة الأولى التي يلقي فيها إسرائيلي خطاباً باللغة العبرية في دولة إسلامية¹⁸⁸.

¹⁸⁶ اليونيسكو هي منظمة التربية والثقافة والعلوم التابعة لهيئة الأمم المتحدة.

¹⁸⁷ لقد أُلح هذا القرار صدور المسؤولين في وزارة المعارف والثقافة القائمين على مجمع اللغة العبرية، فقد أصدروا بياناً جاء فيه "إن النجاح غير المسبوق في إحياء اللغة العبرية، والذي يرتبط أكثر من أي شيء باسم إلعيزر بن يهودا، قُدّم كاقترح إلى اليونيسكو، أيضًا، على ضوء فعاليات اليونيسكو اليوم حول موضوع المحافظة على اللغات الإثنية القومية المهددة بخطر الانقراض. في سنة 2008- وهي السنة الستون لإنشاء إسرائيل والسنة المائة والخمسون لولادة إلعيزر بن يهودا- يعمل مجمع اللغة العبرية بمشاركة وزارة المعارف والثقافة وهيئات أخرى على تعزيز إنجازات اللغة العبرية ودعم مكانتها (يديعوت أحرونوت، 2.11.2007). وهذه المناسبة استطلع مراسلو صحيفة يديعوت أحرونوت رأي الجمهور الإسرائيلي حول مدى معرفتهم في شخصية إلعيزر بن يهودا، وتبين فيه أن غالبية الشباب لا يعرفون شيئاً عن هذا الرجل، وأما كبار السن فإن القليل منهم استطاع تشخيص هويته. فبينما تسعى إسرائيل جادة للحصول على اعتراف دولي بمسيرة إحياء اللغة العبرية، فإن الناطقين بها تنقصهم المعلومات الأولية حول هوية المؤسس.

¹⁸⁸ مكنت العلاقات الحميمة بين تركيا وإسرائيل رئيس الدولة من إلقاء هذا الخطاب. ولكن بعد شن الحملة العسكرية على غزة في مطلع عام 2009 تعكرت أجواء العلاقات الدبلوماسية بين البلدين على أثر مساندة تركيا لحركة حماس، وانتقاد إسرائيل لما فعلته من قتل للمدنيين والأطفال.

وختامًا لهذا نقول بأن العربية انفردت بالبقاء نطقًا وخطًا على مدى قرون عديدة؛ وإن هذا العمر المديد لم تعرفه لغات أخرى على مر العصور لا من العائلة السامية، التي تنتمي إليها العربية، ولا من اللغات القديمة كاللاتينية واليونانية والسانسكريتية. ويعود الفضل لهذا الخلود لكتاب الله عز وجل، القرآن الكريم، الذي كرم العربية بالنزول فيها¹⁸⁹.

وأما فيما يتعلق باللغة العبرية، فيعد إحيائها أكبر انجاز للشعب اليهودي في العصر الحديث. فهو لا ينطوي على الإحياء اللغوي فحسب، وإنما يعدى ذلك إلى دلالات وإحياءات رمزية تتركز في المحاور الثلاثة الآتية:

الأول: إحياء لغة ميتة يرمز إلى إحياء الشعب اليهودي وإلى إقامة دولة إسرائيل.

الثاني: تحوّل لغة مقدسة إلى لغة علمانية يشير إلى تقرب اليهودي من الثقافة الغربية التي سينافسها في المستقبل.

الثالث: انتقالها من لغة مكتوبة، إلى لغة مكتوبة ومحكية في الحياة اليومية، منتصرة بذلك على اللغات التي كانت تعرقل انتشارها، وموحدة الطوائف اليهودية تحت سقف قومي واحد.

¹⁸⁹ ويقول عز وجل: ﴿وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (الشعراء، 26: 192-195). كما وتعهد الله سبحانه وتعالى حفظه بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر، 9: 15).

الفصل الثالث

قضايا عصرية واجهت اللغتين

بعد جهود حثيثة، استطاعت اللغتان، العربية والعبرية، شق طريقهما حتى أصبحتا لغتين تلعبان أدواراً رئيسة في حياة الناطقين بهما. ويناقش هذا الفصل مدى تأثير القضايا العصرية المتشعبة التي واجهت العربية والعبرية في العصر الحديث، وكيفية التغلب عليها.

استحداث الألفاظ

ابتداءً من النصف الثاني من القرن التاسع عشر حدثت عدة تطورات في اللغة العربية لغة أم وكلغة تخاطب، وتبدلت أمور كثيرة في العالم العربي. من أهم القضايا التي واجهت العربية كانت قضية المصطلحات العلمية الحديثة، فقد استُحدثت في العربية مفردات لا حصر لها، ونقصت مفردات أخرى، وتحول حال اللهجات، فصارت لهجات بلدان لا لهجات قبائل (العلوي، 1997: 12)¹⁹⁰.

لم تكن ظاهرة اتساع اللغة العربية بالجديدة، فهي تلازم العربية منذ نشأتها، وفي عصرنا الحالي هنالك حاجة لتوسيع اللغة وذلك على ضوء التغيرات السريعة المستحدثة في هذا العالم. يذكر حجازي (1998: 49) أن عدة نقاشات دارت حول أسس وضع

¹⁹⁰ يذكر الحصري (1971: 45) أن استحداث الألفاظ كان متنوعاً: هناك الكثير من الكلمات استحدثت بطريقة مرتجلة على البديهة ووفقاً للظروف المعيشية؛ وهناك طائفة من الكلمات كانت موجودة سابقاً بشكلها الحالي لكنها اكتسبت معاني دلالية جديدة، تختلف عن معانيها الأصلية؛ وهناك كلمات اشتقت من أصول فصيححة، وأخرى مقتبسة من اللغات الأجنبية، كالفرنسية والإنجليزية والإسبانية والإيطالية، وذلك تبعاً للأوضاع السياسية التي مرت بها الدول العربية، إما بفعل الاحتلال أو المجاورة. وبالمقابل، قامت حركة معاكسة دعت إلى ترك الكلمات الأجنبية واستبدالها بكلمات عربية.

المصطلحات، وتم الاتفاق على الأسس العامة التالية لتنمية المفردات في اللغة العربية، وهي:

- الترجمة المباشرة: وذلك عند وجود الكلمة العربية المقابلة للكلمة الأوروبية. أمثلة على ذلك: نقل العلوم الأجنبية وتقنياتها إلى العربية، مثل: ذرة، كهرب، نواة، انشطار.
- الاشتقاق: ويعني اشتقاق¹⁹¹ كلمة من كلمة أخرى، وفق نمط قياسي معين¹⁹². أي عند عدم وجود كلمة دالة، هنالك إمكانية لاشتقاق كلمة عربية جديدة من وزن عربي ومادة عربية قائمة. وعمومًا، فإن الاشتقاق هو من أكثر الوسائل المتبعة في توسيع معاني العربية¹⁹³؛ أمثلة على ذلك: تبغدد من بغداد، براد من التبريد، ومن التلفون تلفن وتلفنة، ومن الدوبلاج دبلج ودبلجة.

¹⁹¹ ويعرفه عبد الله أمين "هو أخذ كلمة من كلمة أو أكثر مع تناسب بين المأخوذ والمأخوذ منه في اللفظ والمعنى جميعًا، وهذا التعريف يشمل جميع أقسامه" (لدى خسارة، 1994: 133). ويعرفه الجيلاني (1997: 273): "الاشتقاق هو كلمة أساسية ألصق بأولها سوابق أو بوسطها زوائد، أو بآخرها لواحق، ويمكن ردها إلى أصلها، والعثور عليها من المراجع".

يجب التأكيد على أن اللغة العربية تمتاز بكونها لغة اشتقاقية (Inflectional & Agglutinating) وإصاقية معًا، الأمر الذي يساهم كثيرًا في غزارة ألفاظها. بينما تعدّ اللغة الإنجليزية من اللغات التي تكثر فيها المفردات الانعزالية (Isolating Vocabulary) حيث يقابل "الفونيم" الواحد كلمة كاملة.

¹⁹² وفي ذلك يقول ابن فارس (1963: 33): "أجمع أهل اللغة - إلا من شذ منهم - أن للغة العرب قياسًا وأن العرب تشقّ بعض الكلام من بعض، وأن اسم الجن مشتق من الاجتنان، وأن الجيم والنون تدلان أبدًا على الستر: تقول العرب للدرس جنة وأجنة الليل، وهذا جنين في بطن أمه. وأن الأئس الظهور، يقولون آئتس الشيء أبصرته، وعلى هذا سائر كلام العرب، علم ذلك من علم وجهله من جهل".

¹⁹³ هنالك أنواع كثيرة من الاشتقاق في العربية. للمزيد انظر: حماد (1983: 17-28)؛ خسارة (199: 133-150).

• التغير الدلالي: وذلك عند وجود كلمة عربية قديمة لمعنى تعبر عن معنى حديث¹⁹⁴؛ أمثلة على ذلك: القطار، السيارة، الطائرة¹⁹⁵.

• التعريب: وذلك باقتراض اللفظ الأجنبي واستخدامه في اللغة العربية في حال تعذرت الحلول السابقة. أمثلة على الكلمات المعربة التي استعملها المعاصرون: أيديولوجيا، بيروقراطية، الميكنة، تأدليج، مؤدليج، تكنولوجيا، ديموقراطية، تلفون وغيرها¹⁹⁶. أوضحت هذه المفردات دارجة في الاستعمال اليومي، بالرغم من اجتهاد علماء اللغة في إيجاد المقابل لها في العربية¹⁹⁷. وبهذا السياق يرى الكثير من الكتاب من أنصار

¹⁹⁴ يخضع هذا التجديد اللغوي إلى علم دلالة الألفاظ (Semantics)، والذي يعنى بدراسة العلاقة بين الرمز اللغوي ودلالته والشروط التي تمكنه من حمل المعنى، وتعداد المعاني ومشكلات الألفاظ المفردة أو الجمل والعبارات، وتبدل المعنى وأسبابه، وعلاقته منذ نشأة الكلمة وتطور وظائفها وتركيبها وأساليبها ومعانيها.

¹⁹⁵ التغير الدلالي لهذه الكلمات هو على النحو الآتي (عبد العزيز، 1996: 121): القطار: في الفصحى القديمة كانت تعني عدد من الإبل تسير على نسق خاص، وحديثاً- مجموعة من العربات على السكة الحديدية تجرها قاطرة؛ السيارة في الفصحى القديمة كانت تعني القافلة، وحديثاً- عربة آلية سريعة السير تسير بالبنزين ونحوه، وتستخدم في الركوب أو النقل؛ الطائرة في الفصحى القديمة صفة لمؤنث، وحديثاً - اسم لمركب آلي على هيئة الطائر يسبح في الجو ويستعمل في النقل والحرب.

¹⁹⁶ على سبيل المثال، كلمة "تلفون" كانت حصرية في دلالتها للتعبير عن الاتصال بين الناس عبر الساعة. ولكن بعد اختراع الهاتف النقال، اكتسبت الكلمة دلالة جديدة، فأصبح يطلق على الهاتف "أرضي"، وعلى النقال "محمول".

¹⁹⁷ ولنضرب على ذلك مثلاً، لفظة "سيجارة"، التي تم تعريبها إلى "لغة تبغ". فهذا المصطلح الجديد لا يروق للمدخنين، ويفضلون استعمال سيجارة، وهي الدارجة على الألسن في جميع أقطار الوطن العربي. وهذا يعني أن التعريب قد يغني عن الكلمة الغربية الأصلية، وأن الكثير لا يرون عيباً في ذلك إذا كانت اللفظة تفي بالمعنى المطلوب.

الاقْتِباس أن معجم اللغة عجز عن إسعافهم، وفي بعض الأحيان يلتبس لهم العذر في استعمالهم المصطلح الغربي.

وعلى هذه الأسس المذكورة استخدمت، أيضًا، الطريقتين الآتيتين لاستحداث الألفاظ:

• النحت والتركيب: استخراج كلمة واحدة من كلمتين أو أكثر¹⁹⁸: برمائي، رأسمالي، قبتاريخ (قبل التاريخ)، كهربيسي (كهربائي مغناطيسي)، قطشرة (قطع الشرايين)، فسكر (فحم السكر).

• إحياء الأدباء والعلماء لبعض الكلمات المهجورة في اللغة، مثل: مفازة، فيافي، اليم.

إن عدد الألفاظ الأجنبية الدخيلة في اللغة العربية قليلة إذا ما قيس بالألفاظ العربية التي دخلت اللغات الأخرى. وعادةً ما يتم إدخال اللفظ الأعجمي ضمن المعجم العربي بقالب عربي، فيصقل ويصاغ وفق قوالب الأوزان العربية، ويخضع لأبنيتها.

يقوم المهتمون في كل لغة يتم انبعاثها من جديد، بإحيائها باستخدام جميع الوسائل لتوسيعها حتى تلبي احتياجات الناس اليومية، وإلا فإن الناس يفضلون البقاء على لغة أمهم، غير مهتمين بالدفاعية القومية. لقد أدرك القائمون على إحياء العربية هذه الحقيقة واتبعوا عدة طرائق في استحداث الألفاظ خلا فترة الإحياء، نذكر منها:

• ألفاظ مركبة من كلمتين مثل: مسيلات برزيل (= سكة حديد)، يمي هيينايم (= العصور الوسطى).

• استعمال النحت اللغوي مثل: ركيفل (= القطار الهوائي).

¹⁹⁸ ظاهرة النحت وردت في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ﴾ (الانفطار 82: 4). إن كلمة "بعث" منحوتة من "بعث وأثير" أي بعث ما فيها وأثير تراها (اليسوعي، 1929: 5). عن النحت انظر المادة التي أوردناها في الفصل الأول.

• استحداث معانٍ لألفاظ قديمة وردت في التوراة: غاؤون معناها الأساسي لقب لرئيس مدرسة دينية، واكتسبت دلالة جديدة (= عبقرى).

• توسيع معنى الكلمة، مثل كلمة "حشمال" التي تعني معدن، وأصبحت تعني (= كهرباء).

• تكوين كلمات تركز على اللفظ الصوتي المشتق من الكلمة الأجنبية، مثل: بوبا في الفرنسية (وتعني دمية)، برطي كول (= بروتوكول) أي محضر الجلسات، حولي راع (= الكوليرا).

تسعى هذه الوسائل المتعددة إلى ملاءمة الدخيل إلى العبرية. وقد شكلت هذه المحاولات النواة لإثراء ألفاظ العبرية في مرحلة الانتقال، وما زال أثرها فاعلاً على التجديد اللغوي حتى اليوم.

وحديثاً، اتخذت طرائق شتى في سبيل "عبرنة اللغة العبرية": اشتقاق مفردات من اللغة اليهودية التاريخية (التوراة والمشناة)، ومن اللغات السامية القريبة منها، كالعربية والآرامية، ومن اللغات غير السامية - اللغات الأوروبية، وخاصة اللغة الإنجليزية. وفي الآونة الأخيرة، هناك تأثير واضح من اللغة الروسية في أعقاب الهجرة الهائلة والمتتالية من الاتحاد السوفيتي سابقاً، بالإضافة إلى مفردات نتجت من التعامل اليومي داخل الدولة العبرية نفسها (شليز نغر، 1994).

تمتاز العبرية بقدرتها على استيعاب كلمات جديدة من اللغات الأخرى دون عائق، وذلك من خلال وضع المفردات في قوالب صرفية مألوفة في اللغة العبرية، أمثلة على ذلك (قبيلي، 1991: 38-40):

موزيكا (= موسيقى)، إنفورماتسيا (= معلومات)، تلفون (= هاتف)، أوتوماتي (= أوتوماتيكي)، بنك (= مصرف)، سالون (= صالون). ومما يساعد في تنويع الكلمات انتشار الجاليات اليهودية في جميع أنحاء العالم.

هنالك مفردات اقترضتها العبرية قديماً من اللغات الأخرى، ثم أصبحت جزءاً لا يتجزأ من مخزونها اللغوي، دون أن يعرف المتحدث أو يشعر بأن جذورها تعود إلى أصول ليست عبرية¹⁹⁹. وبالمقابل، هنالك مفردات يشعر المتحدث بأنها كلمات غريبة²⁰⁰ في بنيتها الصوتية والصرفية وفي مقاطعها (نير، 1993: 30-37).

وحول التطورات التي طرأت على العبرية في السنوات الأخيرة، يدعي روبيك روزنتال (2004: 6) أنه خلال السنوات الأخيرة، تبلورت ثلاثة اتجاهات في مسيرة العبرية المعاصرة: تغلغل ألفاظ دخيلة من اللغة الإنجليزية في جميع المجالات الحياتية والمهنية؛ تطور متسارع في لغة الجيش، التي شكلت عاملاً مهماً في الرصيد اللغوي²⁰¹، وكثرة الألفاظ العامية والتعابير المختصرة²⁰².

¹⁹⁹ أمثلة على ذلك: ספר = كتاب، מחו = لواء (وهي أكادية الأصل)؛ גבר = محاسب، סדר = بيرة (من الفارسية)؛ סנדל = صندل، אקלים = إقليم (من اليونانية)؛ ויק = صرصور (من الروسية)؛ בייגלה = بيغلة (من البيديش)؛ פלח = فلاح (من العربية).

²⁰⁰ ومن هذه الكلمات: רדיו = راديو، מזיא = فمزياع؛ פמני = نسوية؛ אסיסטנט = معيد.

²⁰¹ هذا التطور وليد المجابهة المعقدة مع الفلسطينيين، والتي أدت إلى ابتكار عمليات واستراتيجيات هجومية ودفاعية جديدة ساهمت في بلورة لغة (سياسية-عسكرية) جديدة واسعة النطاق. انظر أمانة ومرعي (2008: الفصل الثالث).

²⁰² للجيش دور كبير في ابتكار الألفاظ العامية، إذ يواصل الجنود بعد تسريحهم التحدث بهذه اللغة، والتي تصبح بمضي الوقت ملكاً لجميع الناطقين بالعبرية (نويمن، 2001). وتمتاز لغة الجيش أيضاً باختصار المصطلحات العسكرية، مثل: מטכ"ל: המטה הכללי - رئيس هيئة الأركان العامة، חש"ן: חיל

يلاحظ، أن اللغة العبرية الحديثة تسير في اتجاه الركافة، فالناطقون بها يفضلون استخدام ألفاظ محدودة تتكرر فيها كلمات وأفعال وصفات معينة. ويؤكد ناتان زاخ (1998: 3) على أن وضع العبرية سيء للغاية بسبب عاملين رئيسيين:

أولهما- سيطرة اللغة الأجنبية محدثةً وكتابةً في الحديث اليومي وفي لافتات الحوانيت. فبالرغم من أن المجمع اللغوي يصادق ويحث على استعمال المرادفات العبرية المستحدثة للكلمات الأجنبية، إلا أن الناس يفضلون مواصلة استعمال اللفظ الأجنبي.

وثانيهما- اتساع نطاق اللغة العامية، والابتعاد عن اللغة الأدبية. على سبيل المثال، تسمع الجملة "شاهدت فيلماً، خسارة على الوقت" ראיתי סרט, חבל על הזמן. التعبير "خسارة على الوقت"، يعني أن الفيلم كان شائعاً للغاية، ولا حاجة للإطالة في الشئ عليه، لأنه خسارة على الوقت²⁰³.

השריון - سلاح المدرعات, מזל"ט: מטוס זעיר ללא טיס: طائرة صغيرة بدون طيار, מ"פ: מפקד פלוגה - قائد كتيبة وغيرها.

²⁰³ هنالك الكثير من التعابير اللغوية الدارجة بالعبرية مترجمة من الإنجليزية يستخدمها المتحدثون دون أن يعرفوا جذورها. أمثلة على ذلك التعابير:

عبري	إنجليزي	عربي
לאכול כמו סוס	eat like a horse	يأكل كالحصان
כמו תפוח אדמה לוהט	like a hot potato	مثل حبة البطاطا الحارة
לשבור את הקרח	break the ice	يكسر الجليد
מה אוכל אותך	what's eating you	ماذا يضايقك؟
עושה גלים	make waves	يعمل أمواج
תן לי צלצול	give me a ring	اتصل بي

جدول رقم 5: نماذج من تعابير لغوية دارجة بالعبرية مترجمة من الإنجليزية

(للمزيد من التعابير انظر روزنتال، 2004: 15).

التأثير في لغات أخرى

بعد الفتوحات الإسلامية اكتسحت العربية اللغات التي كانت منتشرة آنذاك، وهي الآرامية والسريانية واليونانية والفارسية واللاتينية والقبطية. وقد حل الخط العربي والأبجدية العربية محل خطوطها وأبجدياتها، وأصبحت جزءاً أساسياً من اللغة اليومية في حياة الناس. الجدير بالذكر أن تغلغل الدخيل العربي في هذه اللغات يثير الفضول لدى الباحثين في هذا المجال، ففي دراسة إحصائية مقارنة للمفردات العربية المبثوثة في اللغات الآسيوية توصل حسين محفوظ إلى الحقائق الآتية (محفوظ، 1981: 215):

درستُ أثر العربية في اللغات الشرقية خاصة، وأحصيت نسبتهما، وهي: في الفارسية 60.67٪، وفي التركية 65.30٪، وفي الأردية 41.95٪، وفي التاجيكية 46.39٪، وفي الأفغانية 56.99٪.

اللغة الإنجليزية هي من أكثر اللغات التي اقترضت مفردات من العربية²⁰⁴. ولنضرب على ذلك أمثلة من جسم الإنسان: body - بدن، neck - عنق، eye - عين، hand - يد. ويؤكد فروكمان ورودمان على أن الإنجليزية اقترضت من العربية ألفاظاً تتصل بالعلوم الكيميائية والرياضية والفلكية (Fromkin & Rodman, 1978: 113) مثل: Alcohol - الكحول، Cipher - صفر، Algebra - الجبر، Sirius - الشعري، Rastaban - رأس الثعبان، Arad - أرض، Azure - أزرق، Cube - كعب، Cable - حبل، وإلخ²⁰⁵. ومع الوقت، اقترضت العربية عدداً كبيراً من الألفاظ الإنجليزية، واتسعت هذه الظاهرة في العصر الحديث.

²⁰⁴ وكان التأثير واضحاً لدى كل من كتب عن الحروب الصليبية (زهران، 1981: 29-32).

²⁰⁵ يلاحظ أن كلمتي "الكحول" و"الجبر" احتفظتا أيضاً بال التعريف العربية، الأمر الذي يثبت بشكل قاطع الأصول العربية لهما. وللمزيد عن التسميات والمفردات العربية التي دخلت إلى اللغات الأوروبية، لا سيما الإنجليزية والفرنسية؛ انظر القائمة التي أعدها الجيلاني، 1997: 239-248.

أما بخصوص العبرية، فهي لغة محدودة بحكم كونها لغة الشعب اليهودي، وبحكم كون انتشارها بين غير اليهود محصوراً للغاية. ولكن، في هذه الأيام يتم تصدير العبرية إلى خارج حدود إسرائيل من خلال العمال الأجانب، خاصة وأن معظمهم كانوا قد اكتسبوا معرفة معينة بالعبرية لدى عودتهم إلى بلدهم الأصلي. فالعبرية تشكل لغة التواصل بين العمال الأجانب القادمين من بلدان مختلفة، والذين يطعمون لغتهم بألفاظ منها ناجمة من نوعية المهنة، فالعاملون الذين تتطلب مهنتهم معلومات معقدة اكتسبوا طلاقة عالية بالعبرية، بينما العمال الذين يؤدون وظائف بسيطة فإن عبريتهم بسيطة، وتقتصر على تلبية حاجاتهم اليومية (هاراتي وإلحان - غرانيك، 2002: 209).

التأثر باللغة الإنجليزية

تتطور اللغة الحية وتتغير بسرعة دون أي رقابة، وتقع تحت وطأة التأثيرات الخارجية. تعد الإنجليزية من أكثر اللغات التي أثرت باللغات الحديثة، فقد أضحت الأوسع انتشاراً ونفوذاً من بين كل لغات العالم وفي كل الأزمان، مواكبة بذلك الحضارة الغربية والعولمة²⁰⁶. ولنضرب على ذلك أبسط الأمثلة في العربية والعبرية، فقد أصبحت المكالمات في الهاتف تبدأ بالكلمة "هالو" بدلاً من الكلمة العربية "نعم" أو "כן" بالعبرية، جواباً لمن أدار قرص الهاتف وبدأ بالاتصال. وتنتهي الكلمة الإنجليزية "باي" بدلاً من اللفظ العربي "مع السلامة" أو العبري "שלום" "شالوم"، إشارة إلى انتهاء المكالمات الهاتفية²⁰⁷.

يفخر كثير من العرب بلغة الغير، حتى صار من الموضة عند كثير منهم أن يخلط لغته

²⁰⁶ ويؤكد الخبراء على أن أكثر من 75٪ من المواقع على شبكة المعلومات الدولية مصممة باللغة الإنجليزية.

ثمة 429 مليون مستخدم للإنترنت في 8 دول غنية، مقابل 444 مليون في باقي دول العالم.

²⁰⁷ من المفردات الإنجليزية الشائعة في اللغتين العربية والعبرية لفظة "أجندة" التي تستخدم في مجالات شتى.

بالإنجليزية والتباهي بترداد مفرداتها. وحول المبالغة في استعمال اللغة الإنجليزية في الدول العربية²⁰⁸ يذكر محمد الملا (1995: 26) الحقيقة الآتية:

حينما كنا في الخارج للدراسة، وبالتحديد في البلاد الناطقة باللغة الإنجليزية (مثل أمريكا وبريطانيا) كنا نلاحظ ظواهر غريبة فيما يتعلق باستخدام اللغة العربية. من هذه الظواهر - مثلاً - أن عددًا من الدبلوماسيين والمبعوثين الدوليين من العرب، يكتبون تقاريرهم التي يبعثونها إلى بلادهم باللغة الإنجليزية. هذا الأمر يحتم على الموظفين العرب الذين يتلقون هذه التقارير الاستعانة بمرجمين لنقل لغة التقارير من الإنجليزية إلى اللغة العربية.

وفي الدراسة الميدانية التي أجراها الملا (1995: 28-31) لمعرفة مدى استخدام المثقفين العرب في الدول الأجنبية اللغتين العربية والإنجليزية فيما بينهم (أي ثنائية اللغة)، اتضح أن التحدث بالعربية يكون بنسبة عالية في أمور الحياة اليومية، بينما يفضل 61% من أفراد العينة التحدث بالعربية في المناقشات السياسية والاقتصادية والموضوعات العلمية، و 39% باللغة الإنجليزية. أما بخصوص الدراسات والأبحاث العلمية فيفضل أفراد العينة استخدام العربية فقط بنسبة 13%، في حين حصلت اللغة الإنجليزية على 87%²⁰⁹.

²⁰⁸ ينتشر استعمال المفردات الأجنبية في الكتب العربية في مادة التربية والعلوم. على سبيل المثال، في كتاب "صعوبات التعلم في اللغة العربية" لمحمد عبد المطلب جاد - الذي يتناول أسباب الصعوبات والضعف في اكتساب ملكة اللغة العربية؛ يستخدم الكاتب نفسه المصطلحات الأجنبية في شروحاته المستفيضة في الكتاب. وفيما يلي المفردات الأجنبية بالعربية التي وردت لديه في صفحة واحدة، ناهيك عن الكتابة المباشرة للمصطلحات باللغة الإنجليزية (جاد، 2003: 103): الوعي الفونيمي، أصحاب الدسلكسيا، مقاطع أو فونيمات، أكواد (تشفيرات)، تكنيكات التصوير، استخدام الكمبيوتر.

²⁰⁹ ويعلل الملا (1995) استخدام الإنجليزية على أنها لغة الدراسة الأكاديمية والبحث العلمي واتصافها بمعايير "العلمية"، و"الحداثة" و"الحياة". لقد ساهمت اللغات الأجنبية في كل فرع من الفروع الإنسانية، مما جعلها تتضمن المصطلحات التي تغطي كل التخصصات التي يحتاج إليها الباحث في جميع مجالات العلم والمعرفة.

وفي دراسة أخرى، أشرفت عليها ريمة الجرف (2004) وهدفت إلى التعرف على مواقف الطلاب حيال استخدام اللغتين العربية والإنجليزية في الجامعة الأردنية، وجامعة الملك سعود في العربية السعودية، من خلال استبانة وُزعت عليهم. شارك في الدراسة 272 طالباً يدرسون الطب والهندسة وعلم الحاسوب في الجامعة الأردنية، و470 طالباً متخصصين باللغات في جامعة الملك سعود. أفرزت نتائج البحث المعطيات الآتية:

1- أعرب 45٪ من المشاركين في الاستطلاع، من كلا الجامعتين، عن استعدادهم بأن يرسلوا أبناءهم للتعليم في مؤسسات يتم التدريس فيها بالإنجليزية ابتداءً من الأول الابتدائي.

2- ادعى 96٪ من الطلاب الأردنيين و 82٪ من الطلاب السعوديين أن اللغة العربية ملائمة لتدريس المواد الإنسانية والاجتماعية، بينما مواضيع الطب والهندسة والعلوم والحاسوب ينبغي أن تُدرس بالإنجليزية.

3- تعتقد نسبة عالية من المُستطلّعين أن الإنجليزية أفضل من العربية، بذريعة أن العربية تفتقد المصطلحات العلمية، وأن قواعد العربية صعبة تعيق من فهمها وإتقانها.

في إسرائيل، كانت الإنجليزية في البداية مرتبطة ارتباطاً مباشراً بالاستعمار البريطاني²¹⁰،

²¹⁰ على سبيل المثال، في بداية قيام إسرائيل استعير الكثير من المفردات الخاصة بلعبة كرة القدم من اللغة الإنجليزية بتأثير مباشر من الانتداب البريطاني. وفيما بعد، استبدلت تلك المفردات بألفاظ عبرية، كما هو مبين في النماذج الآتية:

اللفظة	الكلمة باللغة الإنجليزية	البديل العبري
كرة قدم	فوطبول	كدور ريغل
هدف	غول	شاعر
خطأ باليد	هانس	ياد
لعبة كرة اليد	تو كامب	مخانيم

جدول رقم 6: مفردات عبرية خاصة بلعبة كرة القدم وغيرها في فترة الانتداب البريطاني واليوم.

واهتم الانجليز في مواطن استعمارهم بتدعيم لغتهم كلغة كولونiale.²¹¹ وبعد عام 1967 تزايدت الروابط السياسية والاقتصادية والعسكرية مع الولايات المتحدة، وأصبحت الإنجليزية لغة مشتركة لتصريف شؤون هذه الروابط²¹². فالإنجليزية تشكل وسيلة تواصل مع الناطقين بلغات أخرى، جنباً إلى جنب مع العبرية.

تشير الدراسات التي أجراها كوبر (Cooper, 1985) إلى أن غالبية الإسرائيليين يبدون مواقف إيجابية نحو معرفة اللغة الإنجليزية، ويتحمسون لتعلمها، ويستغلون كل فرصة للتواصل مع المتحدثين بها، ويؤكد على ذلك، أيضاً، بيرنارد سبولسكي (Spolsky, 1996a). فالسواح والعمال الأجانب يستخدمون عادة لغتهم الأم، وحين لا يستطيعون استخدامها دون أن يعرفوا العبرية، فإنهم يحاولون التخاطب بالإنجليزية كلغة مشتركة، كما بين ذلك سبولسكي وشوهمي في كتابهما (Spolsky & Shohamy, 1999).

تجدر الإشارة إلى انعكاس المكانة العالية التي تحظى بها الإنجليزية في العالم عامة، وفي إسرائيل خاصة؛ جلياً في السلوك اللغوي لدى اليهود المهاجرين من الدول الناطقة باللغة الإنجليزية (ألفي - شبتاي، 1999: 116). يعترف هؤلاء المهاجرون بلغتهم الإنجليزية،

²¹¹ أي تحويل لغتهم إلى اللغة الأولى في البلدان التي وقعت تحت سيطرتهم، بالرغم من أن عدد المشرفين على تسيير سلطتهم في هذه البلاد كان محدوداً للغاية. وتأكيداً على ذلك، في عام 1947 بعث ونستون، المندوب السامي في فلسطين برسالة إلى أحد الوزراء في بريطانيا يسأله هل يدعم العرب أم اليهود؟ فأجابه: ادم من يتقن اللغة الإنجليزية. على أي حال، انتقلت هذه الكولونiale مؤخراً من الإنجليز إلى الأمريكان تحت مسمى موه جديد يُدعى "العولمة".

²¹² يُنظر إلى معلمي اللغة الإنجليزية على أنهم ذوو مكانة اجتماعية عالية من حيث معرفتهم هذه اللغة، والثقافة العالية التي اكتسبوها من الأوروبيين. والمعلوم أن ثلاثة أرباع العالم وقع تحت سيطرة الأوروبيين في وقت من الأوقات، ولذا عندما يغادر الاستعمار، فإن السكان الأصليين لا يستطيعون التحرر من مخلفات المستعمر، ومن لغته وثقافته، إلا بعد فترة طويلة، كما حدث في دول شمال أفريقيا العربية، التي وقعت تحت نير الاستعمار الفرنسي.

بخلاف المجموعات الإثنية المهاجرة من روسيا وأثيوبيا²¹³؛ وذلك لأنهم يستفيدون من لغتهم، ويحظون بمكانة هامة في إسرائيل. وعلى ضوء ذلك، يؤكد بن رفائيل بأن هذه المجموعة تهتم باستمرارية التحدث باللغة الإنجليزية في البيت مع الأولاد وبين أفراد المجموعة إلى جانب تعلم اللغة العبرية (Ben- Rafael, 1994).

تعد اللغة الإنجليزية، وفق السياسة التربوية لوزارة المعارف في إسرائيل، لغة أجنبية أولى مهمة، يتوجب تعلمها كمادة إلزامية في جميع المراحل التعليمية (وزارة المعارف، 1996). وتعود أهمية معرفة الإنجليزية إلى كونها أداة اتصال دولية وأداة للتعليم في الجامعة وللاتصال مع العالم الخارجي بواسطة الحاسوب. ويدعي بن رفائيل (Ben- Rafael, 1994) أن الإسرائيليين يعتقدون بأن الإنجليزية لغة جميلة وغنية بالمفردات، وتمتاز برنينها الموسيقي. فالعبرية استعارت مفردات عديدة من الإنجليزية، تمت عبرتها، وهي مدونة في المعاجم الأكاديمية العبرية.

وتذكر قنطور (1994) أن العبرية تستعير كلمات كثيرة من الإنجليزية، وأن هذه الكلمات تسد مكان المفردات الناقصة بالعبرية، من جهة؛ ومن جهة أخرى، تساهم هذه المفردات في اتساع معجم اللغة العبرية. من هذه المفردات: ארכיאולוגיה = علم الآثار، מודרניזציה = العصرية، מקסימום = الحد الأعلى، מינימום = الحد الأدنى، דרמה = دراما وغيرها. إن الدخيل الانجليزي في العبرية واسع الانتشار في مجالات الترفيه والتسويق والدعايات التجارية والسياسية²¹⁴.

²¹³ لا تحظى لغتا هاتين المجموعتين بمكانة عالية، ولا يمكن الاستفادة منها على الصعيد الدولي، وعلى هذا الأساس، فإنه من السهولة بمكان التنازل عن لغاتها على المدى البعيد.

²¹⁴ على سبيل المثال، في فترة الانتخابات يروج استخدام ألفاظ برايميرز (الانتخابات التمهيدية)، ودليم (صفقات) في التقارير الصحافية. وفي البرامج الترفيهية تجد المفاهيم اللغوية إنجليزية الأصل، مثل: رايتنج، سوبر ستاريم، توك- شاو، ستاند- أب- قومديس وغيرها (قنطور، 1994: 21).

يسعى مجمع اللغة العبرية إلى عبرنة الدخيل من المفردات الإنجليزية، ولكن الإسرائيليون يفضلون استخدام اللفظة الإنجليزية، متجاهلين المفردات العبرية التي أقرها المجمع. وفي ذلك تقول أور هشفارتسيلد (1998: 51):

التباهي باستخدام ألفاظ إنجليزية أصبح اليوم من مجريات الموضة، والغاية من ذلك خلق انطباع إيجابي في نفوس المستمعين بغية الرفع من مكانة المتحدث والنظر إليه بأنه ينتمي إلى مجموعة اجتماعية تمتاز بالرقى الحضاري. وفي المجالات المهنية، فإن هذا الأمر مقبول أكثر، خاصة وأن المصطلح مستقى في أساسه من اللغة الأجنبية. أما في المجالات غير المهنية، فإن تدبيح مفردات أجنبية بالعبرية المحكية له رسالة اجتماعية واضحة: أنا أنتمي إلى مجموعة تمتاز بمكانة اجتماعية مرموقة، أحسن صنيعة في استخدام المفردات الأجنبية مكان المفردات العبرية العادية.

يدرك اليهود مواليد دولة إسرائيل، الذين اكتسبوا العبرية كلغة أم، بأن العبرية لا تكفي وحدها للتعبير عن المتطلبات والاحتياجات المتطورة الحديثة في هذا الكون. وتؤكد شوهامي (1996) وبن رافايل (Ben- Rafael, 1994) على أن الاندماج في مجتمع متحضر، والحصول على وظائف عالية في السلك الدبلوماسي²¹⁵، وتنمية علاقات تجارية وأكاديمية، هي أمور صعبة، دون معرفة لغات أخرى وخاصة الإنجليزية. وكما يتضح

²¹⁵ وحول سياسة إسرائيل الخارجية في تعاملها مع الوثائق الرسمية، يقول إبراهيم العابد (1968: 113): لدى تأسيس إسرائيل تقرر اللغة العبرية على أنها اللغة الرسمية التي يجب أن تستعمل في وزارة الخارجية وفي المراسلات بين الوزارة والمبعوثين في الخارج، على أن يكلف المدير العام للوزارة بمهمة ترجمة المصطلحات الدبلوماسية إلى العبرية بعد أن كانت الدائرة السياسية في الوكالة اليهودية تستعمل اللغة الإنجليزية، لأنها كانت تخطب بالدرجة الأولى الحكومة البريطانية وإدارة الانتداب في فلسطين، ولأن بعض مبعوثيها في الخارج لم يكونوا ملمين بالعبرية، وقد تمت عملية الترجمة هذه على يدي موشي شاريت.

اليوم من الواقع الإسرائيلي، فأن امتهان وظائف مرموقة وإنهاء الدراسات العليا في مؤسسات الأبحاث، لا يتأتى إلا بفضل معرفة الإنجليزية بمستوى عالٍ.

وبالرغم من أن الإنجليزية تدرس كلغة أجنبية في المدارس العربية في إسرائيل، فقد تبين من الدراسة التي أجراها أمارة ومرعي (2004: 182) أن ثمة دافعية لدى المتعلمين لتعلم هذه اللغة، إذ يرى قسم لا بأس به من التلاميذ العرب أن الإنجليزية هي لغة دولية تتمتع بسمعة عالية ومن المستحيل تركها، وأن طلاقة التعبير بالإنجليزية تزيد من فرص إيجاد عمل في خارج البلاد في المستقبل²¹⁶.

الخليط اللغوي في عناوين اللافتات التجارية

ثمة ظاهرة لافتة للنظر، وهي تداخل اللغات الأجنبية في كتابة عناوين اللافتات التجارية بالحروف العربية، وهو ما أطلق عليه ظاهرة "التغريب"²¹⁷ والتي سببها الانفتاح الاقتصادي. تؤدي هذه الظاهرة بدورها إلى إضعاف اللغة الأم.

لقد اجتهدت وفاء فايد في بحث هذه الظاهرة بحثاً دقيقاً في الشارع التجاري المصري، ومبينة الأنشطة والمجالات التي تجلت فيها، محددة الأحياء السكنية التي انتشرت بها، واللغات التي سادت فيها الأسماء المغربية (فايد، 2003). استغرق هذا البحث عدة

²¹⁶ في الحياة اليومية، تتردد على الألسن عبارات مثل: "اعملنا شوبنغ" (إشارة للتسوق). وكذلك الجملة الآتية "يشاهد مسرحية كوميدية، ويلتهم ساندويش هامبورغر من ماكدونالدز" حيث نصف مفرداتها تحتوي على كلمات دخيلة من اللغة الإنجليزية. وفي الاحتفال في أعياد الميلاد، يفتتحون الحفل بالأغنية Happy Birthday to You ومن ثم يواصلون الأغنية بالعربية "سنة حلوة يا....".

²¹⁷ التغريب يعني الاتجاه إلى اللغة الأجنبية والابتعاد عن اللغة العربية، أي نقل الأجنبي من لغته - كما ينطق - وكتابته بحروف عربية، على واجهات المتاجر ولافتاتها.

سنوات، وذلك في الأعوام: 1972، 1983، 2001. وقد أشارت الباحثة إلى خطورة هذه الظاهرة²¹⁸، بناءً على النتائج الآتية التي توصلت إليها (المصدر السابق: 128):

أ- يشكل التغريب ظاهرة واضحة في الشارع المصري، وقد بلغت نسبة الأسماء المغربية في عينة الدراسة 9.66٪ من المجموع الكلي للأسماء.

ب- تتفاوت درجة انتشار التغريب من نشاط إلى آخر، ومن حي سكني إلى آخر.

ت- تبدو أعلى نسب للتغريب في الأنشطة السياحية والترفيهية، والمتصلة بالأجانب في تعاملاتهم المختلفة. وتبدو أقل نسبة في الأنشطة الخاصة بتجارة المواد الغذائية والاستهلاكية وأنشطة الخدمات، والأنشطة الحرفية.

ث- تسود الظاهرة في المناطق التجارية، مثل منطقة وسط القاهرة، يليها مصر الجديدة، ومن ثم الزمالك. ويقل انتشارها في المناطق غير التجارية كالقلعة وحلوان.

ج- تسود اللغة الإنجليزية في أغلب الأسماء في مختلف الأنشطة، على حين تسود اللغة الفرنسية- بوجه خاص- في مجالات الأنشطة المرتبطة بالأناقة والأزياء²¹⁹.

ح- تتجسد ظاهرة التغريب في خمس صور، هي: استعمال الحروف أو الأرقام الأجنبية²²⁰، ونقل الكلمة بحروف عربية²²¹، ونحت كلمة من كلمتين أجنبيتين أو أكثر²²²، وتركيب أجنبي من كلمتين أو أكثر²²³، وتركيب عربي مشوه²²⁴.

²¹⁸ تقول في ذلك (فايد، 2003: 12): "هذه الظاهرة تمسخ وجه الشارع المصري، وتضفي عليه مسحة أجنبية ليست من معالمة الأساسية، تشوه لغتنا الأم، مما يسيء إلى الشخصية المصرية الأصيلة، ويجعل الأسماء التجارية خليطاً غريباً غير متجانس من اللغات الأجنبية المتباينة، والتركيب المختلفة غير العربية، على الرغم من كتابتها بالحروف العربية، فهذا لا يضيف عليها الطابع العربي أو الهوية العربية، شأنها في ذلك شأن الفارسية والأردية: غير عربيتين، وتكتبان بحروف عربية".

²¹⁹ في هذه الأسماء اندمجت الكلمة الأجنبية في اللغة العربية، بعد أن اكتسبت الطابع العربي، وازداد شيوعها بعد أن تبنتها اللهجة العامية وأكسبتها القوالب العربية. أمثلة على ذلك: بار، بازار، برودري، تريكو، تكنولوجيا، تليفون، سينما، صالون، كرنفال، فيلم، جراح (باللهجة الفلسطينية كراج)، مترو، موتور.

خ- يعد تشويه التركيب العربي أخطر أنواع التغريب على لغتنا العربية المعاصرة؛ لأنه يخل بالأبنية اللغوية العربية، ويفسد تركيب الجملة أو العبارة العربية.

تندرج مسألة مسميات اللغات بالعبرية تحت مسمى "المشهد اللغوي"²²⁵ חנוך חלשון، وهو مترجم من الإنجليزية (Linguistic Landscape). وأول من استخدم هذا المصطلح

²²⁰ هنالك أحرف تشكل رموزًا للكلمات، مثل: يو بي سي للاستيراد والتصدير، أحذية إيه؛ والشركات (إس جي إيه، بي إس إس، جي تي إم، إس آر، إتش إم)، وأزياء إل إم، وبازار بي بي. وأما تحت مسميات الأرقام والحروف فنجد: تو إم، دبل إم، فور إس، وبراويز آر تو؛ ومثال الأرقام أحذية فورتين.

²²¹ مثال الكلمات الفرنسية: سوفونير، لابوار، فاسيل، لامور، سواريه، لابوتيه، شيري، لوكورد. والكلمات الإنجليزية: فاكيت، فالكون، فاست، فرنديز، فيرست، فريش، كات، زووم، دريمز، كوين، تيجر، كونكريت. ومن اللغات الأخرى: تافرنا، جراتسيا.

²²² ومن أمثلة النحت الذي ورد في العينة: إيجينكو، إليكون، مدجينكو، ميراتكس، سيرامكو، هليوتكس. ويندرج تحت هذا النوع النحت الذي يتضمن اسم علم، مثل: شرفكوم المنحوتة من (شرف + كوم وهي اختصار commerce أي تجارة)، عنانكو (عناني + كو وهي اختصار company أي شركة)، وساركو (سارة + كو)، وزيدكو (زيدان + كو).

²²³ أمثلة من الإنجليزية: وايت شوب، سويت هاوس، إفريغرين، نيو شوب، فاين كولكشن، هابي سكول، نيو بيبي غاردن، كاش آند كاري، سكاي تريدينج، ماي فير ليدي، شيك هاوس، سويت هارت، نيو شوب، فيش هاوس، فليف ستارز، جينا بيوتي سنتر، ستوب ديزاين، ماستر ميديا.

أما الأمثلة من اللغة الفرنسية: بون مارياج، لا دام شيك، مير دي ديو، لا روز دي ليزيه، بونير، جولي فيل، بيتي باليه. ومن اللغات الأخرى: ليدر فارن، لا بورصا نوفا، بيلا دونا.

²²⁴ أمثلة على ذلك: وطنية تورز، مصر ميكروكمبيوترز، السلام شوبنج سنتر، شافعي فيديو فيلم، فرعون فيلم، الليثي فيلم، نادر فيلم، سريع فوتوستورز، النيل جاردن، النيل الزمالك، السلام هيات، عبيد هاوس، عيد هاوس، حاتون أولاد.

²²⁵ يتطرق المشهد اللغوي إلى الموضوع اللغوي القائم في المحلات العامة، ويشمل ذلك اللغات في الشوارع (الشاخصات أو الياطات)، مسميات الشوارع والأماكن، مباني، مؤسسات، لوحات إعلان

لاندرى وبوريس عام 1997 (Landry & Bourhis, 1997). يعتبر المشهد اللغوي من العوامل المهمة لمعرفة المكان - إدراك الحيز - والمجموعة اللغوية التي يُسمى بها. كان استخدام الإنجليزية شائعاً في الإشارات اللغوية، أي في اللافتات التجارية والمنتجات، من الفترة التي سبقت تأسيس إسرائيل وحتى اليوم²²⁶. ففي منتصف السبعينيات من القرن الماضي، أثبت نادل وفيشمان (انظر لدى سبولسكي، 2002: 129) استخداماً متزايداً للإنجليزية في لافتات المحلات التجارية وغيرها، ويؤكد سبولسكي (Spoksky, 1996a) على أن هذا الأمر بقي سائداً بعد عشرين سنة. وتكشف الدراسة التي أجراها إيلعيزر بن رفائيل وإيلانه شوهامي ومحمد أمارة حول المشهد اللغوي (Ben-Rafael, Shohamy, Amara, M.H., 2004)، والتي تضمنت عينة من المدن اليهودية والعربية في إسرائيل في عام 2004؛ عن شيوع ظاهرة التغريب في اللافتات في الحيز العام والخاص بدون استثناء، وعن تمايز مهم بين الأحياء اليهودية التي تحمل نمطاً عبرياً-إنجليزياً، والأحياء العربية ذات الأنماط العربية-العبرية والإنجليزية. ففي المحلات التجارية اليهودية الراقية تُكتب الأسماء مباشرة باللغة الإنجليزية، أو أن اللفظ الإنجليزى يكتب بأحرف عبرية. فيما يلي بعض النماذج من صنوف اللافتات:

- الكتابة مباشرة بالإنجليزية: Castro men, Fox, Togo, Bogart, Golf, Golbary, Top Shop .

ومواد دعائية. المسؤول عن هذه الأمور هي هيئات ذات صلة بالدولة أو السلطة المحلية أو الشركات، الجمعيات والأفراد (أمارة، 2002: 92).

²²⁶ يذكر على سبيل المثال، أنه في أحد شوارع مدينة تل - أبيب سأل أحد قادة اليهود خياطاً يضع لافتة على حانوته بالإنجليزية "تيلر" - خياط: لماذا كتبت اللافتة بالإنجليزية وليس بالعبرية؟ فأجاب: أعتقد أن اللافتة بالإنجليزية ستجعلني خياطاً ماهراً ومهماً، تستقطب سكان الحي ليشتروا مني ملابس كثيرة (بادربوش، 1967: 389).

- إنجليزية بأحرف عبرية: سوبر سنتر (סופר סנטר)، دراغستور (דרגסטור)، غولدن ديل (גולדן דיל)، ديل كار (דיל קאר)، تريد إن (טריד אין).
- خليط من العبرية والإنجليزية: شاكيد تورز (שקיד טורס)، بنك هبوعليم (בנק הפועלים).
- إنجليزية وترجمتها للعبرية: استئجار سيارة ((השכרת רכב - Rent a Car)، صرافة ((המרה - Change)، هدايا ((מתנות - Gifts).
- اسم المكان بالعبرية وبالإنجليزية: مجوهرات رافي (תכשיטי רפי - Rafi Jewelry)، أحذية ليليان (נעלי ליליאן - Shoes Lilian)، أنجلو ساكسون (אנגלו סכסון - Anglo-Saxson).
- لقد انتقدت عضو بلدية تل - أبيب، البروفيسور زوهر شبيط، اللافتات الأجنبية في مدينة تل - أبيب قائلة "الأسماء الأجنبية الكثيرة لعشرات المحلات التجارية هي بمثابة شهادة سيئة لثقافة لا تحترم نفسها، وتفقد هويتها الذاتية"، وأضافت شبيط "أن اللافتات التجارية في المدينة توحى بأن اللغة الرسمية الأولى في إسرائيل ليست عبرية، وفي حالات كثيرة تكتب اللافتة فقط باللغة الأجنبية"²²⁷.

²²⁷ نُشرت أقوال شبيط يوم 19-12-2007 في موقع ynet التابع لصحيفة "يديעות أحرونوت". يُذكر أن القانون المساعد لبلدية تل - أبيب ينص على ما يلي: لا ينشر شخص إعلان أو لافتة إلا باللغة العبرية، أو بلغة أخرى شريطة أن تأخذ العبرية نصف مساحة اللافتة على الأقل.

مشكلة الأمية

يقدر رشدي طعيمة (1998: 55) أن نسبة الأميين في العالم العربي تصل إلى 70٪، وأن حوالي مليون مثقف عربي (العقول العربية) يتواجدون في أوروبا والولايات المتحدة. وعن تفاقم مشكلة الأمية في العالم العربي²²⁸ تقول وجيهة الحويدر (الأهالي، 2005: 12):

بالرغم من أن مفهوم الأمية قد تغير في عصر العولمة هذا، حيث صار الأمي الذي لا يحسن مزاوله لغة أخرى، ولا يجيد التعامل مع التكنولوجيا، إلا أنه في عالمنا العربي ما زلنا نكابد الأمية بمفهومها الكلاسيكي. يوجد اليوم بيننا على الأرض العربية تقريباً 68 مليون أمي يجهلون القراءة والكتابة ثلثاهم من الإناث. تصل نسبة الأميين إلى حوالي ثلث التعداد الكلي لسكان الدول الاثنتين والعشرين الأعضاء في الجامعة العربية؛ وبسبب كثرة الإنجاب وغياب برامج تحديد النسل، تفاقمت الأزمة، فحسب تقرير الأمم المتحدة الذي صدر في عام 2002 عن التنمية العربية يوجد عشرة ملايين طفل بدون مقاعد دراسية.

هنالك عدة أسباب أدت إلى انتشار الأمية في العالم العربي، منها ما يعود إلى مبنى اللغة العربية نفسها، المكونة من الفصحى والعامية. ثمة من الباحثين من يرى في ظاهرة الازدواج اللغوي أنها السبب الرئيس في ابتعاد القراء عن اللغة العربية. وفي ذلك يقول عياري (Ayari, 1996) مثلاً، إن ظاهرة الازدواج اللغوي تؤثر تأثيراً سلبياً قوياً على مقدرة أولادنا على اكتساب مهارات القراءة والكتابة، وبالتالي على تحصيلهم الأكاديمي بشكل عام.

²²⁸ يتبين من المعطيات الإحصائية التي نشرتها منظمة التربية، العلوم والثقافة التابعة للأمم المتحدة (اليونيسكو) أن حوالي 20٪ من سكان العالم البالغين لا يعرفون القراءة والكتابة، وأن ثلثي هؤلاء من النساء. بالإضافة إلى ذلك، فإن حوالي 113 مليون طفل في العالم لا يذهبون إلى المدارس، ولذا فالطريق أمامهم لتحصيل المعرفة الأساسية ومبادئ القراءة مسدودة. انظر في موقع:

<http://portal.unesco.org>

أما الأسباب الأخرى فلها علاقة بالبيئة والثقافة العربية، وهي: الفقر المدقع وتردي مستوى الدخل لدى المواطن العربي، التي ترغم الأولاد على ترك مقاعد الدراسة والخروج إلى العمل في سن مبكرة لإعالة عوائلهم؛ في مناطق الأرياف النائية والصحاري تحرم الإناث من التعليم؛ طرائق التدريس تقليدية وتعتمد على التلقين، الأمر الذي أدى إلى نشوء أجيال لا تقيّم المعرفة ولا تعطي أهمية للتعليم؛ قلة المكتبات العامة؛ عزوف الطلاب عن اقتناء الكتب بسبب أسعارها الباهظة، وتفضيل الأهل شراء الكماليات على الأشياء التعليمية، كالكتب والحاسوب وغيرها؛ إهمال المسؤولين في تنظيم دورات مكثفة ضمن مشروع قومي لمحو الأمية؛ كتب التدريس غير مشوقة وتنفر التلاميذ من مواصلة دراستهم؛ عدم استخدام الوسائل الحديثة التي تساعد على اكتساب القراءة للمبتدئين؛ عدم إيجاد حلول مناسبة لمشكلة ازدواجية اللغة؛ الوقت الذي يقضيه الآباء في تعليم أولادهم القراءة قليل جداً، بل وينعدم في أحيان كثيرة (مرعي، 2004).

إن الفجوة الرقمية²²⁹ بين العالم العربي والعالم التقدمي آخذة بالازدياد. ففي المؤتمر العالمي للاتصالات (الذي عقد عام 2006) اتضح أن العالم العربي بين المناطق الأقل حظاً من الثورة الرقمية، وعلى سبيل المثال، فإن عدد مستخدمي الإنترنت العرب لا يصل 12 مليون، أي بنسبة قدرها 3.7٪.

تعد القراءة من أهم وسائل التنمية والتطور، وتشير الإحصاءات حول وضع القراءة في العالم العربي إلى أن كل 80 شخصاً يقرأون كتاباً واحداً في السنة²³⁰. وما دام هذا الوضع

²²⁹ الفجوة الرقمية غدت معياراً آخر للتمييز بين شمال غني وجنوب فقير متأخر. وبسبب الأمية والبطالة ومحدودية الدخل لدى المواطن العربي، فهو لا تستطيع سد الفجوة الرقمية. ويعزو الخبراء أسباب التخلف الرقمي في العالم العربي إلى عوامل تقنية وتشريعية.

²³⁰ وللمقارنة فإن الأوروبي يقرأ في السنة 35 كتاباً. وانظر في موقع:

<http://www.momken.org/newsarticle.php?item=6570>

سائداً بين شعوب العالم العربي، فكيف ستستطيع هذه الدول الالتحاق بركب التقدم والتطور؟

بالرغم من تزايد ظاهرة الفقر في إسرائيل²³¹ فإن الشعب اليهودي يحب القراءة ويخصص لها وقتاً لا بأس به، لذلك أطلق عليه اسم "شعب الكتاب" עם הספר أو أن نسبة الأمية تكاد تكون معدومة فيه.

تنبه صناع القرار لمسألة الأمية لدى اليهود المهاجرين. ففي السنوات 1954-1958 تبين أن 15٪ من الشباب لا يعرفون القراءة والكتابة إطلاقاً، وأن 55٪ من النساء والرجال الذين قدموا من دول العالم الثالث هم أميون. استهدف تعليم العبرية لهؤلاء أيضاً "القضاء على الجهل"، والنجاح في هذه المهمة كان جيداً للغاية (كرمي، 1997)²³².

تبلغ نسبة معدل الأمية في إسرائيل هي 4.6٪، وتعتبر هذه النسبة منخفضة مقارنة مع دول أخرى. وحسب تقرير التنمية البشرية الصادر عن الأمم المتحدة عام 2004، جاء تدرّج إسرائيل في الموقع الـ 22 بين 177 دولة قيست فيها نسبة الأمية (دولة إسرائيل، 2004).

²³¹ إن الفقر ليس محصوراً في العالم العربي فحسب، فإسرائيل هي الأخرى تعاني من هذه الآفة، إذ يستدل من تقرير الفقر لعام 2004 الذي نشرته مؤسسة التأمين الوطني بتاريخ 8.8.2008 أن إسرائيل تحتل المرتبة الأولى بين الدول الغربية، حيث وصل عدد الفقراء مليون ونصف شخص، من بينهم نحو 700 ألف ولد. زاد هذا الوضع الفوارق بين الطبقات، والمتضررون الأساسيون هم الأولاد والعرب؛ فبينما كل ولد ثالث في إسرائيل يعيش تحت خط الفقر، فإن ثلث الفقراء في إسرائيل هم من العرب. يُذكر أنه منذ عام 1998 ازداد عدد الأولاد الفقراء في إسرائيل بنسبة 50٪، وإذا ما استمر الوضع على حاله، فإن إسرائيل ستشهد تدهوراً اقتصادياً، الأمر الذي سيزيد من حدة الفقر.

²³² نشرت وزارة المعارف والثقافة في مارس 2006 إحصائيات رسمية حول قضية الأمية في إسرائيل تشير إلى وجود 219 ألف شخص لا يجيدون القراءة والكتابة، وأن نصيب المواطنين العرب من هذه الإحصائيات 84 ألف أمي. وأن عدد النساء يساوي ضعف عدد الرجال: 174 ألف امرأة مقابل 72 ألف رجل.

لدى معاينة ظاهرة الأمية في إسرائيل، يتضح بأنها تتواجد القائمة بنسبة أعلى لدى شرائح معينة في المجتمع ذات صلة بالجنسية والقومية. تنصدر النساء العربيات بنسبة أمية مرتفعة بشكل خاص، حيث أن 7.14٪ من النساء العربيات عام 2003 كن أميات مقابل 5.4٪ من النساء اليهوديات؛ والرجال العرب شكلوا نسبة 2.6٪، بينما نسبة الرجال اليهود كانت 6.2٪ فقط²³³.

فبالرغم من كثرة الوسائل الإعلامية المقروءة والمرئية، فإن الشعب اليهودي لا يتنازل عن الكتاب كركيزة أساسية في نهل المعرفة وتوسيع الآفاق الثقافية. كما يباع سنوياً في إسرائيل 35 مليون كتاب بقيمة 8.1 مليار شيقل، وأنه خلال أسبوع الكتاب العبري يتم ابتياع 8٪ من الكتب (يديعوت أحرونوت، 16: 23.6.2005).

في أعقاب الثورة التكنولوجية الحديثة قلت نسبة القارئ بين صفوف الشباب اليهود، وازدادت نسبة المراسلات (S.M.S) عبر المحمول أو النقال (البليفون)، والاطلاع على شبكة المعلومات (الإنترنت)، ويُطلق على هؤلاء مصطلح "فتيان الشاشة".

من حيث القراءة، فإن الإسرائيلي يقرأ في السنة 40 كتاباً، وتقع إسرائيل اليوم في المكان العشرين في العالم، وإن هنالك هبوطاً ملحوظاً في نسبة القارئ، مقارنة مع ما قبل 15 سنة، إذ كان اليهود يتصدرون المكان الخامس أو السادس (معاريف، 17.6.2005: ملحق نهاية الأسبوع، 2)²³⁴.

²³³ انظر في موقع: <http://hdr.undp.org/reports/global>

²³⁴ عدد القراء أخذ في التناقص، وهذه تعد ظاهرة عالمية لا تقتصر على الإسرائيليين فقط. على سبيل المثال، في الولايات المتحدة الأمريكية يقرأون الصحف اليومية بنسبة 80٪، أي ثمانية أشخاص من بين كل عشرة. أما نسبتهم اليوم فهي 50٪، أي خمسة من بين كل عشرة. اليوم، يحب الجميع لغة الشاشة لأنها تعتمد على الاختصار، وهي كما يبدو ستكون اللغة في المستقبل.

الترجمة وإصدار الكتب

جاء في تقرير الأمم المتحدة لعام 2004 حول الأبحاث العلمية والثقافية في العالم العربي، أن الأنظمة العربية لا تهتم بالأبحاث العلمية، فالدول العربية تنفق 5.0٪ من مجمل الناتج الإجمالي على الأبحاث العلمية، بينما تنفق إسرائيل في هذا المجال 35.2٪. وحول ترجمة الكتب الأدبية للغة العربية يتم سنوياً ترجمة 330 كتاباً فقط. للمقارنة، فإن اليونان الدولة الصغيرة تترجم سنوياً 70 كتاباً إلى اللغة اليونانية. وللمقارنة، أيضاً، مع الدول الأخرى، فإن إنتاج الدول العربية من الكتب هو نصف إنتاج إيطاليا وحدها، والمتوسط السنوي لمجموع ما يُترجم في الدول العربية قليل جداً (حجازي، 1990: 99).

يشير تقرير الأمم المتحدة أنه منذ عهد الخليفة العباسي المأمون (الذي حكم بين الأعوام 813-833)، والذي يُعرف عهده بالعصر الثقافي الذهبي قديماً وحديثاً، فخلال 1192 عاماً تم ترجمة ألف كتاب فقط إلى العربية، أي حوالي نفس عدد الكتب التي تترجم سنوياً في إسبانيا إلى اللغة الإسبانية (الصنارة، 2005.3.18: 42). ناهيك عن الرقابة في العالم العربي التي تفرض قيوداً على حرية النشر والصحافة²³⁵.

وحول الواقع الثقافي في العالم العربي يقول سميح القاسم (تفرزين، 2005.1.21: 29):

²³⁵ في قائمة أصدرتها "منظمة مراسلون بلا حدود" عن دول الشرق الأوسط رتبتهم بحسب احترامهم لحرية النشر والصحافة، ذكر أنه لم تحظ أي دولة عربية لموقع ضمن الدول الخمسين الأولى (وجهة الحويدر، الأهالي، 2005.7.1: 12): حل لبنان في الموقع 56، والبحرين في الموقع 67، والكويت في الموقع 78، والسلطة الفلسطينية في الموقع 82، والمغرب في الموقع 89، والجزائر في الموقع 95، والأردن في الموقع 99، ومصر في الموقع 101، واليمن 103، والسودان 105، والسعودية 125، وسوريا 126، وتونس 128، وليبيا 129، والعراق 130. ولم تتطرق القائمة إلى أي من قطر أو دولة الإمارات العربية المتحدة.

اسمح لي أن أعبر عن سخطي من الإحصائيات التي تفيد أن المطابع العربية هي الأقل نشاطاً في العالم، وكان اعتراضى الوحيد على هذه الأرقام أن مطابعنا هي الأنشطة في العالم بصياغة دعوات الأعراس والحفلات والمهرجانات والسوبر ستار والستار أكاديمي. أما في المجال الثقافي الحقيقي فنحن متخلفون حتى الآن عن اليونان وبالطبع لا مجال للمقارنة مع ما تفعله إسرائيل في مجال البحث والدراسة. ففي أول مائة جامعة في العالم لا توجد جامعة عربية واحدة حتى الآن، بينما نجد فيها مؤسسات أكاديمية إسرائيلية. لقد توقفنا عن الإبداع الحقيقي منذ نهاية القرن الرابع عشر للميلاد²³⁶.

أما بالنسبة لإسرائيل، فإنها تقع من بين أول عشر دول في العالم من حيث إصدارات الكتب فيها (بالنسبة للعدد السكاني). ففي المكان الأول نجد الصين وتليها بريطانيا وفرنسا فالولايات المتحدة (معاريف، 17.6.2005: ملحق نهاية الأسبوع، 2). كما وأن حركة الترجمة نشطة في إسرائيل لوفرة المترجمين الذين يعرفون اللغات المختلفة كلغة أم.

ظاهرة الضعف والتعثر اللغوي

يلاحظ في الدول العربية عامة، انخفاض مستوى المتعلمين فيما يتعلق بالمهارات في كل مراحل التعليم وفي مختلف قطاعاته وتخصصاته حتى التعليم العالي، وأن مهارات العربية جزءاً من كل (جاد، 2003: 118). فالعربية تعاني من ظاهرة تدني المعرفة اللغوية لدى المتعلمين، وفي ذلك يقول حسام الخطيب (1995: 17):

²³⁶ ويستطرد القاسم قائلاً: "وأقدم هنا اقتراحاً بتحويل الجامعة العربية المفرغة من أي مضمون سياسي جاد إلى مركز عربي ودولي لتنشيط الحركة الثقافية والإعلامية العربية. نحن لا زلنا نراوح منذ أواخر القرن الرابع عشر مستوى العقل نفسه. وهنا لا بد من التأكيد على أن الثقافة هي الخندق الأخير للعرب والمسلمين اليوم. فإذا لم نتقن الدفاع عن هذا الخندق سيصيبنا ما هو قائم في أمريكا اللاتينية حيث ستعطل الأمة، وستنشأ حالة الإقليم والطوائف والعشائر.

لا يكاد يختلف اثنان في أن مدارسنا ومؤسساتنا تظهر عجزًا فادحًا في مجال تعليم اللغة العربية، حتى لتبدو حصة (العربي) في المدارس مثل حصة اللغة الأجنبية. وهناك اتفاق بين المربين ومدرسي اللغة العربية على أن الطالب العربي - مع بعض الاختلاف من منطقة إلى منطقة - لا يعرف لغته القومية ولا يحسن استخدامها وينظر إليها نظرتة إلى العبء والواجب المفروض، وذلك على الرغم من الجهود التربوية الكبيرة التي تبذل في مختلف مراحل التعليم، ومؤخرًا في مؤسسات التعليم العالي من جامعات وغيرها، حيث أدخلت مقررات جامعية متكررة في تعليم اللغة العربية، وأثبتت في الأغلب عدم نجاعتها. ولو حسب عدد الساعات المخصصة لتعليم اللغة العربية في مستويات التعليم المختلفة لكان ينبغي أن يكون الحاصل التربوي مختلفًا جدًّا، بل تكفي هذه الساعات لتعليم أعقد المقررات كالفيزياء النووية²³⁷.

ومن عوامل ضعف اللغة العربية ضعف الغيرة عليها والنظر إليها كلغة أجنبية²³⁸، ومن أبرز مظاهر ضعف الغيرة على العربية والحفاصة لها (خسارة، 1994: 70-71):

²³⁷ ويستطرد قائلاً (ص 68): "إن الجامعات ودور المعلمين في جميع الأقطار العربية تفرز سنويًا أعدادًا ضخمة ممن يفترض أنهم متخصصون بتعليم اللغة العربية، ومع ذلك تزداد نسبة (الأمية اللغوية) عند هؤلاء سنة بعد سنة، ويستطيع أساتذة اللغة في الجامعات أن يتحدثوا طويلًا عن أوراق امتحانات السنة النهائية المشحونة بالأخطاء وهلهلة التركيب، ويستطيع هؤلاء الأساتذة أيضًا أن يتحدثوا عن الأخطاء التربوية واللغوية التي يرتكبها معلمو أبنائهم وبناتهم في المدارس الابتدائية والثانوية".

²³⁸ ويروي الخطيب قصة تجسد مدى عدم الاهتمام بالعربية في المؤسسات الأكاديمية، فيقول (الخطيب، 1995: 188-189): "في كلية الآداب كنت أزور قسم اللغة العربية ومعني زميل عربي يعمل منذ زمن طويل في إحدى الجامعات الأمريكية، ولدى خروجنا من مكتب رئيس القسم صادفنا فتاة مرتدية جلبابًا ووجهها نصف محجب. ألقيت عليها التحية بعربية فصيحة (بالمناسبة في مكتب رئيس قسم اللغة العربية كان الحديث يدور بالعامية لا بالفصحى، كما هو الشأن في مكاتب جميع أقسام اللغة العربية في مختلف أرجاء الوطن العربي، إلا من رحم ربك وقليل ما هم - من هذه الناحية بالطبع)، ثم سألتها عن نيتها

أ. عدم التزام الخطاب العربي في المحافل الدولية والمؤتمرات العلمية، لا سيما في المستويات العالية منها.

ب. التساهل مع الخطأ اللغوي وعدم التنبيه عليه، غالباً، بحجة أن المهم هو المادة الفكرية أو العلمية، بصرف النظر عن الأسلوب اللغوي الذي يؤدي به.

ت- التسابق في قبول مظاهر التغريب والفرنجة في البيئة العربية، مثل مسميات المحلات التجارية والأسماء الأجنبية للمأكولات والملابس.

أثبتت الدراسات الميدانية التي أجريت حول تدريس العربية في بعض الدول العربية، أن الطلاب يعانون من ضعف هائل في لغة الأم العربية في المراحل التعليمية الثلاث (العموري، 1983؛ العلي، 1998: 300-302؛ طعيمة، 1998: 37-40). وهناك من وصف هذا الضعف بالجسد اللغوي المريض²³⁹.

في الامتحان وتبادلنا بعض الجمل، ثم ودعتها وانصرفت مع زميلي، وإذا به يقول: هل هذه الفتاة (أجنبية)؟ ولكنها محجة. قلت (دون تفكير): إنها ليست أجنبية، إنها من بلاد العجم."

والشيء بالشيء يذكر، فهذه القصة تشابه الوضع الذي يتواجد فيه المواطنون العرب في إسرائيل من حيث سيطرة العبرية في تجمعاتهم السكنية. ففي إحدى المرات زار فلسطيني أكاديمي البلاد للمشاركة في مؤتمر علمي، وهو يدرس العربية في الجامعات الأوروبية. وعند مروره من بلدة الطيرة وشاهد اللافتات العبرية الكثيرة، فقال لمضيفه: أرى أن اليهود في هذه البلدة يستعملون لافتات باللغة العربية.

²³⁹ يقول عبد السلام المسدي، أستاذ اللسانيات في جامعة تونس (انظر عبد الله، 2007: 111): "عندما نتحدث الآن عن وضع اللغة العربية فنحن على اقتناع تام بأن جسدا اللغوي مريض، والمشكلة تكمن في أن هناك ثلاث نخب في مجتمعنا لا تقر إطلاقاً بأن جسدا اللغوي مريض: النخبة السياسية، النخبة المالية الاقتصادية، النخبة الثقافية، التي نطلق عليها (الإنتلجنسيا). وفرق كبير بين أن يأتي المريض إلى عيادة الطبيب وهو مستشعر المرض، ويطلب من الطبيب روشتة للعلاج، وبين مريض يرفض أن يقر بأنه مريض، وإنها يراد إقناعه بأنه مريض فعلاً ويستوجب العلاج!! ونحن مع الأسف نعيش في هذه المرحلة".

اطلع رشدي طعيمة على 48 مقالاً وأطروحة تناولت أسباب الضعف في ملكة اللغة العربية في المجتمع العربي عامة، وفي أجهزة التعليم خاصة، وعمل على تقسيم الضعف إلى مجموعتين أساسيتين من الأسباب: أسباب اجتماعية ثقافية، وأسباب بداعوية تعليمية (طعيمة، 1998: 56-58) ²⁴⁰.

حافظ العرب في القديم على سلامة اللغة وإتقانها تعبيراً ومحادثة، وكانوا يرفعونها أحسن رعاية، بل كانت فصاحة اللغة من مستلزمات المكانة الاجتماعية والسياسية للمتحدث. أما اللحن فكان يعتبر خطأ جسيماً، وقد وصفه النبي محمد صلى الله عليه وسلم بـ "الضلال". وعندما سمع مرة لحن بعضهم في أحد مجالسه، قال للحاضرين "أرشدوا أخاكم فإنه قد ضل". كما وحض الرسول عليه الصلاة والسلام على إتقان اللغة فقال: "رحم الله امرأً أصلح من لسانه" ²⁴¹.

أما اليوم، فإن المشهد الثقافي حافل بالتسيب اللغوي الذي ساهم الكل في صنعه: متعلمون وطلاب وصحافيون. حالة التسيب هذه توسّع الفجوة بين الأجيال الصاعدة وبين لغتها القومية، ويصبح الفتى العربي غريب الوجه واليد واللسان (فوراني، 2005: 5).

²⁴⁰ في مناقشته جوانب المشكلة اللغوية التي تعاني منها العربية يخلص الخطيب (1995: 69) إلى القول "إن أساليب تعليم اللغة العربية القائمة حالياً، وكذلك الظروف التربوية والاجتماعية لتطبيقها، تكاد تؤدي إلى وضع العربية في موضع (لغة أجنبية) يدرسها الطالب ليحصل على علامة النجاح فيها، لا ليكتسبها سلاحاً يمارسه في معركة الحياة".

²⁴¹ أولى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه الإعداد اللغوي مكانة لا تقل عن الإعداد العسكري، ففي إحدى المرات مر بفتيان يتدربون على الرمي، فلما أخذ عليهم ضعف إصابتهم الهدف قالوا له: "إننا قوم متعلمين"، فقال "متعلمين!! ما ضيعتم من لسانكم أشدّ عليّ مما ضيعتم في رميكم" (الحموي، د.ت: 1/ 67). وفي المقامات الحريرية نجد أن الاهتمام بالشعر يعد في مقام المحافظة على الشرف، وفي ذلك يقول بطل المقامات "وغيرتهم (أي الشعراء) على بنات الأفكار كغيرتهم على بنات الأبقار" (الحريري، د.ت: 223).

تلعب وسائل الإعلام من إذاعة وصحافة وتلفزيون، دورًا مزدوجًا في نشر اللغة العربية. فهي من جهة، تساهم في الانكشاف على اللغة الفصحى، كونها وسيلة اتصال مهمة بين الناطقين بالعربية، فالمتحدثون المتمكنون من العربية يتلفظون بمفردات علمية عصرية تحفز المستمع أو المشاهد التعامل بها وقت الحاجة.

ولكن في الوقت نفسه، ثمة دور سلبي لهذه الوسائل الإعلامية، إذ شاعت فيها الأخطاء اللغوية سواء على السنة أهلها أو السنة ضيوفها. ولا توجد فيها مراعاة لاستعمال اللغة الفصحى، ولا ما تحدده المجامع اللغوية من ضوابط لغوية. كما هنالك غياب في الإذاعة للأحاديث الإذاعية لأعلام الفكر والأدب بالعربية الفصحى، ناهيك عن غياب البرامج الأدبية في التلفزيون إلا القليل منها، والتركيز على البرامج الفنية والترفيهية حيث يدور الحوار باللهجة العامية²⁴².

ويرى الخطيب (1995: 174-178) أنه لا مجال للتهاون مع الأخطاء الواردة في لغة الصحافة، التي تعاني من عدم الدقة في استخدام المفردات ومن التداخل في الجمل ومن البلبلة في العبارات. وأن الأمر بحاجة لشحذ الهمم من قبل الصحفيين في تحسين مستواهم اللغوي، وعدم التسامح مع الأخطاء، وحثهم على تقويم الاعوجاج²⁴³.

²⁴² تثير الأخطاء الشائعة حفيظة الغيورين على سلامة اللغة العربية، والذين يجتهدون في جمع هذه الأخطاء وتصويبها، الأمر الذي قد يزيد من توعية الناطقين بالعربية للاهتمام بلغتهم. ومن هؤلاء الباحثين نذكر مطر، 1985؛ يعقوب، 1986.

²⁴³ وفي هذا المنحى يقول الخطيب (1995: 177-178): "مثلما لا يمكن أن يكون الرسام رسامًا إلا بإتقان استخدام الفرشاة واللون، والنحات نحائًا إلا بإتقان استخدام الإزميل، والموسيقي موسيقيًا إلا بإتقان النفخ أو العزف أو الضرب على الآلة المعنية، كذلك لا يمكن أن يكون الكاتب الصحفي أو الأدبي أو الفكري كاتبًا إلا إذا امتلك ناصية اللغة، وأتقن توظيفها للتعبير عن أغراضه".

كما ذكرنا، تتكون العبرية اليوم من مركبات لغوية تبلورت في العصور القديمة، وأضيفت إليها مكونات لغوية مستحدثة في أعقاب انبعاث العبرية كلغة منطوقة. هذا المزيج اللغوي لم يبقَ عبريًا خالصًا، إذ زاد في الآونة الأخيرة من رصيده من خلال التأثير من اللغات الأجنبية.

يساهم هذا المزيج في قلة ضبط اللغة ويزيد من حدة التعثر اللغوي، والذي يظهر جليًا في لفظ المفردات. يمكن لك، من خلال لفظ المتحدث، تشخيص موطنه الأصلي، أو العرق الذي انحدر منه. فالمهاجرون الجدد، خاصة الروس، يجدون صعوبة في إتقان ألفاظ معينة. وما يخص العرق، بمقدورك أن تتحرى الفوارق بين الأشكناز والشرقيين، خاصة من كبار السن. فعلى الرغم من تواجد كبار السن في إسرائيل، ما يزيد عن جيلين أو أكثر، فهم لا يستطيعون النطق بشكل سليم، وتزل ألسنتهم عند الحديث²⁴⁴. وعادة ما يتأثرون من لغة الأم، ويفضلون التحدث بها.

ومن الأخطاء الشائعة في العبرية (موراغ، 2004: 177-205) عدم استعمال الفعل بالشكل الصحيح، ناهيك عن الأخطاء الناتجة عن تصريف الفعل وتشكيله. أما اسم العدد، فالكثير من الإسرائيليين لا يتقنون ضبط اسم العدد ولا الاسم المحدود (الذين يسيران وفق القواعد المتبعة في اللغة العربية). والأخطاء منتشرة أيضًا في النحو، وفي استخدام أحرف الجر وغيرها.

تجدر الإشارة إلى أن عدم السيطرة على ملكة اللغة العبرية يؤدي إلى الوقوع في أخطاء كثيرة في الكتابة، ليس فقط على المستوى الشعبي، وإنما أيضًا على المستوى الرسمي. فعلى مستوى وزارة المعارف، نجد الكثير من الأخطاء الإملائية، ففي إحدى الكراسات التي نشرتها

²⁴⁴ على سبيل المثال، في شهر أكتوبر 2006 زار رئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود أولمرت روسيا، وأراد أن يشكر الرئيس الروسي بوتين على حسن الضيافة، فكانت له زلة لسان إذ قال "بولتين" بدلًا من "بوتين". وبما أن كلمة "بولتين" باللغة الروسية تعني المرواغ والمخادع، فإن ذلك أثار ارتباكًا في نفوس الحاضرين.

الوزارة، كُتب اسم الشاعر "ناتن ألطزمان" بدلاً من "ناتن ألترمان". وفي امتحانات المردود في لغة الأم العبرية لتلاميذ صفوف الرابعة والثامنة (نوفمبر 2005) اشتكى التلاميذ الممتحنون من الأخطاء الإملائية، الأمر الذي أثقل عليهم المعنى المراد. وكذلك الأمر في التلفزيون، فهناك عدم توافق بين لفظ الكلمات وكتابتها، ففي أحد البرامج قال أحدهم *לאק האיש חמס* "صاح الرجل ظلمًا"، وكتبت الجملة *לאק האיש חמאס* "صاح الرجل حماس" (وتعني حركة حماس)²⁴⁵.

على الرغم من كل ذلك، هنالك محاولات للتخفيف من عبء التعثر اللغوي من خلال وسائل الإعلام، فالإذاعة العبرية (المحطة الثانية) تخصص يوميًا برنامجًا يدعى "لحظة لغة" يتناول الأخطاء الشائعة ويعطي الحلول الملائمة.

التحولات والتغيرات الدلالية والبنوية في اللغة

اللغة شأنها شأن الكائن الحي الذي يمر في مراحل النمو تارة، وفي مراحل التطورات والتغيرات تارة أخرى. فاللغة العبرية التي قطعت شوطًا طويلاً مرورًا بعصورها الذهبية إلى عصر الانحطاط وحتى يومنا هذا، حدثت فيها عدة تغيرات في قوالبها ودلالات مفرداتها بحكم الظروف والتطورات. ونستطيع أن نجمل هذه التغيرات التي حصلت على اللغة في إطارين رئيسيين، هما البنيوي والدلالي، كما هو مفصل أدناه:

أ. التجديد في الصيغ البنيوية: هنالك عدد لا بأس به من الصيغ الصرفية، كالأفعال والمصادر، يتم استعمالها في الكتابة المعيارية بطريقة مخالفة للمعاجم العبرية المعتمدة. ويتجلى الاختلاف في البنية اللغوية أو الاستعمال، كالتعدي واللزوم، أو يكون الاختلاف في دلالة هذه الصيغ الصرفية.

²⁴⁵ وفي مثال آخر، تحدث أحد الأشخاص أنه تعلم في صغره مهنة الخراطة *חרטוט* وكتب على الشريط *למדתי חרטוט* "تعلمت الخراط" (وتعني الكلام السفية).

وبعد أن شاع استعمال الكلمات، تمت الموافقة عليها من قبل مجمع اللغة العربية بالقاهرة. ومن الأمثلة على ذلك (فايد، 2003: 139-175): استقطاب من الفعل قطب على وزن استفعال، هاتف من الفعل هتف على وزن فاعل، الاستقواء أي إظهار القوة، الخوصصة بمعنى الخصخصة، العولمة ومنها تعلم، حملة على وزن فعلة، التصحر من الصحراء، وكلمات أخرى، كنهضوي وعشوائي ومؤدليج وكوادر وغيرها.

بالمقابل، هنالك العديد من المفردات التي انقرضت بسبب عدم استخدام الأشياء التي كانت تشير إليها. أمثلة على ذلك الكلمات: المربع والصورة والنوافج، التي كانت تشير إلى حياة الجاهلية، ولا تستخدم في الحياة المعاصرة، وإنما بقيت في بطون الكتب (عبد الواحد، 1971: 24). وحديثاً، يمكن ذكر ألفاظ كانت تشير إلى نظام الحكم الملكي في مصر قبل الثورة، ولكنها خرجت من الاستخدام اللغوي، مثل: باشا، وبيك، وحضرة والبرنس (عبد العزيز، 1996: 130).

ب. التغيرات في دلالة الكلمة: لقد حصلت عدة تغيرات في المجال الدلالي لألفاظ كانت تتناقلها الألسنة، ويمكن حصرها في النقاط الآتية:

1- تأكل في دلالة الكلمة: إن كثرة استخدام الكلمة في معنى مجازي تؤدي غالباً إلى انقراض معناها الحقيقي، وحلول هذا المعنى المجازي محله. فمن ذلك مثلاً: المجد، والأفن، والوغى، والغفران، والعقيقة (حماد، 1983: 136)²⁴⁶.

²⁴⁶ فيما يلي، شرح التغيرات في المعنى: المجد - معناه امتلاء بطن الدابة من العلف ثم استخدم في الامتلاء بالكرم والشهامة حتى انقرض معناه الأول، وأصبح معناها المجازي مستخدماً؛ والأفن - معناه قلة لبن الناقة، أصبح يدل على نقص في العقل؛ والوغى - هو اختلاط الأصوات في الحرب، أصبح يدل على الحرب نفسها؛ والغفران - كان يدل على الستر، أصبح يدل على الصفح عن الذنوب؛ والعقيقة - كان يدل

2- التغيير السلبي / الإيجابي في الدلالة: تتعرض الدلالات اللغوية للتغيير والتبدل؛ قد تكون دلالة لفظة إيجابية، ولكن بسبب تغيير الحالة الاجتماعية والسياسية والاستعمالي، تتغير إلى دلالة لا تُحترم، وهذا ما يُطلق عليه "انحطاط الدلالة" (أنيس، 1992: 156). مثال على ذلك، كلمة "قتل" في اللغة الفصحى تعني قضي عليه، أماته؛ ودلالاتها في اللغة المحكية تعني ضربه. ومن الكلمات التي انحط قدرها كلمة "دبس"، فقد كانت تعني العسل، وكانت تُستعمل في مقام التباهي والتفاخر، أما اليوم فتدل على الدبس النباتي الذي ينتج من التمور (عبد التواب، 1983: 216) ²⁴⁷.

وعلى العكس من ذلك، فإن الألفاظ ذات الدلالة الحسيسة أو الدنيئة قد تتعرض لبعض العوامل، التي تعمل على رفع شأنها، وترقيتها من الناحية الدلالية. على سبيل المثال، يذكر جرجي زيدان أن كلمة "باشا" أعجمية الأصل، وهي جزء من كلمة "البشمقدار" التي دخلت العربية، وتعني "عامل حذاء السلطان" (زيدان، د.ت: 102). أي أن كلمة "باشا" تعني "الحذاء"، وتعني كلمة "باشي" في اللغة الفارسية رئيس الخدم، وهي من اللغة التركية "باش" (المصري، 1984: 49).

3- تغيير المعنى في الموقف الذي يقال فيه: هنالك علاقة وثيقة بين اللغة والموقف الذي تقال فيه الكلمة. على سبيل المثال، كلمة "ابن حرام" - كلمة قاسية، حين يقصد بها

على الزغب الموجود على جسم الولد، تغير إلى ما يذبح من الماشية عند حلق ذلك الشعر (حماد، 1983: 136).

²⁴⁷ مثال آخر: كانت كلمة "حاجب" في العصور العربية القديمة في الأندلس تعني الوزير أو رئيس الوزراء، ولكن دلالتها اليوم لا تزيد كثيرًا عن دلالة الحارس أو البواب، مما يعني أنه أصابها الخسة والدناءة (أنيس، 1992: 157).

معناها الحرفي²⁴⁸، ولكنها قد تقال في بعض المواقف للإعجاب بما يقوم به شخص ما يتمتع بحيلة وذكاء. وكذلك كلمة "ابن أمه" - تقال للابن الذي يطيع أمه طاعة عمياء، ويرى به الكثير أمراً معيياً يجد من حرية الابن، ولكن معناها الحرفي لا غبار فيه، وهي عبارة عن علاقة طبيعية داخل الأسرة.

4- التغييرات في الاستخدام اللغوي: حصل في العصر الحديث تغير دلالي لبعض الكلمات، التي اختلف استخدامها اليوم، عما كانت تُستخدم فيه سابقاً، نذكر فيما يلي بعض الأمثلة (فايد، 2003: 172-175):

اللفظة	المعنى في العصر الحديث	المعنى في الماضي
استبانة	أسئلة موضوعية لدراسة معينة	استبان، أظهر
مخرجات	ناتج، عائد، مستخلصات	خرج
عسكرة	زيادة القدرة العسكرية ²⁴⁹	التجمع، الشدة
تمشيط	مشط المكان، أي فتشه بدقة	مشط الشعر
استنزال	اقتطاع، انقاص	أنزله وطلب نزوله
استنساخ	استخلاص خلية حية ومعالجتها بطريقة خاصة لإنتاج نسخة من كائن حي	طلب النسخ
منظومة	النظام المتكامل	نظم القصيدة أو الشعر التعليمي
التوأمة	توأم بين مدينة وأخرى - تاءم أي أوجد صلة وثيقة بينهما	مركب من مراكب النساء أصغر من الهودج لا ظلة له

²⁴⁸ هذه الكلمة موجودة باللغة العبرية بنفس المعنى الوارد بالعربية، وهي كلمة מַמְמָ = أي ابن حرام، ولد غير شرعي. ولكنها تستخدم بالعامة بمعنى شاطر! شيطان! داهية! وتستخدم مجازاً بمعنى شاذ أو خارج عن القاعدة (سغيف، 1985: مادة مַמְم).

²⁴⁹ استخدمت هذه اللفظة ("عسكرة الانتفاضة") في الانتفاضة الفلسطينية الثانية عندما غيرت الانتفاضة منحي المقاومة من استخدام الحجر، والانتقال إلى استخدام السلاح.

التواجد	الوجود	الوَجْد
---------	--------	---------

جدول رقم 7: اختلاف في الاستخدام الدلالي للمفردات في العصر الحاضر

5- التغييرات في التعابير الاصطلاحية: هنالك صور من التعبيرات في العربية تندرج تحت التعبير السياقي أو المتلازمات اللفظية²⁵⁰، والتي يعرفها بو سفينسين بقاموسه على أنها "مجموعة من الكلمات ذات معنى محدد، تميل إلى الارتباط ببعضها، في إطار ضوابط خاصة" (Bo Svensen, 1993: 99)، ومنها ما يدخل في إطار التعبير الاصطلاحي²⁵¹ Idiom.

في الواقع، لم تهتم المعاجم العربية الحديثة العامة بهذه التعبيرات الشائعة الاستعمال في وسائل الإعلام بما فيه الكفاية، وبما يحدث لها من تغيير في المنحى الدلالي والمورفولوجي. وأظهرت وفاء فايد في دراستها أن التغير في التعبيرات الاصطلاحية، التي تستخدم في الحياة المعاصرة تتمثل في أربعة أنماط، كما هو ملخص في الجدول الآتي (فايد، 2003: 202-204):

أنماط التعبيرات الاصطلاحية	الأمثلة
1. تعبيرات تحوي عناصر تغير استعمالها دلاليًا أو مورفولوجيًا	تدوير القمامة، تعميم وسائل الإعلام، اختناقات المرور، اختناقات سلعة، المقلب العمومي، التريبطات العائلية
2. تعبيرات تحوي كلمات	التصفية الجسدية، التغطية الصحفية، تعرية الفكر،

²⁵⁰ ويطلق هارتمان وستورك في معجمهما على هذا النوع أيضًا "المصاحبة اللغوية"، ويعرفانه بأنه "كلمتان أو كلمات تعامل بوصفها وحدات معجمية مفردة، تستخدم في لغة بعينها في ترابط مع بعضها، بحكم الإلف والعادة" (Hartmann & Stork 1973: 41).

²⁵¹ التعبير الاصطلاحي هو مجموعة ثابتة من الكلمات ذات معنى خاص، يختلف عن معاني كلماته المفردة خاصة (Bo Svensen, 1993:108).

أنماط التعبيرات الاصطلاحية	الأمثلة
اكتسبت معنى مجازياً	السوق السوداء، الحرب الباردة، التطهير العرقي، القبضة الحديدية، عناقيد الغضب، ضخ الأموال، جلد الذات، نبض الشارع، اختراق الضمائر، خيط التضامن
3. تعبيرات تحوي كلمات تكون جزءاً من تراكيب جديدة	كل واشكر، تمزيق الهوية، الخط الساخن، الصندوق الأسود، النزيف العلمي، رفيق السلاح، الانفتاح الاقتصادي / السياسي، الانتخابي، الدولاب الحكومي، اختزال القضية
4. تعبيرات اكتسبت معنى جديداً إيحائياً الصحف	عاصفة الصحراء، حدائق الشيطان، الصفراء، الخطوط الحمراء، تلبس الطواقي، خلو الرجل، غسل الأموال، القطط السمان، إغراق الأسواق، غصن الزيتون، رأس الأفعى، ربط الأحزمة، ثورة بيضاء، يركب الموجة، يعطي الضوء الأخضر.

جدول رقم 8: التغييرات في أنماط التعبيرات الاصطلاحية

يلاحظ أن بعض التعبيرات المذكورة أعلاه، أصلها من اللغة الإنجليزية، مثل:

* عاصفة الصحراء- وهو التعبير الذي أطلقتته قوات التحالف على غزو العراق في العام 1990.

* الحرب الباردة- تعبير عن العلاقات المتوترة بين حلف وارسو وحلف الأطلسي بعد الحرب العالمية الثانية.

* الصندوق الأسود- هو الصندوق الذي يرصد جميع العمليات والاتصالات أثناء سفر الطائرة في الجو.

التغيرات في اللغة العبرية

تمتاز العبرية كلغة مستحدثة بتحويلات ديناميكية سريعة، هذه التحويلات وليدة التغيرات الاجتماعية الحاصلة في المجتمع الإسرائيلي، الذي يمر في حالة تبلور بسبب تنامي الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية (فيشرمان، 2001).

تركزت التحويلات في العبرية أكثر في المجال البنيوي، وفي تركيبة الكلمات، ذلك أن العبرية في حالة تكون وتبلور ونشوء، لذا فإن الكثير من الكلمات تستبدل في كلمات أخرى. ولتوضيح هذه التحويلات نستعرض ثلاثة جداول تبين التحويلات التي طرأت على استخدام مفردات من العبرية الجديدة:

أ- تغييرات في الألفاظ قبل قيام إسرائيل: ألفاظ عبرية مكونة من كلمتين استعملت لفترة قصيرة جداً، ومن ثم استبدلت بكلمة واحدة قبل قيام الدولة (أفينيري، 1946: 48-54):

لفظ مكون من كلمتين	اللفظ البديل مكون من كلمة واحدة	المعنى بالعربية
בתי רגליים	נעליים	حذاء
בתי ספרים	ספרייה	مكتبة
בתי ידיים	כפפות	قفازات
בתי עיניים	משקפיים	نظارات
בתי פקידות השוטרים	משטרה	شرطة
בתי חיוון	תיאטרון	مسرح
בית מקלט נזירים	מנזר	دير
בית מועד	מועדון	نادي
בית ציור אור	מצלמה	آلة تصوير
בית אוכל	מסעדה	مطعم

جدول رقم 9: استبدال ألفاظ عبرية بأخرى تكونت قبل قيام الدولة

ب- تحولات في مفردات بعد قيام إسرائيل: هنالك بعض المفردات، التي كانت دارجة على الألسن في سنوات الخمسينيات من القرن المنصرم، تم الاستغناء عنها، واستبدلت بألفاظ جديدة منذ سنوات التسعينيات، وهي المستخدمة اليوم، كما هو مبين في العينات الآتية (وزارة المعارف، 1990: 16؛ فيشرمان، 2001: 38-39):

اللفظة في سنوات الخمسينيات	التحول البنيوي للفظ في سنوات التسعينيات	المعنى بالعربية
מקהלת נוגנים	תזמורת	فرقة موسيقية
גנב הכיס	כייס	نشال
עץ גופרית	גפרור	عيدان كبريت
ספר מילים	מילון	قاموس، معجم
מורה שעות	שעון	ساعة يد
תעודת מסע	דרכון	جواز سفر
מורה הרוחות	מצפן	بوصلة
בית ספר עממי	בית ספר יסודי	مدرسة ابتدائية
פנקס זיהוי	תעודת זיהוי	بطاقة هوية
צירים בכנסת	חברי כנסת	أعضاء كنيسة
פסי מסילה	פסי רכבת	السكة الحديدية (للقطار)
אוטו משא	משאית	مركبة ثقيلة
תשבץ עובדים	שיבוץ, השמה	كتاب تعيين

جدول 10: تحول في بنيوية مفردات معينة في سنوات التسعينيات

ت- المصطلحات العسكرية: قبل قيام الدولة اعتمدت اللغة العسكرية على ترجمة الوسائل القتالية من اللغة الإنجليزية اقتداء بالانتداب البريطاني في فلسطين. وبعد قيام الدولة أنشأ الجيش الإسرائيلي لجنة دائمة لتقرير المصطلحات العسكرية بمشاركة ممثلين عن المجمع اللغوي، مهمتها إضفاء الصبغة الشرعية على المفردات العسكرية المستحدثة، وإدخال تعديلات على المصطلحات القديمة (عقاييه، 1992).

غني عن التذكير، أن إسرائيل في صراعها مع الفلسطينيين تبتكر وسائل قتالية وتكتيكية تساهم في نشوء مصطلحات جديدة. وما يثير الاستغراب، أنه من خلال اطلاعي على المصطلحات العسكرية القتالية لم أعثر على أي كلمة أصلها من اللغة العربية. باعتقادي، يعود سبب ذلك إلى أن الجيش الإسرائيلي يحارب في مناطق عربية، وأن استخدام الأسماء العربية قد يؤدي إلى بلبلة في صفوف جنوده، هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى، يريد الجيش الإسرائيلي أن ينفرد بخاصيته وبتفوقه النوعي في ساحة القتال، بعيداً عن التأثير من العربية، التي يحارب الأفراد الناطقين بها.

هذا، وقد حدثت تحولات في أسماء بعض المصطلحات (عقاييه، 1992) نذكر منها:

المصطلح القديم	المصطلح الحديث
מקלט אטים בפני גז	חדר אטום
מלחמת גז	מלחמת אב"ד (אטומית, ביולוגית, כימית)
חיל הצי	القوات البحرية
מרכב	גוף המטוס
רקטה	صاروخ
אטים לכדורים	מחוסן בפני קליעים
חיל הספר	משמר הגבול
עזרה שנייה	כל בו לכלי תפירה
מטוס קרב	מטוס יירוט
מכונית כיבוי אש	إطفائية
מקבל קצבה	גמלאי
צבא סדיר	גייש نظامي
הפוגה	רגיעה
חשאי	שמור
גוש	נפה

جدول رقم 11 : مقارنة بين المصطلحات القتالية القديمة والحديثة

ث - لغة الكيبوتسات: إن التحولات والتغيرات اللغوية لم تحصل فقط على المستوى العام، وإنما حصلت في إطار أنماط الحياة الاجتماعية داخل شرائح في المجتمع الإسرائيلي، مثل الكيبوتسات. اتبع المستوطنون الأوائل الذين قدموا من الدول الاشتراكية نمط الحياة الاشتراكية، التي تعتمد الشراكة في العمل والمساواة التامة في الإدارة وتقسيم الوظائف بين الأعضاء (بن رفائيل، 2008). ولكن التغيرات العصرية والاقتصادية في الدولة أحدثت هزة أرضية في الكيبوتسات بعد أن تسلم الليكود مقاليد الحكم عام 1977، حيث كان لهذا التغيير السياسي الأثر المباشر على الناحية اللغوية.

في السابق، اشتمل القاموس اللغوي العربي على مفردات جسدت الأيديولوجية المتمثلة بالروح التعاونية والتفاني في العمل، نذكر فيما يلي بعض العينات لهذه المفاهيم (أبراهيمي، 1998) التي تربي عليها أعضاء الكيبوتس (المفاهيم القديمة):

בגדי בוקר: ملابس الصباح - الملابس التي يرتديها الأطفال، دون اختيارهم.

גיוס: تجنيد - العمل في الزراعة بعد انتهاء الدوام.

מחסן: مخزن - مبنى تستودع فيه حاجيات صغيرة توزع على الأعضاء مثل صابون ودخان.

סדר יום: جدول العمل - ورقة تعلق يوميًا في المساء على لوحة الإعلانات، توضّح المكان الذي سيشغل فيه العضو في اليوم التالي.

קבלת שבת: استقبال السبت - وجبة فاخرة مساء يوم الجمعة تتخللها بعض التراتيل الدينية احترامًا لقدوم يوم السبت.

أما اليوم، وبعد الانهيار الذي حدث في بنية الكيبوتس، فتستخدم مصطلحات رسمية تتلاءم مع الواقع الجديد. فيما يلي، بعض النماذج لمفردات مستخدمة في الكيبوتسات الحديثة (المفاهيم المستحدثة):

הקיבוץ המודרני: الكيبوتس المستحدث - الكيبوتس الذي مر في مرحلة الخصخصة.

זכויות: حقوق - الحقوق الاجتماعية التي يحصل عليها العضو وفقاً للأنظمة والقوانين المتبعة في الدولة.

עובדת סוציאלית: عاملة اجتماعية - كانت تعالج في السابق الحالات السلوكية الشاذة، والآن تعالج الفقراء.

פלורים: فجوات - الفروق في الرواتب بين الأعضاء.

רשת בטחון: شبكة أمان - الحد الأدنى من الدخل لعضو الكيبوتس يضمن له العيش بكرامة.

מוסד: مؤسسة - إدارة الكيبوتس، وهي كلمة تدل على الغرابة.

ومن التعابير التي تم استبدالها بأخرى، نذكر ما يلي:

תעביר קדומה		המטלח החדית	
חדר למגורים	غرفة للمسكن	דירה	دار سكن
מרכז פעילות השדה	مركز النشاطات الحقلية	מנהל	مدير
מזכיר הקיבוץ	سكرتير الكيبوتس	מנכ"ל, יו"ר הקיבוץ	مدير عام الكيبوتس أو الرئيس
קיבוץ	كيبوتس	קהילה	مجتمع، جمهور
חבר קיבוץ	عضو كيبوتس	אזרח מתגורר בקיבוץ	مواطن يسكن في الكيبوتس

جدول رقم 12 : تطور المفاهيم اللغوية في الكيبوتسات

ج- لغة الحريديم - الأرثوذكس: يشكل الحريديم الأشكناز 8٪ من التعداد السكاني في إسرائيل، كمجتمع مغلق ومتجانس يتميزون في ثلاث صفات: المظهر الخارجي (الملابس التقليدية السوداء)، والتوجهات السياسية (الانتخاب وفق توصية الزعيم الروحي)؛ ولغة التخاطب بينهم (لغة الييديش).

اكتسبت اليديش مكانة "اللغة المقدسة"، خاصة وأنها كانت الوعاء الذي حافظ على كيان هذه المجموعة، وهي بخلاف اللغة العبرية، التي تمثل بنظرهم لغة العلمانيين. وبهذا يتنكر الحريديم للمجتمع العلماني المحيط بهم، ويعتقدون أنه ما دام المسيح لم يأت، فإن دولة إسرائيل هي بمثابة منفى، وتشكل حلقة من مسلسل المنافي التي تواجه اليهود فيه في الدول الأوروبية.

اعتبر زعماء الحريديم أن العبرية لغة علمانية وضيعة، وأنها أفسدت اللغة المقدسة - لغة اليديش، التي يتحدثون بها (بن رفائيل، 1998). بالإضافة إلى اليديش، تولدت عند الحريديم لغة "لويشن قويدش" وهي العبرية التوراتية. والظاهر أن صراعاً داخلياً يدور في داخل البيت الإسرائيلي حول اللغة المستخدمة، فبينما يتحدث الرجال، كبار السن، في البيت بالييديش، والتي تشكل وسيلة اتصال مع الجالية اليهودية في العالم؛ نجد أنهم في المؤسسات الدينية يتحدثون بلغة لويشن قويدش التي يدرسون بها الفتية.

أما النساء فيتحدثن باللغتين - الييديش مع الأزواج، والعبرية مع الأولاد. كما أن تحدث النساء بالعبرية ناتج عن إدارتهن لشؤون البيت، ومسؤوليتهن عن المشتريات في الحوانيت. أما الأولاد فيتحدثون اللغة العبرية لأنهم يختلطون بالمجتمع الإسرائيلي أكثر من آبائهم. ولذا، كلما كان التواصل مع المجتمع الإسرائيلي أكثر كان استخدام العبرية أكثر.

عملياً، يظهر اليوم كبار السن تفهماً أكثر نحو العبرية، ويلاحظ أن الييديش بدأت باستعارة مفردات من العبرية الإسرائيلية المعيارية. وأن النظرة نحو العبرية آخذة بالتغير، فاستعمالها متزايد، ولكن بدرجات متفاوتة.

يعي الزعماء الدينيون مدى تغلغل العبرية في حياتهم اليومية فيحثون على التحدث بالييديش، ويحاولون التحدث مع أبنائهم في البيت بهذه اللغة، إذ يعتقدون أن التحدث الواسع النطاق بالعبرية سيشكل، بمرور الوقت، خطراً على الييديش وقد يؤدي إلى انقراضها من الشارع الحريدي.

هنالك فئة من الحريديم تدعى "حركة حباد"²⁵² والتي تبدي انفتاحًا أكثر نحو الدين اليهودي، وتدعو الشباب إلى العودة إلى الدين من خلال النشاطات التوعوية الدعوية، واستضافة الشباب العلماني في الأعياد والمناسبات، وفي عطل نهاية الأسبوع بهدف التأثير من النمط المعيشي الديني. في بعض الأحيان، تصبغ هذه النشاطات بطابع مستمد من القاموس العسكري (بن-رفائيل، 1998: 43)²⁵³.

دور المجمع اللغوية في حل الإشكالات:

أ- المجمع اللغوية في الدول العربية:

إزاء الإشكالات الجمة التي جابهت اللغتين، كان لا بد من إنشاء مؤسسة لغوية ترعى كل التغييرات الحاصلة فيهما، كما هو متبع في الدول الأوروبية، والمقصود هو إنشاء المجمع اللغوية. والمجمع اللغوية مؤسسات علمية تعنى باللغة، وهي قديمة المنشأ²⁵⁴، وكانت تُعرف باسم أكاديمية²⁵⁵.

²⁵² يسكنون في قرية "حباد"، التي تبعد بعض الكيلومترات من مدينة اللد. وكلمة "حباد" חב"ד بالعبرية هي اختصار للكلمات الثلاث - חכמה، בינה، דעת، أي حكمة وإدراك ومعرفة. و"حباد" هي حركة دينية تمثل إحدى طرائق الصوفية اليهودية التي تهدف إلى التوفيق بين التصوف والورع الديني من جهة، والتبحر في العلم والمعرفة من جهة أخرى، أسسها الحاخام شنيور زلمان ميلادي (1747-1812).

²⁵³ على سبيل المثال، السيارة التي تنقلهم لنشر دعوتهم تدعى שריון המצוות "مدرعة الفرائض"، والشباب الذين يعملون فيها يدعون קומנדו חב"ד "كومانندو حباد"، والناشطون بالحركة يدعون "جنود الضوء"، والأوامر التي تصدرها القيادة للشباب تدعى "أوامر الساعة".

²⁵⁴ نذكر منها: مجمع الإسكندرية في عصر البطالمة، ومجمع كارل الأكبر في ألمانيا، ومجمع ألفريد الكبير في إنجلترا.

²⁵⁵ هي كلمة يونانية الأصل، استخدمت اسمًا لروضة واسعة الأرجاء يملكها مواطن من أثينا اسمه أكاديموس، كان أفلاطون وتلاميذه يجلسون فيها يتدارسون ويتناقشون في موضوعات عدة، وأصبحت الكلمة بمرور الوقت تشير إلى الدراسة في المعهد. أما الدلالة الحديثة لكلمة "الأكاديمية" أو "المجمع"

وتعد الأكاديمية الفرنسية أشهر الجامعات في الدول الأوروبية الغربية، فقد تأسست عام 1635، وارتبط قيامها بالرغبة في دعم مكانة اللغة والثقافة الفرنسيتين في كل أنحاء أوروبا. اهتمت الأكاديمية الفرنسية بإعداد معجم للغة الفرنسية، وبإدخال تعديل على تهجئة عدد كبير من الكلمات.

أنشئت الجامعات اللغوية في العالم العربي في القرن العشرين، وساهمت هذه الجامعات في استيعاب الكثير من الكلمات المستحدثة. يقول محمود حجازي (1998: 56): إن الجامعات اللغوية العربية أقرب من حيث أهدافها وتكوينها وطريقة عملها إلى الأكاديمية الفرنسية. في الدول العربية أربعة مجامع لغوية وعلمية ريادية، أضيفت إليها مجامع أخرى²⁵⁶، ويجمعها اتحاد الجامعات اللغوية العربية، وهي على التوالي:

1- مجمع اللغة العربية في دمشق: تأسس أول مجمع لغوي عربي في دمشق سنة 1919 في عهد حكومة الملك فيصل للنهوض باللغة العربية بعد سنوات من الاحتلال العثماني،

فقد بدأت في عصر النهضة في إيطاليا، حيث أخذت كلمة "الأكاديمية" تدل على مؤسسة تضم الصفوة المختارة من اللغويين والمفكرين والعلماء والمؤرخين. وفي العربية اقترح ترجمة الكلمة إلى "دار الحكمة" و"بيت الحكمة" (يذكرنا في مكتبة "دار الحكمة" في بغداد في عصر هارون الرشيد والمأمون)، وقد استقرت ترجمتها على "مجمع" أو تعريبها بـ "أكاديمية" (انظر مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مؤتمر الدورة الأربعين، ص 95).

²⁵⁶ تأسست بمرور الوقت مجامع لغوية أخرى في العالم العربي وهي: المعجم السوداني الذي أنشئ عام 1993، أكاديمية المملكة المغربية، مجمع اللغة العربية الجزائري، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، مجمع اللغة العربي الليبي، مجمع اللغة العربي الفلسطيني. يذكر أن المجمع العلمي اللبناني تأسس عام 1927 بناء على قرار صدر من المجلس النيابي اللبناني للاهتمام بشؤون اللغة العربية، ولكنه توقف عن عمله بعد عامين بناء على قرار بإلغائه بدعوى التوفير المالي.

وأطلق عليه "المجمع العلمي العربي". اهتم المجمع بالآثار الإسلامية والتراث العربي وفي تعريب لغة الإدارة الحكومية ولغة التعليم، وإنشاء المدارس الأولى في سوريا²⁵⁷.

2- مجمع اللغة العربية في القاهرة: أُقيم المجمع المصري في القاهرة سنة 1932 بناء على مرسوم أصدره الملك فؤاد الأول، وبدأ مزاوله أعماله في الثلاثين من كانون الثاني عام 1934. ساهم المجمع في نشر المصطلحات العلمية، وأجاز مجموعة من الوسائل اللغوية لتنمية المصطلحات (مدكور، 1964)²⁵⁸، واهتم بإصدار معجمات وكتب التراث ودراسة اللهجات وبحث القضايا اللغوية (ضيف، 1984).

3- المجمع العلمي العراقي: تأسس هذا المجمع عام 1947. يهتم المجمع بسلامة اللغة العربية، وتشجيع نشر التراث العربي الإسلامي، ونشر الترجمة، ودراسة اللغات الأخرى في العراق²⁵⁹.

4- مجمع اللغة العربية الأردني: تأسس المجمع الأردني عام 1976، بناء على قرار أصدرته الإرادة الملكية. يعمل المجمع على صيانة اللغة العربية وسلامتها، وإحياء التراث العربي

²⁵⁷ يصدر المجمع مجلة فصلية تتناول شؤون اللغة العربية، وتوالى على رئاسته الأساتذة: محمد كرد علي (حتى سنة 1953)، خليل مردم بك (حتى 1959)، مصطفى الشهابي (حتى 1968)، حسني سبح (حتى 1986) وشاكر الفحام (حتى حزيران 2008).

²⁵⁸ يذكر مدكور (1964: 59-60) أن لمجمع اللغة العربية في القاهرة موقفاً من مصطلحات الحضارة، فقد مال إلى أن يسجل ما شاع من الألفاظ الأجنبية، ثم يهذبها، ويقر منها ما يرتضيه. وما لا سبيل إلى إقراره يدعه للزمن، لكي يصلح من شأنه، ويقوم من عوجه.

²⁵⁹ هذه اللغات هي: الكردية والسريانية والتركمانية (في عام 1963 صدر قانون أجاز تأسيس ثلاثة مجامع في العراق: المجمع العلمي العراقي، والمجمع العلمي الكردي، والمجمع العلمي السرياني. وفي عام 1978 صدر قانون ينص على إلغاء المجامع وانضمامها إلى المجمع العلمي العراقي). يذكر أن المجمع يصدر مجلة فصلية باسم "مجلة المجمع العلمي العراقي"، صدر العدد الأول منها عام 1950.

والإسلامي، ووضع المصطلحات العلمية وتوحيدها، والاهتمام بشؤون التعليم والمؤسسات العلمية واللغوية والثقافية داخل المملكة وخارجها، وجعل اللغة العربية تواكب متطلبات العصر الحديث في مجالات العلوم والفنون والآداب²⁶⁰.

أدى تعدد المجامع اللغوية والمعاجم المعربة إلى ضرورة التنسيق بينها من أجل العمل المتكامل في مجال المصطلحات وألفاظ الحضارة، إلى جانب المجالات الأخرى التي تهتم بها المجامع والمعاجم. نجمت عن كثرة المجامع التي لا تنسيق فيما بينها، مشكلة تعددية المصطلح العربي، أي وضع أكثر من مصطلح عربي مقابل المصطلح الأجنبي الواحد²⁶¹. ولدى انتشار الظاهرة، أدرك المجمعيون مدى حجمها ومخاطرها، ولذا تم التوقيع في أبريل 1970 على مشروع النظام الأساسي لاتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية ومقره القاهرة ليعالج هذه الظاهرة وغيرها²⁶². ويضم هذا الاتحاد جميع المجامع العربية القائمة.

²⁶⁰ يصدر المجمع مجلة دورية علمية متخصصة تحت اسم "مجلة مجمع اللغة العربية الأردني"، وهي مجلة محكمة تصدر مرتين في السنة.

²⁶¹ على سبيل المثال يذكر خسارة (1994: 205) ما ساقه المجمع مصطفى الشهابي حول تعدد المصطلحات العربية، إذ بين أن للمصطلح الفرنسي (frein) أحد عشر اسمًا عربيًا ومعربًا أطلقت على هذه الأداة المعروفة والمشهورة: ففي مجمع القاهرة تسمى (الكماحة)؛ وفي المعجم العسكري العراقي (الموقف)؛ وفي معجم عسكري سوري (المكبج)، في السيارات و (الماسك) في المدفعية؛ وفي المعجم الفرنسي العربي التجاري (اللجام)؛ وفي معجم بللو اليسوعي (الحكمة)؛ وفي المعجم الإنجليزي العربي لأنطون إلياس (الضابطة والكابحة)؛ وفي أحد الكتب الصناعية (المقف)؛ وفي مجموعة المصطلحات التي أقرها مجمع القاهرة (الفرملة)، وفي العدد الحادي عشر من مجلة المجمع المذكور (المعوق)؛ وهو على ألسنة كثير من أهل الصناعة (الفران).

²⁶² تشكلت لجنة في الثالث عشر من أيار عام 1971 لوضع نظام لهذا الاتحاد، وتم انتخاب الدكتور طه حسين - رئيس مجمع القاهرة - رئيسًا للاتحاد، والدكتور إبراهيم مذكور أمينًا عامًا له، والدكتور عبد الستار الجوارى عن مجمع بغداد، والدكتور عدنان الخطيب عن مجمع دمشق أمينين عامين مساعدتين.

ساهمت الجامعات العربية في إيجاد حلول كثيرة للقضايا العصرية التي داهمت اللغة العربية، وكرست جهودًا جبارة لخدمة المصطلحات العلمية، ذلك لتساعد العلماء والباحثين على التأليف العلمي باللغة العربية بغية مواصلة تعريب العلم والدراسة العلمية باللغة العربية. وبهذا الصدد يقول ستراكفیه (Sterkevyeh, 1970) إن هذه الجامعات عملت على إيجاد حلول حاسمة في استحداث كلمات أجنبية وتعريبها، أو على إحياء كلمات قديمة لاستخدامها في مجالات الحياة المعاصرة كالتيكنولوجيا والاتصال والإدارة، ودأبت على تطوير لغة العلم ولغة البحث في ضوء المنجزات والتطورات السريعة المواقبة لعصرنا الحاضر.

ب- الجامعات اللغوية في إسرائيل:

1- مجمع اللغة العبرية: تم التمهيد لفكرة إنشاء مجمع للغة العبرية في إسرائيل قبل قيامها. فقد تكونت لدى اليهود تنظيمات وجمعيات اجتهدت في تدعيم العبرية، ونشرها على جميع الأصعدة. ومن أهمها جمعية سفا بروراه (اللغة الواضحة) التي ضمت في صفوفها أعضاء من اليهود الأشكناز (الغربيين) واليهود السفارديم (الشرقيين)، وهدفت إلى بلورة لغة عبرية موحدة، وذلك من منطلق، أن توحيد اللغة يؤدي إلى توحيد الأمة اليهودية. واستبدلت الجمعية فيما بعد بما يسمى بـ "لجنة اللغة".

تأسست لجنة اللغة عام 1890 من أدباء ولغويين برئاسة إلعيزر بن يهودا؛ ووضع أعضاء اللجنة نصب أعينهم تحقيق الهدفين الآتين: استحداث ألفاظ جديدة لموضوعات مهنية في مجالي العلوم والتكنولوجيا، والمحافظة على نشر اللغة السليمة لفظًا وكتابة.

في سنة 1911 صاغ إلعيزر بن يهودا ودافيد يلين المبادئ التي تتبعها اللجنة في استحداث المفاهيم العبرية لتعبئة النقص المعجمي في اللغة²⁶³. ووفق هذه المبادئ، فقد أعطيت

²⁶³ تعتمد هذه المبادئ على المصادر الآتية (قداري، 2004: 57):

الأفضلية الأولى للكلمات التي تعود مصادرها إلى العبرية أو الآرامية؛ والأفضلية الثانية للكلمات المشتقة، من جذور مفردات موجودة في التوراة أو المشناة؛ والأفضلية الثالثة لكلمات مشتقة من جذور سامية (المقصود هنا اللغة العربية).

في سنة 1949 اجتمعت الهيئة العامة للجنة اللغة وقررت الإعلان عن إنشاء مجمع اللغة العبرية²⁶⁴. وفي عام 1953 انتهت مهام اللجنة، وتم إنشاء المجمع اللغوي العبري האקדמיה ללשון העברית²⁶⁵ بناء على قرار شرعته الكنيست في أيلول عام 1953، على أن يكون مقره في القدس. عملياً قامت لجنة اللغة بمهمة المجمع على مدى 63 عامًا (1890-1953) ساهمت خلالها بتدعيم مفردات اللغة العبرية في طور إحيائها.

أكسب هذا التغيير المجمع الصلاحية القانونية الرسمية في القرارات التي يتخذها، وهو بدوره زاد من الأنشطة اللغوية، من حيث استحداث الألفاظ وتأليف المعاجم التاريخية

أ. كلمات قديمة تكونت على مر العصور؛

ب. كلمات آرامية عندما لا تتوفر الكلمات العبرية؛

ت. تجديد كلمات حسب قواعد العبرية والقياس اللغوي من جذور عبرية، أو من جذور سامية؛

ث. كلمات غير سامية، شريطة أن تكون متواجدة في المصادر العبرية.

وأضيفت لهذه المبادئ الملاحظة التالية: "تحاول اللجنة أن تستحدث المفردات الجديدة والتي ليست صحيحة من ناحية القواعد فحسب وإنما أيضًا سلسلة في بنيتها الخارجية، وفي رنين صوتها، وتعتمد على روح اللغة".

²⁶⁴ وجاء في البند الأول: لجنة اللغة العبرية ستحل من أجل أن ينشأ مكانها ومن داخلها مجمع اللغة العبرية. سيدخل هذا القرار إلى حيز الوجود عند إنشاء المجمع في جلسته الأولى، وحتى ذلك الحين تستمر اللجنة في وظيفتها. تصرح لجنة اللغة بأن المجمع هو وارثها الشرعي من حيث الحقوق والواجبات جميع.

²⁶⁵ في العبرية استخدموا كلمة "أكاديمية"، كما هي في مصدرها الأجنبي، ولم يعملوا على ترجمتها إلى العبرية.

للعبرية القديمة والعبرية الحديثة، التي تبلورت بعد فترة الإحياء (موراغ، 2004: 161-162).

إن الأهداف التي يسعى المجمع لتحقيقها ثلاثة (بن حاييم، 1992: 111-112)، وهي:

أ. العمل على جمع ودراسة مخزون مفردات اللغة العبرية على جميع فترات وطبقاتها.

ب. العمل على دراسة مبنى اللغة العبرية، نشأته وتطوره.

ت. توجيه تطور اللغة العبرية حسب نهجها الطبيعي، وحسب احتياجاتها وإمكانياتها في جميع المجالات البحثية والعملية في المفردات والقواعد والخط والإملاء والنسخ.

يدعي بن حاييم (المصدر السابق: 239) أنه حدث تغيير في مهام مجمع اللغة العبرية اليوم؛ إذ لم يعد المجمع مؤسسة مؤهلة ومطورة للمفردات، وإنما مؤسسة موجهة لتطوير اللغة العبرية، فالمجمع هو المؤسسة الرسمية التي تعالج القضايا اللغوية في استحداث كلمات جديدة، ولفظها وكتابتها بالشكل الصحيح، وذلك حسب الأسس اللغوية المتبعة في اللغة العبرية، بمعنى التأكيد على "العبرنة"²⁶⁶. ويعنى المجمع في دراسة تطور اللغة العبرية وبحث مبنى اللغة في أمور تخص الصرف والنحو. وهو يشرف على إصدار عدة دوريات لغوية مثل: لشونينو (לשוננו) = لغتنا، لشونينو لعام (לשוננו לעם) = لغتنا للشعب، لميد لشوننا (למד לשוננו) = علم لغتنا.

يجب التأكيد على أن وزير المعارف والثقافة هو الذي يوقع على قرارات أعضاء المجمع اللغوي، وعليه فهي تلزم جميع مواطني إسرائيل باستخدام المفردات التي تم المصادقة عليها من قبل إدارة مجمع اللغة العبرية.

²⁶⁶ على سبيل المثال، عندما استحدثت عملة اليورو لدول الاتحاد الأوروبي، شاع في استعمال كلمة "يورو" كما هي في اللغة الأوروبية. وهنا تدخل المجمع اللغوي، وطلب من الناس استعمال اللفظ "إيرو" الملائم للكنة العبرية.

2- مجمع اللغة العربية في إسرائيل: كانت هنالك عدة محاولات من قبل أكاديميين عرب متخصصين باللغة العربية لإنشاء مجمع لغوي خاص بالمواطنين العرب في إسرائيل. وفي أيار 2002 تم تشكيل لجنة تشرف على الإعداد لهذا المجمع، وأعلنت عن إنشائه دون أن يحظى بميزانيات خاصة به²⁶⁷. مارس أعضاء اللجنة وشخصيات تربوية وسياسية الضغط على الوزراء وأعضاء الكنيست لاتخاذ قرار يعترف به بالمجمع كمؤسسة رسمية، وفي نهاية المطاف تم تأسيس مجمعين:

المجمع الأول: مجمع اللغة العربية في إسرائيل في 21 آذار 2007 أصدرت الكنيست قانوناً يقضي بإقامة "مجمع اللغة العربية في إسرائيل"، ليهتم بشؤون اللغة العربية وبعلاء شأنها على اعتبار أنها لغة معترف بها رسمياً في الدولة. نظمت سلطات المجمع وأعماله وفق قانون المؤسسة العليا للغة العربية، وهي مشابهة بدرجة كبيرة لسلطات وأعمال مجمع اللغة العبرية. تتلخص أهداف المجمع بالنقاط الآتية²⁶⁸:

- دراسة اللغة العربية بفتراتها وفروعها المختلفة.
- التجديد في الصرف، النحو، الثروة اللغوية، اللفظ، النسخ وكتابة اللغة العربية، وذلك لمواجهة التحديات اللغوية وملاءمة عصر التقنية والحوسبة المتقدمة.
- تحرير قواميس عامة وخاصة.
- بحث الثقافة العربية، ويشمل مجالي الأدب والشعر.
- إقامة علاقات تبادل ومعرفة مع مجمع اللغة العبرية، ومع معاهد بحوث اللغة العربية والعبرية في إسرائيل والعالم.

²⁶⁷ عمل هذا المجمع خلال خمس سنوات، وكان رئيسه الأول سليمان جبران ورئيسه الثاني فهد أبو خضرة. وقد أقيم قبله مجمع في أواسط سنوات التسعينيات، كان رئيسه فهد أبو خضرة، تلتته لجنة لغوية كان رئيسها سليمان جبران.

²⁶⁸ انظر المعلومات حول المجمع في ويكيبيديا الحرة.

• تعاون مع وزارة التربية والتعليم، ومع معاهد التعليم العالي، وإعطاء مشورة لها في مجال عملها.

• نشر تقارير وأبحاث وتنظيم مؤتمرات حول مجال عمل المجمع²⁶⁹.

والمجمع الثاني: مجمع القاسمي للغة العربية وآدابها- في تاريخ 22.11.2008 أعلن في أكاديمية القاسمي في باقة الغربية عن انطلاقة مجمع القاسمي للغة العربية وآدابها الذي أنشئ بمبادرة من إدارة ومجلس أمناء أكاديمية القاسمي²⁷⁰. وعن الغاية من تأسيس هذا المجمع:

"ينصب اهتمام المجمع بشكل أساسي على اللغة العربية، قديمها وحديثها، ودراستها في سياقاتها المختلفة: اللغوية، الأدبية، العلمية، الاجتماعية والسياسية، وكذلك على تلبية كافة الاحتياجات اللغوية للناطقين بالضاد، وتقديم الاستشارة العلمية والبحثية في كل ما يتعلق بعلوم اللغة والتراث الحضاري العربي والإسلامي . وتحقيقاً لهذه الغايات يسعى المجمع إلى استقطاب خيرة الباحثين في المواضيع ذات الصلة، بالإضافة إلى المتخصصين بالعلوم الأخرى (الإنسانية، الاجتماعية فضلاً عن العلوم الدقيقة)، وإلى تأليف لجان مختلفة

²⁶⁹ انتخب بروفيسور محمود غنايم رئيساً للمجمع، وحدد مقره في مدينة حيفا. قام المجمع بعدة نشاطات، منها دعم أبحاث علمية ذات علاقة باللغة العربية، وتوزيع منح على الطلاب الذين يدرسون العربية في المراحل العلمية الأكاديمية المتقدمة، وإقامة مؤتمر علمي حول اللغة العربية تحت عنوان "اللغة العربية في إسرائيل: واقع وتحديات" في النصف الثاني من شهر تشرين أول 2008.

²⁷⁰ يرأس المجمع الدكتور ياسين كتاني، ومقره في مدينة باقة الغربية. في السنة الأولى لإنشائه، قام المجمع بإصدار عدة كتب، ودعم أبحاث باللغة العربية، وتوزيع منح لطلاب يدرسون العربية في معاهد عليا. وفي مارس 2009 عقد المجمع المؤتمر الأول تحت عنوان "مقاربات في دراسة النحو العربي وتدرسه"، عقد المجمع في شهر كانون أول 2009 يوماً دراسياً بمناسبة الاحتفالية السنوية، تضمن محاضرات في اللغة والأدب الحديث.

تتناول اللغة من كافة جوانبها وأبعادها، وتعكف على تشخيص مشكلاتها مشفوعة بالاقتراحات والتوصيات²⁷¹.

إجمالاً لهذا الفصل نقول بأن مكانة اللغة تتأثر بالأوضاع السياسية والاجتماعية للناطقين بها، وتستمد قوتها العلمية والعملية من غيرتهم وحرصهم عليها كثروة قومية؛ فالعبرية والعبرية تلتقيان في عدة صفات مشتركة بحكم انبثاقهما من أصل واحد. بالمقابل، نجد بينهما أوجه اختلاف عديدة، نشأت تدريجياً مع التطور اللغوي والزمني.

وقعت العبرية في دائرة الصراع الخارجي مع الاستعمار والكتابة باللغات الأجنبية، وفي دائرة الصراع الداخلي مع اللغة العامية واللهجات المحلية. أما بالنسبة للعبرية فإن الخليط اللغوي فرض سلطانه على اليهود حقبة طويلة من الزمن، فلم يستطيعوا التخلص منه إلا في أواسط القرن الماضي والقرن الحالي، حيث تم إحياء العبرية وإعادة مجدها الغابر وأصبحت لغة الكلام والتخاطب والإدارة والصحافة- المكتوبة والمرئية والمسموعة والأدب على صنوفه وأشكاله، ولغة الدراسة في المدارس والمؤسسات الأكاديمية.

لاحظنا في هذا الفصل، أيضاً، أن قضايا عصرية مشتركة واجهت اللغتين العربية والعبرية، وأن كل لغة حاولت مجابهة العضلات التي وقفت أمامها بطرقها الخاصة التي تتلاءم مع مكانتها وبنيتها اللغوية. بحثت العبرية، كلغة حديثة، عن الحلول السهلة والسريعة، خاصة وأنها بحاجة ماسة إلى توسيع مخزونها اللغوي لإثراء معجمها، هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى، لسد النقص في المفردات غير المتواجدة في العبرية.

بالمقابل، فإن العربية تعاني من مشاكل أكثر تعقيداً من العبرية، مثل الأمية، والغزو اللغوي الأجنبي والمفاهيم العلمية الحديثة والمستحدثة. إن حلول هذه المشاكل صعبة للغاية، خاصة أن العربية لغة عريقة ويريد القارئون عليها المحافظة عليها لارتباطها بالقرآن الكريم.

²⁷¹ <http://www.qsm.ac.il/news/images>

الفصل الرابع

هيمنة العبرية وتهميش العربية

تعزير مكانة اللغة العبرية

ارتكز المشروع الصهيوني على ركيزتين أساسيتين وهما: إحضار اليهود إلى فلسطين، وإحياء اللغة العبرية، وجعلها لغة الاتصال الرئيسة بين اليهود على اختلاف مللهم. ويدعي سبولسكي أن الحركة الصهيونية ربطت هويتها باللغة العبرية (Spolsky 1996: 18)، وأن المنحى الأيديولوجي الذي انتهجته هو خلق هوية جديدة لليهودي الإسرائيلي، هذه الهوية تختلف كلياً عن هوية اليهودي الذي قدم بها من الخارج. إن تحقق هذا الهدف جاء بفضل اللغة العبرية بما حملته من رموز قومية.

لم يكن حضور العبرية في فلسطين، منذ نهاية القرن التاسع عشر، ظاهرة عابرة، وإنما لها جذور عميقة جاءت على حساب العربية. وموضوع هذا الفصل هو العبرية الناشئة التي أخذت تزاخم العربية على الحيز الفلسطيني، وتغلبت عليها من خلال عبرنة المعالم الفلسطينية وتهميش اللغة العربية.

اتخذت الحركة الصهيونية عدة طرائق لتعزير مكانة اللغة العبرية في المجتمع اليهودي قبل قيام الدولة وبعدها:

أ- فترة الإحياء قبل قيام إسرائيل.

لقد تجلّى الإحياء في هذه الفترة في المجالات الآتية:

1- تمجيد شخصيات ضحّت بنفسها من أجل الوطن: تبنت الحركة الصهيونية الدعاية القومية لترسيخ جذور اليهودية. واستهدفت هذه الدعاية حياة الأفراد الشخصية التي رأت بهم الرمز في التضحية خدمة للوطن. على سبيل المثال، لا الحصر، يظهر هرتسل في المصادر العبرية بأنه ملك أسطوري؛ وبياليك على أنه شاعر نبي وذلك تقديرًا لأشعاره

التي أثارت المشاعر الوطنية؛ وترومبلدور²⁷² بالبطل الأكتع (بترت يده اليمنى في روسيا)، حيث جاء إلى فلسطين وناضل لنصرة الكيان اليهودي؛ ويهودا بن إليعزر مثال للتضحية، إذ ضحى بعائلته من أجل قدسية اللغة والوطن.

مما لا شك فيه، أن هنالك أشخاصًا لا تقل أهميتهم عن المذكورين أعلاه، ولكن الهدف من الدعاية هو تسليط الضوء على أفراد معينين حتى يشكلوا نموذجًا يحتذى به للآخرين، من جهة؛ ومن جهة أخرى، تعزيز الجذور التاريخية وربط الماضي بالحاضر، أي بالجيل الجديد.

2- التركيز على لفظة "عبري": سعت الحركة الصهيونية إلى إثارة المشاعر الوجدانية من خلال التركيز على كلمة "عبري"، "لغة واحدة (العبرية)، وشعب واحد (اليهود)" (كرمي، 1997)²⁷³. جاء هذا التوجه ليدل على حيوية اللغة الجديدة، وعلى مدى مساهمتها في بناء مجتمع جديد، وعلى الابتعاد عن اللغات الأخرى التي ترمز إلى حياة الشتات.

3- العيش في أطر اجتماعية مشتركة: شجعت الحركة الصهيونية الحياة في أطر اجتماعية مشتركة انبثقت عنها الحياة الاشتراكية في المجمعات السكنية في الكيبوتسات والمستوطنات. تقوي هذه النماذج الحياتية عنصر المسؤولية الجماعية بين الأفراد وتفرض

²⁷² هو يوسف ترومبلدور ولد في روسيا عام 1880 وقتل عام 1920 بالقرب من مستوطنة تل - حاي. عكف على تشكيل قوة عسكرية لليهود في فلسطين، ودعا إلى تدريبهم على العمل الزراعي، وتعليمهم اللغة العبرية بجانب التدريب العسكري. وحيكث حول مقتله قصص وأساطير جعلت منه بطلاً قومياً، يرمز إلى التضحية بالنفس من أجل إنشاء الكيان اليهودي. وتخليداً لذكراه سمي زئيف جابوتنسكي حركته "بيتار"، وهي اختصار الحروف الأولى من اسم ترومبلدور (بريت يوسف ترومبلدور)، أي تحالف يوسف ترومبلدور.

²⁷³ حول هذه الفكرة انظر، أيضاً، في الفصل الثاني.

عليهم التحدث بالعبرية. يجب التأكيد، على أن إحياء اللغة لدى اليهود جاء مسبوقاً بتغيير اجتماعي في النمط الحياتي انصب في خانة الانصياع للمبادئ الصهيونية الجديدة التي تفضل المصلحة العامة على مصلحة الفرد. كان لهذا الوضع الاجتماعي اليد الطولى في نهوض اللغة العبرية ونشرها.

ب- سيطرة العبرية بعد قيام إسرائيل

تستمد مكانة أي لغة وقوتها من مكانة وقوة النظام أو الأنظمة السياسية الرسمية التي هي لغتها. أرست الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة دعائم اللغة العبرية في إسرائيل، وقد تقبلها المهاجرون الجدد "كلغة وطنهم ولغتهم الأم في اتخاذ هويتهم الجديدة كيهود إسرائيليين" وفق ادعاء سبولسكي وشوهامي (Spolsky & Shohamy, 1999: 83) ²⁷⁴.

وكما ذكرنا سابقاً، فإن قيام إسرائيل كان المنعطف المهم في إعلاء شأن اللغة العبرية، وفرض سيادتها في الحياة اليومية والمدارس والقضاء والجيش والعلوم التقنية الحديثة وغيرها (قداري، 1978: 8). كما واكب التطور اللغوي التغيرات التي نجمت عن الواقع السياسي الاجتماعي، بمعنى أن الأحداث اليومية الديناميكية الخاصة التي تميز دولة إسرائيل، ولدت مفردات كثيرة أصبحت جزءاً هاماً من المعجم اللغوي.

لقد عملت الدولة على ترسيخ العبرية في الأطر الآتية:

- 1- تعليم العبرية بشكل مكثف: ألزمت موجات الهجرة المتتالية التي ملأت إسرائيل بعد قيامها صناع القرار باتخاذ إجراءات سريعة لاستيعاب المهاجرين الجدد، ووضعت قضية

²⁷⁴ يقول عادل العطاري (د.ت.: 74) لقد تجاوزت اللغة العبرية النطاق الذي عاشت فيه قروناً كلغة تقليدية، لتلعب دور اللغة القومية، فلم تعد لغة دين وشعائر وطقوس فحسب، بل أصبحت أداة لخلق الوحدة داخل المجتمع الإسرائيلي، وأداة لتعميق الانتماء والولاء للأرض.

تعليم العبرية في مقدمة سُلم الأولويات كمهمة مقدسة من الدرجة الأولى²⁷⁵.

2- التركيز على بناء هوية اليهودي - الإسرائيلي: تكثرت الجهود الحثيثة التي بُذلت من أجل سيادة العبرية بعد إقامة إسرائيل بالنجاح. فقد اتبع صناع القرار، وعلى رأسهم دافيد بن غوريون، سياسة "بوتقة الصهر" والتي هدفت إلى توحيد الأمة اليهودية على مختلف انتماءاتها العرقية وتحويل اليهود إلى "إسرائيليين". وأبدى بن غوريون رأيه بضرورة استعمال العبرية كغاية عليا في بناء الدولة، ويقول في ذلك (بن غوريون، 1952: 81)²⁷⁶:

إن القناة الأولى والرئيسة للانخراط النفسي في حياة الدولة والتضامن مع غاياتها، لا يتأتى إلا بمعرفة اللغة العبرية.

أصبحت اللغة العبرية الرمز الرئيسي والناقل لهوية قومية جديدة، بينما تم تهيمش الهويات القديمة التي أحضرها المهاجرون اليهود الجدد من الشتات إلى فلسطين، وكذلك تم تهيمش اللغات الأم أو تركها كلياً (Spolsky & Shohamy, 1999: 82). ومارست الحكومات الإسرائيلية الضغط على المهاجرين للتخلي عن لغاتهم الأم الأصلية، واتباع سياسة "أحادية اللغة"، وقد نُظر إلى المحافظة على اللغات الأم، أو حتى اللغات الأخرى، بأنه تعبير عن الكراهية ومقاومة الهوية القومية الجديدة (Spolsky & Shohamy, 1994)؛ (Shohamy 1999).

²⁷⁵ انظر حول ذلك في الفصل الثاني.

²⁷⁶ ويضيف بن غورون في هذه المسألة قائلاً (بن غوريون، 1975: 3): "أدت عودة بني إسرائيل إلى أرضهم وتجديد استقلالهم إلى تحول في فكرهم من خلال اكتسابهم هيئة طلائعية جديدة: الهجرة إلى البلاد من أجل بنائها وازدهارها بقوة العمل والإبداع العبري. فاللغة العبرية القديمة نفضت الغبار عنها، وأصبحت تعيش حياة جديدة مكتوبة ومنطوقة. وتكون أدباً عبرياً علمانياً... وهكذا الإنسان اليهودي الذي يؤمن بقدرته على السيطرة على مصيره وبقدرته على تغيير مصير شعبه".

3- الاعتراف بالعبرية كلغة إسرائيل: إن الحدث الأكبر في تطور العبرية هو أنها أصبحت لغة تلبية الاحتياجات الحياتية للدولة، ومسؤولة عن إدارة الشؤون الحياتية على المستويين الرسمي والشعبي. عن انتشار اللغة يقول سبولسكي وشوهامي (Spolsky & Shohamy, 1999: 13):

يفهم غالبية الإسرائيليين العبرية ويتحدثون بها، ويخرج عن هذه القاعدة العرب المسنون والمهاجرون حديثاً والسياح والعمال الأجانب. أحياناً، يتحدث بعض المهاجرين داخل نفس المجموعة بلغة البلاد الأم التي قدموا منها، ولكن لدى مخاطبتهم الإسرائيليين فهم يتحدثون بالعبرية. يمتاز الإسرائيليون بالسيطرة على اللغة، بحيث ينتقلون من العبرية إلى لغة أخرى وبالعكس بمرونة جيدة.

4- عبرنة الأماكن الجغرافية: بالإضافة إلى تبديل أسماء المهاجرين (Stahl 1994)²⁷⁷، كان هنالك اهتمام، أيضاً، في إعطاء أسماء للأماكن والمواضع الجغرافية التي هدفت إلى تعزيز منحنى الأيديولوجية العبرية (مرعي، 2006). في دراسة عن أسماء الشوارع في 23 مدينة، يبين بار-جال (Bar-Gal, 1989, 1993) بأن الأسماء اشتملت على الآباء الصهيونيين، والأبطال العسكريين، والشعراء، والقوميين وغيرهم.

5- وضع العبرية على الأجندة القومية مثل الإعلان سنوياً عن يوم اللغة العبرية: في الرابع من يناير، يصادف ذكرى وفاة إلعيزر بن يهودا، والذي أعلن على أنه يوم اللغة العبرية في

²⁷⁷ يدعي ستال (1994) أن سياسة إطلاق أسماء عبرية على المهاجرين الجدد خدّم المنحنى اللغوي- القومي الذي بدأ يتراجع منذ الثمانينيات. فحين كانت الأيديولوجية الصهيونية أقوى عبرت الأسماء الشخصية عن المثل العليا والتطلعات، مثل إيتان (قوي)، غيثولا (الخلاص)، تحيا (الإحياء). ولاحقاً، أي بعد تأسيس إسرائيل، أراد الناس أن يُعبروا عن تمسكهم بالأرض، فتم اختيار أسماء مثل تومر (شجرة النخيل)، فيرد (وردة) وزئيف (ذئب). انظر، أيضاً (أمارة ومرعي، 2004: 28).

إسرائيل. وفي 4.1.2005 خصصت الكنيست جلسة لهذه المناسبة، تناولت قضية استخدام اللغة العبرية والتأثيرات اللغوية عليها، خاصة من اللغتين الإنجليزية والعربية²⁷⁸.

يُذكر أن الحركة الصهيونية استمرت في دعم اللغة العبرية، أيضًا، بعد قيام إسرائيل. ففي المؤتمر الصهيوني السابع والعشرين الذي عُقد عام 1968 تم التأكيد على المحافظة على أصالة الشعب اليهودي بتنمية التعليم اليهودي واللغة العبرية، وبث القيم الروحية والثقافية اليهودية (الموسوعة الفلسطينية، 1984: 329).

تهميش اللغة العربية

كما ذكرنا، بعيد إنشاء إسرائيل عام 1948، كان الاهتمام مركزيًا بالعبرية كلغة رسمية للدولة الحديثة باعتبارها إحدى أعمدة الهوية الإسرائيلية. وبالتوازي مع تخليق لغة جماعية تتوافق عليها طوائف وجماعات اليهود القادمين من بقاع مختلفة من العالم، كان لا بد أيضًا من طمس اللغات الأصلية وتهميشها إلى أبعد مدى.

نفذت إسرائيل سياسة "التوحيد اللغوي" على جميع اليهود، الجدد والقدامى. وخرج عن هذا الإجماع القومي اليهود الأرثوذكس (الحريديم)، الذين يتعلمون ويتحدثون بلغة اليبديش؛ والعرب الفلسطينيون الباقون في موطنهم، الذين يتحدثون بلغتهم الأم العربية. لم يكن التسامح الذي أبدته إسرائيل تجاه هاتين الفئتين صدفة، بل كانت الاعتبارات مدروسة للغاية، وذلك حتى لا تقع في صراع لغوي لا تحمد عقباه. فالصراع مع الفئة

²⁷⁸ انبرى رئيس الحكومة الأسبق، أريئيل شارون، للدفاع عن العبرية، وهاجم أصحاب الشركات ومحطات البث والحوانيت التي تتخذ من الإنجليزية أسماء لها. حيث قال: "لا أستطيع فهم تهافت محطات البث على استخدام الأسماء الأجنبية البعيدة عن البهاء والعظمة مثل "هوت" و"يس"، ألا توجد أسماء عبرية مناسبة؟ ألا يوجد في اللمنة الغربية نوع من التزييف، وإلغاء الذات وعدم الاحترام... كيف نتج التعبير المهجن "يا الله باي"، ألا يوجد له تعبير لائق في العبرية هو "شالوم" (سلام)؟ (معاريف، 14.1.2005).

الأولى هو صراع داخلي، تعود جذوره إلى العامل الديني، فلغة اليبديش لدى الحريديم الإشكناز اكتسبت، كما ذكرنا، المكانة الدينية المقدسة لأن جميع أسفارهم وتراتيلهم الدينية دُونت بهذه اللغة²⁷⁹.

أما الصراع مع الفئة الثانية فهو صراع خارجي، ويتخذ منحىً قومياً يعطي مجالاً للدول الأخرى التدخل فيه، ويوقع إسرائيل في فخ الاتهام بأنها تتبع أساليب "القمع اللغوي"، مثلما هو الحال في الأنظمة الديكتاتورية، وبأنها دولة عنصرية. يضاف إلى ذلك، أن الأقلية العربية تنتمي إلى ديانات أخرى غير اليهودية، مما يثير قضية "من هو يهودي؟" بالنسبة لإسرائيل، هذه المسألة أخطر من الممارسة اللغوية نفسها. إن اعتناق الديانة اليهودية ليس بالأمر السهل، وكل من تدور الشكوك حول يهوديته أو من يريد أن يتخذ اليهودية ديناً له وهو من غير اليهود، يمر بمراحل صعبة تسمى "تهويد"^{٦١١}.

مما لا شك فيه، أن زعماء الحركة الصهيونية خاصة، وصناع القرار في إسرائيل عامة، كانوا على درجة عالية من الوعي والدراية تجاه اللغة العربية، حيث عملوا على جعلها لغة رسمية كامتداد للشرعية التاريخية التي اكتسبتها في عهد الانتداب. أدى هذا الأمر إلى تفهم شرعية إسرائيل، كدولة يهودية في الحلبة الدولية من جهة؛ ومن جهة أخرى، ساهمت هذه السياسة في خلق درجة عالية من الاستقرار الداخلي في صفوف المواطنين العرب الذين نظروا إلى إسرائيل كحقيقة قائمة. ويؤكد سبان (2002: 263) على أن إسرائيل اختارت حلاً محكماً، بدلاً من إلغاء مشروعية العربية عملت على تفريغ مكانتها الرسمية في جميع مجالات الحياة العملية.

²⁷⁹ يذكر فيشمان (Fishman, 1991: 314) أنه في فترة إحياء اللغة العبرية كان هنالك تخوف من اليهود الأرثوذكس بعدم موافقتهم على عملية الإحياء، وذلك بسبب تمسكهم بلغة اليبديش باعتبارها لغة مقدسة، وأن استمرارية التحديث بها غايته عدم تدنيس اللغة المقدسة.

ويذكر فراغمن (2007: 32) بأن هليل وسبولسكي يدعيان بأن السياسية التي اتبعها صناع القرار في دعم العبرية كلغة رسمية أولى، حرمت اللغة العربية من أن تكون لغة الاتصال القومية (Hallel & Spolsky, 1993)، ودفعت بها إلى هامش المجتمع الإسرائيلي. ويدعي كريمر، بأنه تم النظر إلى العربية على أنها لغة أقلية، تدرس كلغة أجنبية، منقطعة عن السياق الاجتماعي الثقافي والتاريخي المطلوب (Kraemer, 1990).

على أرض الواقع، لا تحظى العربية بالمكانة التي تتمتع بها العبرية، وهي أقل منها من حيث المكانة والموارد والفرص، فعلياً، العبرية هي اللغة المسيطرة وبلا منازع (سموحه، 1996: 282). ويذكر برزيلاي أن المؤسسات الحكومية، ومن ضمنها محكمة العدل العليا، لا تنشر تقاريرها إلا بالعبرية (Barzilai, 2003: 111). أحياناً، تنشر الحكومة القوانين بالعربية، وإذا ما تم ذلك، فإنه يكون بعد عدة أشهر من إصدار القانون نفسه بالعبرية (روبينشتاين، 1991: 91).

لا تظهر معظم النماذج الرسمية التي تصدرها الوزارات في الصيغة العربية (سبان، 2002: 265). أما على طوابع الدولة والعملات المعدنية والورقية فتظهر الكتابة بالعربية إلى جانب العبرية²⁸⁰، بينما جواز السفر مصوغ باللغتين العبرية والإنجليزية فقط.

لكن على المستوى الرسمي، تحظى العربية، حسب رأي سبان وأماره، بحماية قانونية تنحصر في المجالين الآتين (Saban & Amara, 2004):

الأول، حماية ناجمة من حق التعددية الإثنية، إذ يتعلم الطلاب العرب في مدارسهم بلغتهم العربية الأم، ويحظون بدعم من الميزانيات العامة المخصصة لجهاز التعليم. مما لا شك فيه، أن القرار الذي أعطى الطلاب العرب حق التعلم بلغة الأم هو الذي حافظ على استمرارية

²⁸⁰ تجدر الإشارة بأنه لا تظهر شخصيات وطنية عربية على العملات أو على طوابع البريد.

اللغة العربية في الدولة العبرية. يجب التأكيد على أن هذا الحق ينتهي في المرحلة الثانوية، إذ أن التعليم الأكاديمي في الجامعات والكليات اليهودية يتم باللغة العبرية.

تجدر الإشارة إلى أن تعريف العرب مرتبط باللغة العربية، لذا فإن صلة حتمية تم تأسيسها بين اللغة والهوية القومية. ويؤكد ياسر سليمان (Suleiman, 2003) بأن هيمنة اللغة لها الأثر الكبير في الصياغة الأيديولوجية للهوية القومية في الشرق الأوسط.

والثاني، تعريف العربية كلغة رسمية إلى جانب اللغة العبرية. بالرغم من الاعتراف العلني بالعربية لغة رسمية، إلا أن وضع اللغة العربية أصبح جزءاً لا يتجزأ من طبيعة الصراع على فلسطين، ويعود جذوره إلى بدايات المشروع الصهيوني المتمثل في اعتماد اللغة العبرية وإقحامها في قلب المعركة القومية ضد اللغة العربية. وقد انعكس ذلك جلياً في مجالين: أولهما، تهميش اللغة العربية وتضييق الخناق عليها؛ وثانيهما، طمس المعالم العربية وتهويدها.

من الناحية القضائية، ثمة ازدواجية في تعامل المحاكم الإسرائيلية مع مسألة اللغة العربية. أحياناً، تستجيب المحاكم لمطالب العرب ومؤسسات مدنية إسرائيلية تناضل من أجل مكانة العربية. لكن الأهم لدى المحاكم هو دعم سياسة الحكومة بشأن تفضيل العبرية على العربية، إذ تعترف هذه المحاكم بحق اللغة لدى الناطقين بالعربية كحق فردي وليس كحق جماعي (هرثيل - شاليف، 2005: 74)، وترى أهمية اللغة العبرية باعتبارها مركباً أساسياً في الترابط القومي وعنصرًا في تعريف سيادة الدولة.

ويدعي غونطوبنك (1999) أن هناك التزامًا من إسرائيل للاحتفاظ بالعربية كلغة رسمية، وأن القضاء في إسرائيل لم يبلور حتى الآن منظومة ثنائية اللغة، الأمر الذي يكسب العربية مكانة منخفضة، مقارنة مع العبرية.

وفي هذا السياق، قال المستشار القضائي للحكومة السابق، أمنون روبنشتاين، في إحدى جلسات الكنيست (محضر الكنيست، 18.6.2001):

زملائي وأنا في جهاز القضاء والنيابة العامة نناضل بشكل ثابت من أجل قضايا المساواة، وهذا الأمر يخص، أيضًا، مسألة اللغة، بقدر ما نستطيع. ليس سهلاً، فالعربية هي لغة رسمية، وهي ليست مشابهة للعبرية، ولكنها تتمتع بمكانة مهمة في القانون، ويجب أن تُعطى لها هذه الإمكانية. وهذا الأمر انعكس، من خلال الأحكام القضائية التي أصدرناها، وفي مواقفنا نحوها.

تضييق الخناق على اللغة العربية

ورد في وثيقة الاستقلال أنه يتوجب على دولة إسرائيل "ضمان حرية الدين، الضمير، اللغة والثقافة". وإذا ما أخذنا الجانب اللغوي في هذا التصريح، فإن السؤال الذي يطرح نفسه: هل فعلاً تعطي دولة إسرائيل اللغة العربية هذا الحق؟ الواقع يشير إلى أن اللغة العربية مستهدفة، وأن تضييق الخناق عليها مشروع على جميع الأصعدة، كما هو مبين في النقاط الآتية:

أ- مرسومية اللغة العربية شكلية: حصلت العربية على المرسومية القانونية تلقائياً وفق الاعتراف الذي كان سارياً منذ فترة الانتداب البريطاني²⁸¹، حينما كانت اللغات الثلاث الإنجليزية والعربية والعبرية لغات رسمية، حسب المرسوم المنصوص عليه في الإرادة الملكية للحكومة الانتدابية سنة 1922²⁸². وعندما أنشئت دولة إسرائيل ألغيت مرسومية

²⁸¹ الجدير ذكره، أن الكثير من القوانين التي سنتها حكومة الانتداب البريطاني ضد مصلحة العرب، قبل الإعلان عن إنشاء إسرائيل، فيما يخص الأراضي وحرية الفرد وقوانين الرقابة العسكرية على الصحافة للعام 1933 وقوانين الطوارئ للعام 1945 (التي مكنت إسرائيل من فرض الحكم العسكري على العرب)؛ بقيت سارية المفعول بعد قيام إسرائيل. وأن جميع هذه القوانين المعمول بها حتى اليوم تحد من الديمقراطية التي تتغنى بها إسرائيل.

²⁸² لقد أدرك الاستعمار البريطاني، وبغية فرض السيادة على أهل البلاد المستعمرة، أن عليه تفهم حياتهم، وذلك من خلال الاعتراف بلغاتهم والتحدث بها (بخلاف السياسة التي انتهجتها فرنسا في

اللغة الإنجليزية، واكتسبت اللغة العبرية مكانة اللغة الرسمية الأولى وتلتها العربية. ولكن عند دراسة مشروعية اللغة، من الوجهة القانونية، يتضح أنها ضعيفة للأسباب الآتية (سبان وأمارة، 2004):

- 1- وجوب ثنائية اللغة لمحدود للغاية، وينطبق فقط على الإعلانات الرسمية، بمعنى أن القانون يلزم نشر الإعلانات الرسمية بالعربية والعبرية، ودون ذلك يُنشر بالعبرية.
- 2- لم يُذكر بشكل صريح أن اللغتين متساويتان من الوجهة القانونية، أي لم يكتب أن العبرية والعربية لغتان رسميتان في دولة إسرائيل.
- 3- في دول العالم المتقدمة، تكتسب اللغات مشروعيتها من قوة القانون، وينصّ على ذلك في الدستور، بينما اكتسبت اللغات في إسرائيل مشروعيتها حسب قانون "أوامر الساعة" *הוראת שעה* ولم يتم التصويت عليه في الكنيست، وهو قانون رمزي، ويمكن إلغاؤه أو تغييره بسهولة.

ب- محاولات لإلغاء مرسومية اللغة العربية: منذ قيام الدولة وحتى اليوم تجري عدة محاولات من قبل أعضاء كنيست يهود ينتمون إلى الأحزاب اليمينية، وذلك لإلغاء مرسومية العربية، غير أن جميع هذه المحاولات باءت بالفشل حتى الآن. كانت المحاولة الأولى عام 1952 (Koplewitz, 1992)، وقدمت الاقتراح نيابة عن أحزاب المعارضة آنذاك عضوة الكنيست رازيئيل ناثور (كتلة حيروت)، الذي يقضي بأن تكون العبرية اللغة الوحيدة في الدولة، وتصدى لها آنذاك رئيس الحكومة، دافيد بن غوريون²⁸³.

مستعمراتها). واتخذ قرار الاعتراف باللغات في لندن يوم 24.7.1922 وأصبح ساري المفعول بتاريخ 29.9.1923 (مرحافيا، 1943).

²⁸³ وقال بن غوريون (مشورات الكنيست، 1952، مجلد 12: 2521): إننا نرفض منع المواطنين العرب من استخدام لغتهم العربية، إذا أرادوا التحدث بها حتى في الكنيست. السياسة الواضحة لإسرائيل هي إكساب العبرية لكل المواطنين في الدولة، ومن ضمنهم المواطنون العرب. التلاميذ العرب ملزمون بتعلم العبرية، ولكن ممنوع في أي حال من الأحوال أن يُجرموا من التحدث بلغتهم".

وفي سنة 1981 قدمت عضوة الكنيست أورا نامير (حزب العمل) اقتراحًا يلزم الدولة باستخدام العبرية دون غيرها في المؤسسات الحكومية والجهادية (محضر الكنيست، 1981: 92، 719-721، 758-759). وفي سنة 1994 أثار الموضوع ثانية عضو الكنيست شاكي (حزب المفدال)، وتم تحويله إلى لجنة الكنيست، ولم يتخذ فيه قرار (محضر الكنيست، 12.10.1994).²⁸⁴

وفي عام 1998 طرح الفكرة على وسائل الإعلام، عضو الكنيست ميخائيل كلاينر (من حركة غيشر في الليكود). وفي عام (2005) تبنى الفكرة عضو الكنيست آرييه إلداد (من حزب التكتل الوطني) الذي قدم اقتراحًا ينص على إلغاء مرسومية اللغة العربية، بحيث تبقى العبرية اللغة الرسمية الوحيدة في الدولة، والعمل على إزالة جميع اللافتات العربية المنصوبة في الشوارع، ما عدا الأماكن التي تسكنها غالبية ناطقة بالعربية. واقترح إلداد أن يستمر العرب في التعلم باللغة العربية شريطة ألا يمس ذلك وجوب تعلم العبرية كلغة أساسية، ويضمن إتقان الجمهور العربي اللغة العبرية على أكمل وجه (معاريف، 14:5.1.2005).

ما زال الهجوم على إلغاء مكانة اللغة العربية، كلغة رسمية في البلاد مستمرًا حتى في مطلع الألفية الثالثة. ففي الجلسة التي عقدتها لجنة القانون والدستور في الكنيست يوم

²⁸⁴ رد عضو الكنيست عصام مخول، من الجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة، على عضو الكنيست إلداد قائلا "إن عضو الكنيست إلداد يعيش في فقاعة من الترانسفير. فتارة، يناشد بعملية ترانسفير للمواطنين العرب وفي حقهم في حرية التعبير، وتارة أخرى، الآن، يريد ترانسفير اللغة العربية كلغة ثانية، إنه تفكير عنصري" (معاريف، 14:5.1.2005).

15.1.2007 تم طرح إلغاء مكانة اللغة العربية، واقترح المستشار القضائي للجنة بأن تكون اللغة العبرية اللغة الرسمية الوحيدة في الدولة (الصنارة، 20:19.1.2007)²⁸⁵.

في مايو 2008 عرضت عضو الكنيست ليمور ليفنات، وزيرة التربية والتعليم السابقة، من حزب الليكود اقتراحًا (مشروع قانون) يدعو إلى اعتبار العبرية اللغة الرسمية الوحيدة في إسرائيل، وأن يتم تخفيض مستوى اللغة العربية بالتدرج إلى مستوى لغة ثانوية، مثل الإنجليزية والروسية²⁸⁶.

ت- مشروعية العربية في أروقة المحاكم الإسرائيلية: تُظهر المكانة القانونية التي تتمتع بها اللغة العربية تناقضًا جليًا بين المنصوص عليه في القانون، وبين المعمول به على أرض الواقع. لماذا يجب التوجه إلى القضاء حتى يتم استخدام اللغة العربية في الأماكن العامة؟ هل توجد أمثلة مشابهة في العالم لدولة تعترف بلغة على أنها رسمية ثم تتجاهلها؟ إن سكوت المواطنين العرب والمجتمع المدني الإسرائيلي على هذا الوضع، وعدم الاعتراض على استرداد الحقوق المتتصة للعربية، ساهم في دعم هيمنة اللغة العبرية.

²⁸⁵ يُذكر أن ممثلي المركز الإسرائيلي للديموقراطية عارضوا هذا الطرح، وادعوا بأنه يجب الحفاظ على الوضع القائم. وقال الناطق بلسان المركز الإسرائيلي للديموقراطية في حديث معه "للصنارة" (19.1.2007): "لحسن الحظ فإنه لم يجرِ تصويت في الجلسة على هذا البند، وواضح أن موقف المركز يوجب تثبيت مكانة اللغة العربية كلغة رسمية وبشكل قانوني".

²⁸⁶ كتبت ليفنات في مشروع القانون: هذا مشروع قانون ضروري وصهيوني يرتكز على قيم ويحمل رسالة هامة جدًا. ليس من المعقول ولا من المناسب ولا من المنطق أن تتمتع هذه اللغة أو تلك بمكانة اللغة العبرية، ولا على وجه التحديد في هذه الفترة، التي تحاول فيها منظمات متطرفة داخل أوساط العرب في إسرائيل تحويل الدولة لثنائية القومية، وكجزء من ذلك تحويلها إلى دولة ذات لغتين تعتبر فيها العبرية والعربية لغتين رسميتين، ذات مكانتين متساويتين. من الملح جدًا تحديد موقف قانوني للمكانة الخاصة للغة العبرية. انظر في موقع: www.alquds.com/node/27631

خلال فترة طويلة لم تُحاسب السلطات على موقفها من جعل العربية لغة رسمية على أرض الواقع، لا من طرف الأقلية القومية، ولا من طرف المجتمع المدني الإسرائيلي. ولم يعالج القضاء الإسرائيلي هذه المسألة بشكل جذري للأسباب الآتية:

1- القيادة والمؤسسات الاجتماعية والحقوقية العربية صمتت طويلاً، وتأخرت في معالجة الموضوع.

2- هذا الموضوع هو جزء من المسائل العامة التي تخص الأقلية العربية، في مجابهة الدولة كدولة قومية عرقية.

3- لا يوجد قانون لحماية اللغات في الدولة، وأي تحرك بهذا الشأن بإمكان الكنيست سن قانون يحد من شرعيته، إذا كان الأمر يدرك على أنه تهديد للغة العبرية.

في الواقع، لم يتوجه الجمهور العربي إلى القضاء لاسترداد مشروع لغة العربية في العقدين الأولين لإنشاء الدولة. لاحقاً أدرك المواطنون العرب خطورة هذا الصمت، وفي بداية الثمانينيات بدأ الاهتمام في هذه المسألة من خلال تقديم شكاوى للمحاكم²⁸⁷، ولكن في التسعينيات، أي بعد أربعين عاماً على قيام الدولة، حدثت "ثورة حقيقية" في هذا المنحى لدى مؤسسات عربية ويهودية، مثل مركز "عدالة"، والجمعية العربية لحقوق الإنسان "مساواة"، والجمعية لحقوق المواطنين. بدأت هذه المؤسسات بمحاسبة السلطات، وبقوة،

²⁸⁷ يستدل من الدراسات التي تناولت دعاوي المواطنين العرب بمساواة مكانة لغتهم مع العبرية من خلال التشريع بالكنيست، أو المطالبة بترجمة قوانين الكنيست للعربية بشكل فوري، أنها قد جوبهت بالرفض. وأحياناً، تمت مناقشة الموضوع، وانتهى النقاش بعدم تغيير السياسة القائمة، ولم يسفر عن تشريع مفصل بهذا الأمر (روبنشطاين، 1991؛ لنداو، 1993).

وطالبت بوجوب حضور العربية إلى جانب العبرية على مستوى الدولة ككل، وذلك من خلال التوجه إلى محكمة العدل العليا²⁸⁸.

نُقل النضال إلى أروقة محكمة العدل العليا، وذلك للمطالبة بتحقيق المساواة في مسائل خاصة ومحددة، تخدم جميع الناطقين باللغة العربية. ولأول مرة، في تموز عام 1997 قُدم التماس إلى المحكمة لمقاضاة وزارة الاتصال، ووزارة البنى التحتية، ومديرية الأشغال العامة (ماعتس) بشأن المطالبة بكتابة اللغة العربية إلى جانب العبرية على اللافتات. وتوالى بعد ذلك الالتماسات، ففي عام 1999 قُدمت ثلاثة التماسات حول: كتابة أسماء الشوارع، بالعربية في المدن المختلطة؛ وكتابة لافتات بالعربية في الموانئ والمطارات ومحطات القطار؛ ووجوب نشر الإعلانات بالعربية من قبل مسجل الأحزاب.

في عام 2000 قُدم التماس يقضي بنشر المعلومات للجمهور العربي في الصحافة العربية. وفي عام 2005 (الصنارة، 2005: 17.6: 29) تقدم عضو الكنيست، أحمد الطيبي، بالتماس ضد سلطة المطارات لإلزامها بوضع لافتات توجيهية باللغة العربية في مطار اللد، وفي أعقاب الالتماس، تعهدت سلطة المطارات للمحكمة بوضع لافتات باللغة العربية أسوة باللغتين العبرية والإنجليزية²⁸⁹.

²⁸⁸ تجدر الإشارة إلى أن محكمة العدل العليا لم تسارع في البداية إلى حسم قضية وجوب إصدار النشرات الحكومية باللغة العربية (روينشطاين، 1991: 91)، ولكن المحكمة أقرت بتعويض كل شخص حصل له ضرر جراء عدم النشر بالعربية. والمعلوم أن العرب مروا بمرحلة الأسرلة التي أكسبتهم الثنائية اللغوية والثنائية الثقافية (سموحي، 1998: 180؛ الحاج، 1996: 22؛ سبان، 2002: 266)، لذا فإنه من الصعوبة بمكان إثبات حصول ضرر لشخص بسبب النشر بالعبرية فقط (هرثيل - شاليف، 2005: 60).

²⁸⁹ عملياً، تتفهم المحاكم هذه المطالب، وفي غالبية الأحيان، تحكم لصالح اللغة العربية. ولكن الأمور تسير ببطء وتنفيذ القرارات يحتاج أحياناً إلى عدة سنوات. على سبيل المثال، قضت المحكمة بتنفيذ كتابة العربية

ث- العربية هي لغة رسمية بالاسم: على أرض الواقع لا يوجد أي تأثير للعربية في الحياة الإسرائيلية (Spolsky & Shohamy, 1999). إذ تعتبر العربية اللغة البيروقراطية الحكومية واللغة السائدة في مؤسسات التعليم العالي، ولغة الاتصال الإلكترونية في وسائل الإعلام وفي المرافق الاقتصادية. جميع هذه المركبات، تفرض على المواطنين، عرباً ويهوداً، على حد سواء، التحدث بالعربية من أجل تصريف شؤون حياتهم اليومية.

ج- التأكيد على مركزية اللغة العبرية: استهدف المشروع الصهيوني تعليم العبرية لجميع المواطنين دون استثناء، ومن ضمنهم المواطنون العرب في إسرائيل. فإسرائيل، تعرّف نفسها كدولة يهودية، واللغة العبرية هي المسيطرة (أمانة ومرعي، 1999)، وتتم جميع المعاملات الرسمية في المكاتب الحكومية والخاصة باللغة العبرية. فالعبرية هي لغة الدولة الأساسية، والعرب يدرسونها في جميع المراحل التعليمية، ويتحدثون بها دون تحفظ أو حرج. في حالات خاصة، يستخدم المواطن العربي اللفظة العبرية لأنه لا يُوفَّق في إيجاد التعبير الملائم بالعربية. فالعبرية المحكية في إسرائيل هي خليط من العامية والعبرية، وهذا بدوره يؤثر على لغة الأم العربية لدى الناطقين بها.

يكاد استعمال العربية في المشهد اللغوي العام، في المؤسسات وفي أماكن تجمع للجماهير، فضلاً عن أسماء المواقع والمدن على اللافتات؛ أن يكون معدوماً. وإذا ما وُجد فهو يظهر في صيغة التهديد والتحذير والممنوعات: זהירות- حذر، זהירות, שדה מוקשים - الاحتراس من الألغام، יציאת חירום - مخرج طوارئ، אין חניה - ممنوع الوقوف، הקנס גבוה - الغرامة عالية، העישון אסור - ممنوع التدخين، אין כניסה - ممنوع الدخول، שחיה אסורה - ممنوع السباحة، העובר על החוק צפוי לקנס - سيعاقب كل من يخالف القانون.

على اللافتات خلال خمس سنوات. ولذا، فإن المهم ليس إصدار الأحكام، بل يجب مراقبة ومتابعة التنفيذ من قبل الملتزمين.

بالرغم من التصور السلبي الذي تبديه المؤسسة الإسرائيلية والمجتمع الإسرائيلي نحو اللغة العربية، فإن العرب، كما يذكر بن رفايل (Ben- Rafael, 1994) يبدون أهمية قصوى للاحتفاظ بلغتهم، ويرفضون بشدة ما تقوم به المؤسسة والمجتمع الإسرائيلي من التقليل من قيمة اللغة، فهي لغة الأم الطبيعية لأولادهم. وفي الوقت نفسه يدركون جيداً مدى قوة العبرية وأهميتها ومساهمتها باندماج الفرد في حياة المجتمع والاقتصاد. ولذا، فيلج جانب الحفاظ على لغتهم وثقافتهم، يكتسب غالبية الناطقين بالعربية (70٪) اللغة العبرية عن طريق التعلم الإلزامي في المدارس، أو من خلال التعامل والاحتكاك المباشر مع اليهود.

تعزيز الثقافة اليهودية

تعد اللغة عنصراً أساسياً من عناصر الثقافة، ولا يمكننا التحدث بلغة بمعزل عن ثقافتها، ولذلك قيل (عبد الله والغالي: 1991: 24):

إن دارس اللغة الأجنبية لا بد له - إذا كان يرغب في إتقانها جيداً - من أن يتعرف على حضارة المجتمع الذي يتكلم أفرادها تلك اللغة تعرفاً كافياً يعصمه من الوقوع في زلل بالغ الخطورة، ومن ثم فإن تعلم لغة أجنبية هو تعلم حضارة أصحاب تلك اللغة.

كما ذكرنا، فإن أحد مقومات المشروع الصهيوني نشر اللغة العبرية بين جميع مواطني الدولة عرباً ويهوداً على حد سواء، وتبني الثقافة اليهودية والتمشي مع متطلبات الدولة العبرية. فالدولة منحت استقلالية لمجموعتين من السكان، العرب واليهود المتزمتين (اليهود الأرثوذكس םדס). فالمتزمتون يحظون باستقلالية تامة بالرغم من أنهم لا يعترفون بالصهيونية، ولا يدرسون موضوع المدينيات²⁹⁰، ولا يحتفلون بعيد استقلال الدولة لأنهم

²⁹⁰ بالإضافة إلى المدينيات، يتعلم التلاميذ العرب مواد مكثفة عن التاريخ اليهودي رغم أنف الجمهور العربي، الذي يبدي الاستياء وعدم الرضى من هذه السياسة المفروضة عليه، كما يقول ماجد الحاج (الحاج، 1996). بالمقابل، لم تسمح الدولة للعرب بتعلم التاريخ العربي الفلسطيني بشكل موسع، مقارنة

يعتبرون الحركة الصهيونية منذ نشأتها حاملة لفكر علماني يتعارض مع الكيان اليهودي الديني.

أما العرب، فقد وضعت استقلاليتهم تحت مجهر الرقابة (شوهاي، 1996). هذا التوجه ليس صدفة، فهو عملياً امتداد للنموذج الذي جسده الانتداب البريطاني، والذي شدد الرقابة آنذاك على العرب. وبالمقابل، تمتع اليهود بحرية التصرف في مجالي البرامج التعليمية والتنظييات السياسية (ريشف ودورور، 1999).

يهدف فرض تعليم العبرية في المدارس العربية إلى تعريف التلميذ العربي بأسس التراث الثقافي - الأدبي للشعب اليهودي، وإعطاء الثقافة العبرية قدرها الذي تستحقه (وزارة المعارف، 1987).

ولتحقيق هذا الهدف، يتعلم التلميذ العربي ثلاث وحدات في الأدب تشتمل على مواد تعرض تطور الثقافة اليهودية منذ نشأتها الأولى في فترة التوراة وحتى عصرنا الحالي²⁹¹. يشكل هذا الكم الهائل من المواد التدريسية وسيلة ناجعة لانكشاف التلميذ على الثقافة العبرية بغية التفاعل معها وتذويتها في نفسه. ولتعزيز مكانة العبرية في نفوس التلاميذ

مع عدد الساعات التي تعطى للتاريخ اليهودي (Kimmerling & Migdal, 1994: 169). إن الدافعية لاتباع هذه السياسة هو خوف الدولة من تنامي المنحى القومي الفلسطيني لدى المتعلمين، الأمر الذي يمس، حسب اعتقادهم، في النسيج الاجتماعي بين العرب واليهود في الدولة، ناهيك عن الوضع الأمني. وفي استطلاع أجري عام 1976 حول تعليم هذه المواد للعرب (هرثيل - شاليف، 2005: 67)، اعتقد غالبية العرب بوجوب زيادة ساعات تعليم التاريخ الفلسطيني لدى اليهود، وأن 40٪ من العرب طالبوا بتقليص المواد التعليمية المخصصة للتاريخ اليهودي في المدارس العربية.

²⁹¹ في منهج التعليم الذي أُقرّ في عام 2006 هنالك تغيير ملحوظ، إذ تم تقليص وحدات الأدب إلى وحدتين، بينما أصبح التركيز أكثر على الجانب الاتصالي.

العرب مُنح موضوع اللغة العبرية زيادة في العلامة (البونوس) للمتقدمين في خمس وحدات، الأمر الذي يدفع التلاميذ إلى تعلمها بمستوى عالٍ.

هذا، ويستشف من بحث أجري حول ساعات التدريس المخصصة لتعلم الثقافة العبرية في المدارس العبرية والعربية، أن التلميذ العربي يدرس ضعفين ونصف ما يدرسه التلميذ اليهودي الذي يتعلم في المدارس الرسمية غير الدينية عن ثقافته العبرية. ويّين درور وليبرمان أن التلميذ العربي يتعلم عن اليهودية أكثر مما يتعلمه عن ثقافته (هآرتس، 13.7.1997)²⁹².

وعليه ليس صدفة أن طالبت وزيرة المعارف السابقة، ليمور ليفنات، إضافة ساعات تعليم (مطلع أيلول 2001) في مادة التراث اليهودي للتلاميذ اليهود في المدارس العبرية، والإعلان عن "الثورة الصهيونية" والاصطفاف في الطابور الصباحي، وترديد النشيد الوطني "هتكفا" (أي الأمل) بغية تعزيز الانتماء القومي للدولة العبرية²⁹³.

لون آخر من ألوان التأثير بالثقافة العبرية، يتجلى في استماع الشباب العرب إلى الأغاني العبرية، فالأغاني العبرية تستهوي الكثير من الشباب، وقد تكون حافزاً للابتعاد عن الأغاني العربية. أما بالنسبة للبالغين وغيرهم، من ذكور وإناث، فإنهم يستمعون إلى الراديو ويشاهدون التلفاز ويقرأون الصحف العبرية بشكل ثابت، فالصحف العربية المحلية تصدر غالباً أسبوعياً، بينما الصحف العبرية تصدر يومياً. هذا الانكشاف غير المحدود للوسائل الإعلامية المتنوعة يدعم، بشكل مباشر وغير مباشر، عناصر الثقافة لدى الفرد المستهلك، وينعكس ذلك في تقديره واحترامه لهذه الثقافة، وفي حالات معينة قد يفضلها على ثقافته.

²⁹² تبين في استطلاع للتلفزيون الإسرائيلي (القنال الأولى) أجري في أبريل 2001 بين عينة من أعضاء الكنيس، أن أعضاء الكنيس العرب يعرفون عن الحركة الصهيونية أكثر مما يعرفه اليهود أنفسهم.

²⁹³ وبالمقابل، لم تنجح حتى الآن جميع المحاولات لإدخال تعليم التراث العربي في المدارس العربية.

غني عن التذكير، أن تعليم مواد تخص الشعب اليهودي وتراثه تُلاقى بالترحاب من غالبية المعلمين العرب، ويحرص المتخصصون باللغة العبرية على لفظ الكلمات العبرية بطريقة سليمة، وتصحيح اليهود أنفسهم في لغتهم. بينما تعلم اللغة العربية وثقافتها في المجتمع اليهودي يعتبر أمراً هامشياً، بل يرفض الكثير من الآباء والحاخامات بشدة تعلم مواد تخص العرب²⁹⁴.

طمس المعالم العربية

لم ينحصر الصراع العربي-الإسرائيلي في السيطرة على الأرض فقط، وإنما تعداها ليشمل المسائل الرمزية المتمثلة في عملية تهويد المكان من خلال تغيير اسمه، والذي يهدف إلى تدعيم الطابع اليهودي للدولة. اهتم زعماء اليهود، منذ نشأة الحركة الصهيونية وحتى قيام دولة إسرائيل، بإقناع اليهود بالهجرة إلى فلسطين وتوسيع رقعة الاستيطان فيها.

في المقابل، عكف اليهود على وضع الأسماء للمستعمرات والبلدات والقرى والمدن والمواضع، التي يسكن فيها اليهود القدامى والجدد. لم يكن استخدام الأسماء العبرية صدفه، وإنما هو وليد الصراع الفلسطيني-الإسرائيلي وامتداد له (مرعي، 2006). فالاسم العبري يخدم الصالح العام الإسرائيلي، لأن الأجيال الشابة العربية التي لم تشهد النكبة ولم تقرأ عنها، وهي تتقبل الاسم بداية كأمر مسلّم به، ومن ثمّ تذوّت في أعماقها بأن المكان أو الحيز ملك لليهودي، ولا يحق للفلسطيني المطالبة بإرجاعه. تم مشروع طمس المعالم العربية الفلسطينية في مسارين متوازيين:

²⁹⁴ على سبيل المثال، عندما اقترح وزير المعارف الأسبق يوسي سريد إدخال قصائد للشاعر العربي الفلسطيني محمود درويش كمادة اختيارية في منهاج الأدب العبري شُنّت عليه حرب شعواء. وتصدرهم في ذلك الراي عوفاديا يوسف، الزعيم الروحي لحركة "شاس" الذي لقب الوزير سريد بـ "يوسي درويش". يُذكر أن اقتراح سريد تمت مناقشته في الكنيست عام 2000، ولاقى معارضة شديدة من فئة لا يستهان بها من أعضاء الكنيست، وتم إدخال القصائد فيما بعد (بروتوكول الكنيست، 8.3.2000).

المسار الأول: تهويد المكان - عبرة أسماء البلدات والمواقع: عمدت إسرائيل منذ أيامها الأولى على تغيير معالم المكان وطمس المشهد الفلسطيني بإلغاء الاسم العربي وجعله اسمًا عبريًا. ووفق هذه الرؤية، فقد تم تغيير أسماء المدن والمواقع والأثرية والشوارع والساحات إلى أسماء عبرية وأجنبية بهدف إضفاء الطابع اليهودي - التوراتي على المكان (زيف، 2005). وغالبًا ما تحمل الأسماء الجديدة اسم البقعة العربية المقامة عليها، مع تحريف لهذا الاسم ليتوافق مع اللغة العبرية.

خلال الانتداب على فلسطين وبعد قيام إسرائيل تبلورت لدى صناع القرار اليهود ثلاث لجان تعنى بمنح أسماء عبرية للقرى والمدن والمواقع الجغرافية، وهي:

أ- لجنة أسماء البلدات 1925 - 1951: عملت هذه اللجنة وفق معايير ارتكزت على القواعد الآتية: إحياء أسماء تقليدية من فترة التوراة والمشناة والتلمود؛ وتفضيل الأسماء العبرية؛ وتخليد أسماء القادة العسكريين والسياسيين؛ وكذلك تخليد أسماء المتبرعين من اليهود وغيرهم.

ب- لجنة تسمية الأسماء العبرية في النقب 1949 - 1951: كان دافيد بن غوريون المبادر لإقامة هذه اللجنة التي اتبعت عدة طرائق لاختيار الأسماء، والتي من أهمها (بنبنستي، 2001: 35):

أسماء توراتية وتاريخية يهودية لتعطي انطباعًا لدى السائح أو الزائر عن أقدمية المكان، وقد أعدت الخرائط اليهودية التي تحمل الأسماء الجديدة، وزُرعت الأرض بمستعمرات وبمواقع عسكرية تحمل الأسماء العبرية الجديدة التي أنشئت على أنقاض المواقع العربية.

ت- لجنة المسميات الحكومية 1951 - حتى اليوم: في تاريخ 8.4.1951 قررت حكومة إسرائيل توحيد اللجنتين السابقتين واستبدالهما بلجنة جديدة تُدعى "لجنة المسميات الحكومية". يقول زيف (2005: 46) إنه خلال خمس وسبعين سنة من تأسيس اللجان

المختلفة تم إقرار حوالي سبعة آلاف اسم عبري، جديد وقديم، وأكثر من خمسة آلاف اسم للمواقع الجغرافية، وأكثر من ألف اسم للمستوطنات الجديدة، وبضع مئات من الأسماء للمواقع الأثرية.

المعلوم، أيضًا، أن لجنة المسميات الحكومية مسؤولة عن إعطاء أسماء المستوطنات التي تُقام في مناطق السلطة الفلسطينية. فقد استحدثت اللجنة أسماء مئتي مستوطنة في الضفة الغربية وقطاع غزة، وأسماء اثني عشر جدولاً تنبع في الضفة الغربية وتصب داخل الخط الأخضر²⁹⁵.

يتطرق إميل حبيبي في رواية "المتشائل" إلى أسماء الأماكن والمواضع الفلسطينية التي تهدمت وطُمت معالمها فيقول (حبيبي، 1989: 70):

فساحة الخناطير في حيفا يصبح اسمها ساحة باريس ومرج ابن عامر يصبح اسمه 'سهل يزراعي'، بينما تحمل عين جالوت اسمًا مستمدًا من التوراة 'عين حارود'. ومن سخریات المتشائل أنه نتيجة لجهله بالعبرية حسب أن اسم مدينة حيفا الحبيبة قد تغير ليصبح 'مدينة إسرائيل'²⁹⁶.

في دراسة نشرتها (مرعي: 2006) حول عبرنة أسماء البلدات والمواقع الفلسطينية، بينت أن الأسماء المستعارة من الجذور العربية كثيرة جدًا. إن لجان الأسماء اتبعت ثلاث عشرة طريقة في صياغة الأسماء ذات الصلة بالعربية (مرعي، 2006 : 49-60). هذا، ونجد أن الكثير

²⁹⁵ على سبيل المثال، في خضم الحصار على غزة تردد في وسائل الإعلام العربية والعبرية فتح المعابر إلى غزة وإغلاقها، ومن أهم تلك المعابر معبر كرم أبو سالم. في وسائل الإعلام العبرية يذكر أنه تحت مسمى "كيرم شالوم".

²⁹⁶ ظل الأديب الراحل، إميل حبيبي، يردد طول حياته أنه كتب روايته الشهيرة 'المتشائل' تحديًا للجنرال الإسرائيلي موشي ديان الذي شكك بوجود حضارة عربية في فلسطين.

(<http://www.blafrancia.com/node/73>).

من أسماء مفترقات الطرق الرئيسة منسوبة إلى أسماء عربية، وأن بعض أسماء السجون الإسرائيلية الأمنية والجنائية تعود إلى أسماء المواقع العربية التي تتواجد فيها. كما واتبعت إسرائيل سياسة استهلاك الأسماء العربية نفسها للمستوطنات المجاورة للبلدات والقرى العربية، التي أسستها في الضفة الغربية وقطاع غزة بعد حرب حزيران 1967²⁹⁷.

المسار الثاني: تغيير أسماء الشوارع داخل المدن المختلطة، ففي المدن المختلطة، كحيفا ويافا واللد والرملة، ثمة إشكالية حول تسمية الشوارع والمواقع ذات الصلة بالتراث والحضارة العربية. إذ يعمل رؤساء البلديات بشكل جاد على طمس الأسماء العربية، كما هو متبع في إسرائيل، وذلك عن طريق تحريف المسميات وتشويهها في المشهد اللغوي العام. ويعتبر هؤلاء أن هذا الحيز حصري للكيان اليهودي، ويجب مسحه بكل ثمن من الذاكرة العربية. ففي مدينة الرملة توجه بعض المواطنين العرب، الذين يسكنون في الحي القديم في البلدة، إلى رئيس البلدية برسالة رسمية من أجل استبدال أسماء الشوارع، التي تحمل أسماء لشخصيات يهودية، لأسماء عربية مستقاة من التاريخ والحضارة العربية الإسلامية. وخلال الحديث الصحفي الذي أجري مع رئيس البلدية حول الموضوع، فقد الرئيس أعصابه وتلفظ بكلمات بذينة يندى لها الجبين وشتائم عنصرية وسوقية قائلاً: "أنا لن أغير شيئاً، من أجل محمد أو جمال فليغيروا إلههم ... وليذهبوا إلى الجحيم". وقال "في حي الجواريش أطلقوا تسميات عربية، ولكننا لن نمس التراث الصهيوني من أجل شخص يريد السكن في حي يهودي، إذا لم يعجبه الأمر فليذهب للسكن في جلجولية، فهناك يقطن العرب" (كل العرب، 1.12.2006: 6؛ الصنارة، 12.2006: 6)²⁹⁸.

²⁹⁷ هنالك حاجة ماسة لدراسة مستفيضة لهذه الظاهرة في الجانب الفلسطيني، وعدم الاكتفاء بذكر بعض العينات.

²⁹⁸ قوبلت هذه التصريحات بالسخط والاستياء من قبل السكان العرب، الذين يشكلون حوالي ثلث سكان مدينة الرملة، وتظاهروا ضد رئيس البلدية. كما واستنكرت شخصيات عربية ومثلو الأحزاب العربية

أما في مدينة حيفا فقد تمت عبرنة خمسة وأربعين شارعًا من الشوارع العربية، وتم استبدال أسمائها بأسماء عبرية بعيدة كل البعد عن مصادرها العربية. أما الشوارع التي أطلقت عليها أسماء عربية بعد عام 1948 حتى عام 1999 فهي لا تتعدى الستة (منصور، 1999: 56).

يشارك في بلدية حيفا أعضاء عرب، وهم يضغطون، وبقوة، على رئيس البلدية من أجل استعادة جزئية للطابع العربي التي امتازت به المدينة قبل نشوء إسرائيل. قدمت طلبات إلى لجنة المسميات في بلدية حيفا بتسمية شوارع على اسم "إميل توما" و"حنا نقارة" و"كميل شحادة"، هذه الأسماء مثبتة الآن في لافتات الطرق في المدينة. في شهر ديسمبر 2006 وافقت اللجنة على تسمية أحد الشوارع أو السلام الدرجية في حي عباس اسم الشاعر "عصام العباسي".

أما بلدية عكا، فقد قامت بنصب لافتة جديدة على مفارق الطرق والدوارات في المدينة، كتب عليها اسم "أكو" بالعربية بدل عكا. وتصدى لذلك عضو البلدية العربي، الذي أرسل لرئيس البلدية رسالة شديدة اللهجة مطالبًا إياه بتصليح الخطأ المقصود فورًا، حيث قال (موقع بانيت، 2008.7.31؛ الصنارة، 2008.8.1: 22):

إن كتابة كلمة "أكو" بالعربية ليست صدفة، وإنما تأتي ضمن المساعي والمحاولات لمحو المعالم العربية في المدينة أو تشويهها.. وإنني أطالب بإصلاح هذه اللافتة حالاً وخلال

هذه التصريحات وطلبوا من الرئيس الاعتذار والتراجع عن أقواله. ويستدل من توجهات رئيس البلدية أنه يسعى إلى تحقيق الأمرين الآتين: الأول- الحفاظ على الطابع اليهودي للمدينة وعدم احترام السكان العرب وتجاهل حضارتهم وتواجدهم في المدينة منذ آلاف السنين؛ والثاني- الدعوة الصريحة إلى تهجير المواطنين الأصليين، ممن لا يروق لهم التعايش مع التراث الصهيوني.

أسبوع، وإلا فإنني سأقوم بإصلاحها بالطرق المناسبة". وفي أعقاب هذه الضغوطات قامت البلدية بتصليح اللافتة²⁹⁹.

تساهم المسميات العربية في الأمور التالية:

- أ. تثبيت الحضور العربي في المدينة لمواجهة سياسة تهويد المكان.
- ب. تثبيت الحق التاريخي على الأرض، وترسيخه في الذاكرة الجماعية للأجيال القادمة.
- ت. تخليد ذكرى الشخصيات الرائدة، التي ناضلت في معارك البقاء والتراث، على اعتبار أنها تشكل رمزا ومثلاً أعلى يقتدى بها.

إسرائيل ما بين أحادية اللغة وتعددتها

إن الوضع اللغوي في إسرائيل مركب ومعقد بسبب التركيبات الاجتماعية المتباينة، فالقاعدة السكانية مكونة من قوميتين مختلفتين لغة وديناً: 80٪ من اليهود و 20٪ من العرب. اليهود مقسمون إلى فئتين اجتماعيتين: أشكناز (يهود من أصل غربي) وسفارديم (يهود من أصل شرقي)، والمجموعتان تنقسمان بدورهما إلى يهود علمانيين ويهود متدينين ومتزمتين؛ يرتبط التعداد السكاني بشكل مباشر، وحتى نهاية الألفية الثانية، بعدد

²⁹⁹ عقب عضو البلدية العربي على ذلك "هذا التصليح لم يحصل بسبب تغيير السياسة، بل بسبب الضغط، وبفضل تجاوز الجمهور مع الرسالة ومطلبها بتصليح اللافتات واحترام اللغة العربية. لقد اضطرت البلدية إلى أن تصلح لكنها طبعاً ستستمر بسياستها المتجاهلة لحقوقنا ونحن سنستمر بالنضال لتحصيلها، وبرأيي هذه هي الطريقة الأساسية لتحصيل الحقوق، طريق المواجهة والضغط الشعبي برأس مرفوع والتمسك العنيد بالحقوق والجاهزية لرد الفعل السريع، وليس تقبيل الأيدي والتذلل. وأريد أن أؤكد أننا كنا جاهزين لتصليح اللافتات بأنفسنا وقد أحضرنا اللاصقات، ولكن التجاوب مع الرسالة والضغط الشعبي قد حققا النتيجة المرجوة".

المهاجرين الجدد³⁰⁰ الذين بحضورهم يجلبون لغات عدة، تجعل من إسرائيل خليطاً لغوياً لا شبيه له في دول أخرى.

أما العرب، فهم مركبون من طوائف، وتعدادهم متعلق بنسبة الولادة الطبيعية العالية مقارنة مع اليهود. يعزز هذا التباين في التركيبة السكانية من مكانة اللغة داخل هذه المجموعات، وفي الوقت ذاته، يؤدي إلى التعددية اللغوية³⁰¹.

وُلد أقل من 60٪ من السكان اليهود في إسرائيل، أما الباقي وهم النصف تقريباً، فوُلدوا خارجها. هذا يعني، أن لغة الأم عند هؤلاء ليست عبرية. حوالي 10٪ منهم لغتهم الأم روسية، 8٪ لغتهم الأم عربية، 5٪ لغتهم الأم الييديش. أما الآخرون، فلغتهم الأم الأصلية: فرنسية، رومانية، مجرية، بولندية، فارسية، إنجليزية، أثيوبية، إسبانية وألمانية. وفي العقد الأخير من القرن العشرين، أُضيف إلى هذا الخليط اللغوي خمسة وسبعون ألفاً من الناطقين بالأثيوبية، وحوالي مليون من الناطقين بالروسية.

يتبين من المعطيات أعلاه، أن المجتمع الإسرائيلي مركب من فئات اجتماعية وليدة لغات أم مختلفة. والمتعارف عليه، أن كل فئة اجتماعية تتحدث من هذه مع بعضها بلغة الأم

³⁰⁰ منذ إنشاء إسرائيل عام 1948 وحتى نهاية الألفية الثانية، كانت نسبة الهجرة إلى إسرائيل عالية جداً، وهي التي أدت إلى مضاعفة تعداد سكان الدولة عدة مرات خلال نصف قرن. ولكن منذ مطلع الألفية الثالثة، هنالك نقص ملحوظ في عدد المهاجرين إلى إسرائيل بسبب الانتفاضتين الفلسطينيتين الأولى والثانية. بل أكثر من ذلك، ثمة هجرة عكسية من داخل إسرائيل إلى خارجها آخذة بالازدياد، وسيكون لها مردود سلبي على موازنة التعداد السكاني الإسرائيلي في المستقبل القريب.

³⁰¹ التعدد اللغوي يعني تعايش لغات وطنية متباينة في آن واحد، إما على سبيل التساوي كما هو متبع في بعض الدول الأوروبية، وإما على سبيل التفاضل كتفضيل العبرية على باقي اللغات في إسرائيل، وخاصة العربية.

الأصلية، ولكن عندما يلتقي الأفراد من جميع التركيبات الاجتماعية، يتحتم عليهم التحدث بلغة مشتركة، وهي العبرية³⁰².

أدركت الحركة الصهيونية إشكالية اللغة في مجتمع يزداد تعداد السكاني من الفئات المهاجرة، لذا فرض صناع القرار على كل المهاجرين اتباع سياسة أحادية اللغة التي ارتكزت على هيمنة اللغة العبرية بدون منازع. وقد نشأت هذه السياسة على قاعدة أيديولوجية وسياسية واجتماعية. وشكل نجاح المهاجرين في اكتساب العبرية اختباراً لقدرة إسرائيل على البقاء، ومعيّاراً لقوتها ووحدتها. فالكثير من العائلات تخلت عن لغاتها الأصلية لصالح اللغة العبرية، بالرغم من أن العبرية لم تكن اللغة التي تتحدث بها في البيت (فالدين، 1991؛ شوهامي، 1996).

وبهذه الطريقة انتهجت سياسة أحادية اللغة لمجتمع متعدد اللغات ومتلون من الناحية الإثنية، وضاعت مئات اللغات التي تمثل عدداً لا يستهان به من لغات العالم. حدث هذا الأمر بخلاف دول كثيرة في العالم تجتهد في الحفاظ على اللغات الإثنية³⁰³.

³⁰² انتشار اللغات في إسرائيل هو على التوالي: العبرية، العربية، الإنجليزية، الروسية، الفرنسية، اليبديش، الرومانية، الإسبانية، المجرية، الفارسية والأثيوبية.

³⁰³ في شأن التركيز على سياسة أحادية اللغة في إسرائيل تقول ألفتي - شبتاي (1999: 110): "اليوم، بعد مرور خمسين سنة ونيف على إنشاء الدولة، وتعزيز مكانتها الاقتصادية والعسكرية والسياسية واللغوية، ما زالت المهجرات تندفق إليها من جميع أرجاء العالم. هذه المهجرة تجلب معها ثقافات وهويات ولغات متلونة، وبسبب الخوف من هبوط المكانة العالية للغة العبرية، مثل 'تلويثها' من قبل لغات أجنبية، ندعم سيطرة سياسة أحادية اللغة في دولتنا. هذه السياسة المدفوعة اليوم من عوامل أيديولوجية، تواصل قمع هويات وثقافات ولغات الأقليات، إذ أدركت في الماضي - وما زالت تُدرك حتى اليوم - كمهددة للغة العبرية (شوهامي، 1996). المهاجرون يقللون الحديث مع أبنائهم بلغة الأم، ولغات مجموعات كالأثيوبية والروسية، لا تردد تقريباً على ألسنة الناطقين بها".

في البداية، كانت سياسة "التوحيد اللغوي" المتمثلة في استخدام العبرية لغةً أحادية بلا منافس؛ صارمة جدًا، إذ حلت العبرية محل اللغات اليهودية التقليدية. وفي السنوات الأخيرة، يُلاحظ ظهور إشارات تسامح حيال اللغات الأخرى أكثر مما كان عليه في السابق، أي السماح بالتنوع اللغوي في المجالات العامة والخاصة (Spolsky & Shohamy, 1999).

تحدث داخل إسرائيل وخارجها تغييرات سياسية سريعة تشكل عائقًا أمام صمود أحادية اللغة. هذه التغيرات تشكل تحديًا للعبرية، ويمكن حصرها في ثلاث لغات على الأقل (أمارة، 2002: 21)، وهي:

اللغة العربية - بعد توقيع اتفاقيات السلام مع الدول العربية المجاورة، هنالك مطالبة بتعلم اللغة العربية والانفتاح نحوها.

اللغة الإنجليزية - تكتسح العولمة جميع دول العالم من أوسع الأبواب، واللغة الإنجليزية هي النافذة التي يتم من خلالها زرع بذور هذه الظاهرة العالمية، والتي ترمز إلى التقدم الحضاري والعمراني والعلمي.

اللغة الروسية - ثمة باحثون، أمثال الحاج وليشم (Al-Haj & Lishem, 2002) يعتقدون بأن الدافعية للهجرة الروسية، التي وصلت أوجها في التسعينيات من القرن الماضي، هي براغماتية (منفعة اقتصادية) وليست أيديولوجية. يمتاز الروس عن باقي المهاجرين بأنهم يتحدثون فيما بينهم بلغتهم الأم الروسية ليس فقط في بيوتهم، وإنما أيضًا في الأماكن العامة. بل أكثر من ذلك، إنهم يُعبرون عن افتخارهم وتمسكهم بلغتهم الأم وثقافتهم، ويهتمون بالحفاظ عليها³⁰⁴.

³⁰⁴ يستدل من الدراسة التي أجراها الباحثون بن رفائيل وأولشتاين وغايطس (1994) على المهاجرين الروس إلى إسرائيل، بأنهم من أكثر المجموعات الإثنية محافظة على هويتهم ولغتهم. لقد أبدى الروس

يقول بن-رفائيل (Ben- Rafael, 1994) إنه مع الانتشار العالمي للغة الإنجليزية في الثمانينيات، تم البدء في تطوير نمط جديد من الثنائيات اللغوية: العبرية - الإنجليزية؛ العربية، الروسية. ولذا، فإن الحاجة إلى العبرية هي بمثابة وسيلة لقضاء المتطلبات المعيشية اليومية، وليست هدفًا قوميًا من الدرجة الأولى، كما كان في السابق. ووفقًا لهذه التغيرات والتحديات، يعتقد سبولسكي وشوهامي أن إسرائيل اليوم تحتوي على مجتمع متعدد اللغات، ويلخصان ذلك بالكلمات الآتية (Spolsky & Shohamy, 1999: 6-5، مترجم لدى سبولسكي 2002: 124):

معظم الإسرائيليين يفهمون ويتحدثون العبرية. يشذ عن هذه القاعدة كبار السن من العرب، والمهاجرون إلى البلاد حديثًا، وطبعا السواح وكثير من العمال الأجانب. معظم الفلسطينيين من العرب الإسرائيليين يتحدثون العبرية كلغة أولى ويستخدمونها في بيوتهم وقراهم، لكنهم يستخدمون العبرية أيضًا في العمل وفي مواقف أخرى كثيرة. أما المهاجرون الجدد، مثل المليون مهاجر من الاتحاد السوفيتي (سابقًا) أو الخمسة وسبعون ألفًا من الأثيوبيين فما زالوا يستخدمون لغاتهم الأم في البيت ومع جيرانهم المباشرين، رغم أن أولادهم يتنقلون بشكل متزايد بين العبرية ولغة الأم. أما المهاجرون القدامى، فيستخدمون لغاتهم الأولى من حين لآخر في البيت وداخل المجموعة، لكن كبار السن يستطيعون تكلم اللغة (الأم) بطلاقة. إن التحول في الشيفرة (من لغة إلى أخرى) شيء مألوف بين هذه المجموعات. أما بين اليهود المتشددون وخاصة الحسيديين وآخرين فيستخدمون البيديش في المدارس وضمن تجمعاتهم. السواح والعمال الأجانب يستخدمون لغتهم الأم عادة، وحين لا يستطيعون استخدامها ولا يعرفون العبرية، فإنهم يحاولون

عدم تنازل عن ثقافتهم السابقة لصالح الثقافة والهوية الجديدة. وتظهر الدراسة، أيضًا، أن الروس طالبوا بالحصول على شرعية خاصيتهم كجمهور علماني يتمتع بهوية ثقافية خاصة به، إلى جانب تذويت العبرية والاندماج في المجتمع الإسرائيلي.

التخاطب بالإنجليزية كلغة مشتركة. معظم المعاملات الحكومية والتجارية والاقتصادية تتم بالعبرية عدا بعض التجمعات. يشذ عن هذه القاعدة المدارس الحكومية في الوسط العربي التي تستخدم العربية كوسيلة للتعليم، وبعض المدارس الحسيدية الشرقية التي تشجع الطلبة على استخدام اليبديش بدلاً من العبرية.

لكن، في الوقت نفسه، ترى إسرائيل أن التعدد اللغوي من أهم العوامل الفاعلة في التفكك الاجتماعي والمؤثرة سلباً في الحرية الثقافية والتنمية الاقتصادية، لذا عملت على اعتبار العبرية اللغة المسيطرة في الدولة. تستطيع المجموعات العرقية التحدث فيما بينها كيفما تشاء، ولكن على المستوى الرسمي يجب على الجميع الالتزام بالعبرية.

في الحقيقة، ليس من السهولة بمكان إتقان اللغة العبرية في مجتمع تعتمد تركيبته السكانية على مهاجرين جدد، وقد أشغلت هذه القضية صناع القرار في إسرائيل على أعلى المستويات، فعاينت اللجنة البرلمانية للتربية والثقافة في الكنيست الموضوع تحت مسمى "التربية اللغوية"³⁰⁵، والتي بدورها قدمت بتاريخ 5.8.1987 أربع توصيات وضعتها على جدول أعمال الكنيست لمناقشتها، واتخاذ القرار بشأنها³⁰⁶.

³⁰⁵ السياسة اللغوية هي المجهود المبذول للتغيير أو للتأثير على الممارسات اللغوية. وتحاول السياسة اللغوية تغيير مكانة المبنى اللغوي، اكتسابها أو دراستها، ضمن بلد ما أو انتشارها إلى بلدان أخرى. ويمكن التعبير عن السياسة اللغوية في الوثائق الرسمية. فمثلاً، يمكن إرساؤها في الدستور، أو في قانون خاص للغة، أو في وثيقة حكومية، أو في تنظيم إداري (Spolsky & Shohamy, 1999: 43)؛ وانظر لدى أمارة ومرعي، (2004: 22).

³⁰⁶ وهذه التوصيات نشرت في دورية إيغرت ميداع، (1987: 3):

1- تتوجه اللجنة إلى وزارة التربية والثقافة بأن تتبنى فكرة وجوب إكساب العبرية للتلاميذ عبر جميع الموضوعات التي تدرس في المدرسة. تعتقد اللجنة بأن تدريس العبرية كموضوع منقطع عن الثقافة العبرية وآدابها لا يمكن للتلاميذ من تذويت اللغة بشكل سليم.

بالرغم من تعدد اللغات والصعوبات الناجمة عن تدريسها، لم تتخذ وزارة المعارف حتى سنة 1994 سياسة معينة أو توجهاً ما للحفاظ على هذه اللغات، كما هو متبع في الدول الأوروبية. الكثير من القرارات، التي أصدرتها وزارة المعارف ونشرتها في منشور المدير العام بشأن اللغات، لم تقم على تنفيذها.

بعد مضي ثماني سنوات على التوصيات المذكورة أعلاه بشأن التربية اللغوية، أقيم في سنة 1995 في جامعة بار- إيلان مركز لبحث التركيبة اللغوية في إسرائيل. قام هذا المركز بفحص تعليم اللغات المختلفة وطرائق تدريسها، ورفع تقريراً للسكرتارية التربوية لوزارة المعارف بهذا الخصوص (سبولسكي وشوهمي، 1997) ³⁰⁷.

تبين لنا من هذا الفصل، أن العبرية هي اللغة المسيطرة في إسرائيل بلا منازع. فالتوحيد اللغوي هو المشروع الذي تبناه صناع القرار، حيث ارتبط بشكل مباشر ببناء هوية اليهودي الجديد. أدى هذا الوضع إلى تهميش مكانة اللغة العربية بالرغم من تعريفها كلغة رسمية وفق القانون الإسرائيلي.

2- توصي اللجنة بتقديم امتحان البجروت باللغة العبرية في صفوف الحادي عشر والثاني عشر (بدلاً من العاشر) بغية تعزيز مكانة اللغة وإكساب التلاميذ سنوات إضافية في تعلم الموضوع.

3- توصي اللجنة وزير المعارف والثقافة بإنشاء معهد قومي يبني لتنمية ثقافة المحادثة والقراءة والكتابة. يضم المعهد مؤسسات التعليم العالي والصحافة والمسرح والسياسة ومحاضرين ومبدعين في كل المجالات.

4- تطالب اللجنة وزارة المعارف والثقافة العمل على تنمية ثقافة المحادثة واللغة السليمة والقراءة والكتابة لدى المعلمين في إسرائيل في جميع مراحل دراستهم، وأن يكتثروا من الاستكاملات ويبلوروا أنماطاً لرفع التحصيل والتفوق في هذا الموضوع.

³⁰⁷ مؤلف هذا الكتاب كان عضواً مشاركاً في هذا المركز بين السنوات 1995-1997، وعمل على دراسة اللغات العربية والعبرية والإنجليزية التي تدرس في المدارس العربية.

في هذه الظروف يعيش المواطن العربي في عالم لغوي مشطور ناجم عن طبيعة حياته في الدولة العبرية. ففي النهار يختلط مع المجتمع الإسرائيلي في المجالات الحياتية المختلفة وفي أماكن العمل، التي تسود فيها اللغة العبرية؛ أما في الليل، فعندما يعود إلى بلده وبيته يتحدث بلغته الأم العربية.

هنا يخوض المواطن العربي معركة الصمود والبقاء في هذين العالمين المتناقضين، أي الانتماء إلى جذوره العربية وتاريخه وثقافته، من جهة؛ ومن جهة أخرى، التأقلم مع نمط الحياة في إسرائيل. وفي كل الأحوال، فإن العربية هي المرجع الأساسي لتحديد ذهنيته وشخصيته وانتمائه الحضاري والفكري في الدولة العبرية.

الفصل الخامس

اللغة في ظل الشروخ المتباينة داخل المجتمع الإسرائيلي

يمتاز المجتمع الإسرائيلي بكثرة الشروخ والتصدعات الإثنية والعرقية والقومية، والتي لها الأثر الكبير في تنمية الصراعات الاجتماعية والسياسية على الفرد خاصة، والمجتمع ككل. وتشعب هذه الشروخ على عدة أصعدة: الصعيد القومي الإثني، بين الأغلبية اليهودية والأقلية العربية، من جهة؛ وبين الغربيين الأشكناز والشرقيين السفراديم من جهة أخرى؛ والصعيد الديني، بين المتدينين المتزمتين والعلمانيين؛ وعلى الصعيد السياسي بين اليمين واليسار.

في هذا الفصل سيتم تسليط الضوء على قضيتين: الصراع القومي بين العرب واليهود؛ والصراع بين الأحزاب اليهودية أثناء الحملات الانتخابية. يتمحور النقاش حول هاتين القضيتين في تبيان دور اللغة في تأجيج الصراع، وفي كيفية التعامل معه على أرض الواقع.

الصراع القومي بين العرب واليهود

يعد الصراع القومي من أكثر الشروخات الشاهدة للعيان داخل تركيبة المجتمع الإسرائيلي، ويُلقي بظلاله الثقيلة على كاهل حياة المواطنين العرب، على وجه الخصوص. فالعربي يصارع على كيانه داخل المؤسسة الإسرائيلية للحصول على حقوقه في دولة تتباهى بانفرادها بالنظام الديموقراطي بين دول الشرق الأوسط. فعلى المستوى التصريحي، يُظهر صناع القرار مدى حرصهم على المواطنين العرب، كمواطنين متساوين في الحقوق والواجبات، ولهم هويتهم القومية وروايتهم التاريخية، كما عبر عن ذلك جليًا رئيس الحكومة السابق، إيهود أولمرت، قائلاً³⁰⁸:

³⁰⁸ لقاء مع رئيس الحكومة إيهود أولمرت (موقع بانيت وصحيفة بانوراما 11.7.2008).

أنا أعتقد أن الشيء الأهم الذي يجب أن نفهمه هو أن إقامة الدولة اعتمدت على الاعتراف بهوية السكان العرب الإسرائيليين، وأنا لا أريد أن تكونوا يهودًا، ولا أتوقع أن تكونوا يهودًا، أنا أعتقد أنه يجب عليكم المحافظة على تراثكم: التربية، التاريخ، الذاكرة، الصلوات الخاصة بكم وحتى تطلعاتكم. وأعتقد أن حل المشكلة الإسرائيلية بين العرب واليهود هي في المسار المدني، وذلك عن طريق الحفاظ على الأساليب، فيما يتعلق بأسس الحياة المشتركة، التي تتضمن اختلافات وفوارق. لكنها تتضمن، أيضًا، احترامًا متبادلًا ومساواة ليس بصورة شكلية فقط، ولكن مساواة جوهرية أيضًا، مساواة في الفرص، في التشغيل، في التعليم، في التعليم العالي، في فرص المصالح، وفي كل مجالات الحياة، وأنا أريد تطوير هذه الأمور وتعزيزها، وأنا أؤمن أن هذا أمر ممكن.

قد يوهم هذا التصريح المرء، الذي يعيش خارج إسرائيل أن المواطنين العرب يمارسون مواطنتهم في بحبوحة من العيش، وفي ظل جنة الديمقراطية الإسرائيلية؛ لكن الواقع، يتسم بطابع آخر في المجال اللغوي على الأقل، وهو طابع التنافر تارة والتقارب تارة أخرى.

زاد الهجوم الإسرائيلي على غزة عشية الانتخابات للكنيست الـ 18، التي جرت بتاريخ 10.2.2009، من حدة التوتر بين الشيعيين، على ضوء تعاطف المواطنين العرب مع الضحايا الأبرياء الذين سقطوا من جراء هذا الهجوم³⁰⁹. ومن مخلفات هذه الحرب التي أطلق عليها

³⁰⁹ تطرق فؤاد (بنيامين) بن إليعزر، وزير البنية التحتية في فترة الحرب، إلى هذه الأجواء المتوترة والمشحونة في اجتماع انتخابي لحزب العمل في القدس، قائلاً إن الشعب اليهودي جن جنونه في ظل الأجواء العدائية تجاه العرب التي تشهدها الكثير من القطاعات في الوسط اليهودي، ولا سيما الأوساط اليمينية المتطرفة التي تدعو بطريقة أو بأخرى لانتهاج خط عنصري ضد العرب الفلسطينيين في الدولة. وأضاف "إنه من الخطأ أن نعرض على هذا الجمهور، صدقوا تنبؤي بأن دقيقة تفصلنا عن انتفاضة في أوساط الجمهور العربي في إسرائيل" (موقع بانيت وصحيفة بانوراما، 8.2.2009).

مسمى 'נפרדת צדוקה' (الرصاص المسكوب/ المصبوب) زيادة قوة الأحزاب اليمينية واليمينية المتطرفة، حيث حصلت على خمسة وستين مقعدًا، مقابل خمسة وخمسين مقعدًا لأحزاب المركز واليسار؛ وامتناع العرب عن التصويت للأحزاب اليهودية، والدعم المطلق للأحزاب العربية. وقد أطلق المحللون السياسيون الإسرائيليون على هذا السلوك الانتخابي "انتخابات قبلية".

التباعد اللغوي بين الشعيين

بالإضافة إلى انتهاج سياسة أحادية اللغة، ثمة عوامل لغوية كثيرة تزيد من حدة التنافر بين الشعيين، وهي:

أ- التقييدات الاجتماعية: بالرغم من حقيقة كون العبرية اللغة الأكثر أهمية بين الفلسطينيين داخل إسرائيل بسبب الاتصال مع اليهود الإسرائيليين في النواحي الحياتية المختلفة؛ فإنه لا تزال هناك تقييدات لغوية اجتماعية تؤثر على التقارب اللغوي (أمارة ومرعي، 2004: 196). حول هذا الموضوع يعلق بن رفائيل بقوله (Ben- Rafael, 1994: 176):

بالنسبة للمسلمين والمسيحيين العرب، تبقى اللغة الشرعية هي العربية، كوسيلة تعبير عن هويتهم الأساسية. إن تغلغل العبرية كلغة مهيمنة لا ينتقص من العربية شيئًا، بالرغم من أن التأثير الأعظم للعبرية يظهر في الاستعارات والدلالات.

ب- السكن المنفصل: في العقد الأول لقيام إسرائيل عاش العرب واليهود في بلدات ومدن منفصلة، ما عدا المدن المختلطة. ومنذ بداية السبعينيات، نشطت ظاهرة انتقال المواطنين العرب للسكن في المدن المختلطة والمدن اليهودية (غونين وخميسي، 1992). ويعزو الحاج (1996: 22) انتشار هذه الظاهرة إلى الأسباب الآتية: انتهاء الحكم العسكري عام 1966؛ اندماج العرب بشكل أكثر في سوق العمل الإسرائيلي؛ النقص الحاد في

الأراضي نتيجة المصادرة وتشديد الرقابة على البناء في القرى العربية؛ الزيادة في التعداد السكاني؛ والطموح نحو التحضر الاجتماعي.

نتيجة لهذه الأسباب يدعي أرنون سوفير (1988: 15) أنه خلال عشرين عامًا زاد عدد البلدات التي يسكن فيها عرب ويهود من سبع بلدات إلى حوالي ثلاثين بلدة. مسألة السكن المختلط، لاقت معارضة شديدة من قبل اليهود³¹⁰، ومن ضمنهم موظفو الحكومة. ثمة من يرى بالسكن عملية "غزو" للبلدات التي أُعدت لليهود فقط (بار-جال، 1986: 51)، وتناقض المبادئ الأساسية لسياسة الاستيطان في إسرائيل (سوفير، 1988).

تتناقض المؤسسة الإسرائيلية نفسها في المجال السكني؛ من جهة تسعى، وبكل قوة، إلى تكريس الفصل بين العرب واليهود؛ ومن جهة ثانية، ترفض أن يبقى الجليل بأغلبية عربية. لذا شرعت الحكومات الإسرائيلية بتنفيذ المشروع المسمى "تهويد الجليل" (غولاني، 2002) لتقطيع التواصل الجغرافي للبلدات العربية، وذلك من خلال إنشاء بلدات يهودية

³¹⁰ نذكر على سبيل المثال، عائلة قعدان من باقة الغربية التي توجهت إلى محكمة العدل العليا من أجل السماح لها بالسكن في بلدة يهودية أصر أهلها على منعهم من ذلك. وأصدرت المحكمة قرارًا أكد أن تخصيص أراضي لليهود وحدهم يتنافى مع القانون الإسرائيلي كونه خطوة كهذه تتضمن تمييزًا ضد العرب. وبعد سنين من النضال استطاعت العائلة شراء قطعة أرض في كتسير لبناء بيتها هناك.

ونذكر مثلاً آخر لفتاة عربية أرادت استئجار شقة في تل-أبيب، ولكن أصحاب الشقة رفضوا ذلك بسبب كونها عربية. وتقول الفتاة (معاريف، 15.7.2005: نهاية الأسبوع، 92) بعد إلقاء التحية: "إنني مهتمة باستئجار شقة لديكم ويدعونني ابتسام"، كانوا يقولون لي: "ما أصل هذا الاسم؟ فرنسي؟". قلت: "إنه اسم عربي"، قالوا لي: "كيف سماك والداك باسم عربي؟". وأنا قلت: "لأنهما عربيان". عندئذ يبدأون بالتمتمة "هذا ليس نحن، نحن إنسانيون. لا يوجد لدينا مشكلة، ولكن لجنة العمارة لا توافق والجيران يشتكون". وفي حالة أخرى، وافق أصحاب الشقة على تأجيرها، ولكنهم اشترطوا عليها تغيير اسمها لمدارة الجيران.

محاذية لها. وهذا ما يسمى بلغة الجغرافية السكانية "الاستيطان الاستراتيجي"، وهو الاستيطان الذي عملت إسرائيل بموجبه طيلة الوقت³¹¹.

ويشير الاستطلاع، الذي نشره "مركز مكافحة العنصرية" في البلاد بتاريخ (22.3.2006) حول رأي اليهود بالنسبة للسكن مع العرب، إلى المعطيات الآتية:

المواطنون اليهود الذين لا يوافقون على السكن المشترك مع المواطنين العرب	60٪
يعتقدون بوجود الفصل بين العرب واليهود في الأماكن الترفيهية	41٪
غير مستعدين بأن يكون جارهم عربياً	66٪
غير مستعدين بأن يكون لهم أصدقاء عرب، أو يزورهم العرب في بيوتهم	46٪

جدول رقم 13: رأي المستطلعين اليهود بالنسبة للسكن المشترك مع العرب

يفرض النمط المعيشي المنفصل على الفرد التحدث مع أبناء جلدته بلغة الأم، دون التعرف على لغة الآخر المجاور له. فالمواطنون العرب، يتحدثون فيما بينهم بالعربية، ولكنهم بحكم ارتباطهم بالمؤسسة الإسرائيلية، مضطرون إلى إتقان العبرية، وذلك لتصريف شؤونهم اليومية. بينما اليهود، يتحدثون فيما بينهم بلغاتهم التي أتوا بها من بلدانهم بالإضافة إلى العبرية، ولا ينكشفون على اللغة العربية إلا قليلاً. كما يساهم الانفصال في السكن، بشكله الحالي، في سحق العربية على مستوى الدولة، لتبقى محصورة في أوساط الناطقين بها.

³¹¹ على سبيل المثال، أنشئت مدينة الناصرة العليا (نتسیرت عیلت) لتقف حاجزاً أمام توسع مدينة الناصرة، التي تعتبر أكبر مدينة عربية في البلاد، وهذا المثال غيض بسيط من فيض هائل (مرعي، 2006). وفي عام 2008 تم إنشاء طريق التفافي ليصل إلى نتسیرت عیلت، دون الحاجة للعبور من مدينة الناصرة العربية. وقد جاءت هذه الفكرة بعد هبة أكتوبر عام 2000، حيث سيطر الشباب العربي على الطريق الرئيسية، مما أعاق حركة السير للوصول إلى نتسیرت عیلت.

ت- العامل الديني: تُنمّي الفوارق في المعتقدات والشرائع الدينية بين المواطنين العرب واليهود في الدولة هي الأخرى، دافعية الانغلاق نحو الآخر. كل فرد يتمسك بمعتقداته ويتجنب فتح أبواب النقاش لمعالجة الآخر. كما ويُحَدّ الانتفاء الديني من اتساع رقعة الزواج المختلط. وغالبًا ما يجابه هذا الزواج عراقيل من قِبل الأهالي والمجتمع، مما يردع الكثيرين من الإقدام على هذه الخطوة. فالزواج المختلط له فوائد لغوية جمّة، إذ يكتسب الزوجان كلّ لغة الآخر، ويعود مردود ذلك على الأبناء الذين ينشأون على ثنائية اللغة.

ث- الاختلاف الثقافي: دأبت الحركة الصهيونية، منذ نشأتها، على السير في فلك الحضارة الغربية، والابتعاد قدر الإمكان عن الثقافة الشرقية، أو بالأحرى العربية، التي تنظر إليها بأنها متخلفة وتمثل الشعوب المهزومة. بينما تعتبر اليهودية نفسها ذات ثقافة عريقة ومرموقة³¹²، وأن هذه الثقافة تشكل الوقود الذي حفظ الأمة اليهودية من الضياع على مر الأزمنة. يضاف إلى ذلك، أن سيطرة إسرائيل على الدول العربية عسكريًا وعلميًا، عزز من رواج هذه الفكرة في ذهن الإسرائيليين.

رسّخت هذه المكونات الأيديولوجية والعسكرية النظرة الاستعلائية في نفوس اليهود، فالتقارب من العرب لغة وثقافة يحط من مستواهم، ومن الصعوبة بمكان إقناع اليهود بأنهم جزء من شعوب الشرق الأوسط، وعليهم المبادرة بالتقارب من العرب قاطبة، عبر احترام ثقافتهم وتعلم لغتهم.

³¹² يقول عبد الوهاب المسيري إن التاريخ لم يعرف ثقافة يهودية مستقلة وأن "العنصر الأساس الذي يهدد عملية بلورة خطاب إسرائيلي مستقل هو أن المجتمع الإسرائيلي مجتمع استيطاني يدين بالولاء الكامل للولايات المتحدة الأمريكية، ويعاني من تبعية اقتصادية وعسكرية مذلة لها، فهو يدين لها ببقائه وبمستواه المعيشي المتفوق. ولذا فثمة اتجاه جاء نحو الأمركة يكتسح في طريقه كل الأشكال الأمنية الخاصة التي أحضرها المستوطنون معهم من أوطانهم الأصلية" (المسيري، 1995: 19).

لا نبالغ القول، إن الوضع الحالي يعزز من تنامي النظرة السلبية تجاه الناطقين بالعربية، وإن من الشباب اليهود من يزعج حينها يستمع إلى محادثة لا تدار باللغة العبرية، ويستغل عدم استخدام اللغة العبرية، أحياناً، للاعتداء على الآخرين³¹³.

هذا، وتشارك وسائل الإعلام في ممارسة الضغوطات على العرب، إذ تستغل قوتها في إظهار الأخطاء والجوانب السلبية التي يقع بها الشباب العرب، خاصة، في الناحيتين الأمنية والأخلاقية. إذ تصدر الاعتداءات الأمنية التي يتهم بها العرب وسائل الإعلام، يساهم النشر المبكر، وقبل ثبوت التهمة على المتهمين في المحاكم، في إشعال الحقد تجاه العرب، ويُنظر إليهم كمعادين لدولة إسرائيل.

ج- رموز دولة إسرائيل: العَلَم والنشيد الوطني³¹⁴: هذه الرموز، تمثل قيم وتراث الأمة اليهودية وتساعد على توحيدها وتجميع أفرادها، وخاصة النشيد الوطني الذي يدعى

³¹³ ولنضرب على ذلك المثال الآتي: قامت مجموعة من الشباب اليهود بالاعتداء على خمسة شبان عرب من الجليل الغربي، أثناء تواجدهم في "الكريوت" والسبب فقط لأنهم كانوا يتحدثون باللغة العربية. وقد قال أحد الشباب حول ذلك: لم نعرف سبب الاعتداء علينا. ففينا كنا نلعب إحدى الألعاب ونحدث فيما بيننا بلغتنا العربية، وإذا بمجموعة من الشباب تنهال علينا بالضرب المبرح (الصنارة، 22.4.2005: 25). ونشير في هذا السياق، إلى أن البعض يزعج، أيضاً، عندما يسمع محادثة تدار بلغة غير عبرية، كالروسية مثلاً. ففي عام 2004 تناقلت الأخبار نبأ اعتداء حدث في مدينة أشقلون. ففي أحد المقاهي تحدث شبان يهود من أصل روسي فيما بينهم باللغة الروسية، وإذا بأحد رواد المقهى ينهال عليهم بالضرب، بحجة أن التحدث باللغة الروسية يزعجه جداً.

³¹⁴ أما شعار دولة إسرائيل فهو عبارة عن شمعدان وغصنا زيتون. كان في الأصل شمعدان ذهبي في الهيكل - كما هو منقوش في بوابة طيطس في روما وإلى جانبه غصنا زيتون، هما رمز للسلام، كما ورد في التوراة (زكريا، 4: 2-3): وَقَالَ لِي مَاذَا تَرَى فَقُلْتُ قَدْ نَظَرْتُ وَإِذَا بَمَنَارَةٍ كُلُّهَا ذَهَبٌ وَكُورُهَا عَلَى رَأْسِهَا وَسَبْعَةُ سُرُجٍ عَلَيْهَا وَسَبْعُ أَتَابِيبٍ لِلسَّرَجِ الَّتِي عَلَى رَأْسِهَا. وَعِنْدَهَا زَيْتُونَتَانِ إِحْدَاهُمَا عَنْ يَمِينِ الْكُورِ وَالْأُخْرَى عَنْ يَسَارِهِ.

بالعبرية "هتكفا" (أي الأمل). فالنشيد الوطني الإسرائيلي يعكس الحلم الصهيوني واليهودي، ولا يتطرق إلى وجود المواطن العربي.

ألف النشيد الوطني نفتالي هيرتس إمبر (1856-1909) عام 1880، أي قبل إنشاء إسرائيل بـ 68 عامًا. في الأساس كان هتكفا نشيد الحركة الصهيونية، الذي تم إقراره في المؤتمر الصهيوني الـ 18 في عام 1933، وجاء ليعبر عن مشاعر وأحاسيس اليهودي في الشتات إلى صهيون والتوق إلى الاستقلال السياسي. أما اللحن فمأخوذ من أغنية شعبية رومانية. وفيما يلي كلمات النشيد:

ما دامت الروح اليهودية تدوي في أعماق القلب،

نفس اليهودي جياشة، يملكها الحنين

وما دامت صوب الشرق

عينٌ ترنو نحو صهيون

لم ينقطع أملنا بعد

أمل ألفي سنة بأن

نكون شعبًا حرًا على أرضنا

أرض صهيون وأورشليم

توقع هذه الكلمات العربي في مواقف محرّجة، خاصة عندما يُعَنَّى هذا النشيد في مناسبات كعيد الاستقلال، أو في ملاعب كرة القدم، أو لدى تمثيل إسرائيل في الخارج؛ لأنها مخصصة لليهود، ولا تأخذ بالحسبان الوجود العربي وحقه في هذه البلاد. ومن الصعوبة بمكان تقبل نشيد هتكفا نشيدًا قوميًا يمثل العرب³¹⁵.

³¹⁵ هنالك من اليهود من يرفض هذا التوجه، ومن بينهم شلومو أفنيري، بروفيسور في العلوم السياسية في الجامعة العبرية، يقول (هآرتس، 20.10.1995؛ وانظر لدى أدان وآخرين، 2003: 181): أحيانًا يقول العرب الإسرائيليون (وهناك من يؤيدهم بذلك) إنه يصعب عليهم تقبل نشيد هتكفا نشيدًا قوميًا، وربما

وبهذا الصدد يقول أوري أفيري (يديعوت أحارونوت، 30.5.2005): "إن النشيد الوطني "هتكفا" وعلم نجمة داود على السواء رمزان يهوديان، وبالتالي من الصعب عليهم (أي العرب) التماثل معهما، وحتى احترامهما". فالعلم والنشيد، ينفيان بشكل قاطع أن إسرائيل هي دولة ثنائية القومية، وبالتالي لا يمكن تحقيق ثنائية اللغة.

يشكل إنشاد النشيد الوطني لحظة تضامن مع المواطنين الآخرين ومع إسرائيل، وهي اللحظة تم سلبها من المواطنين العرب في إسرائيل. ويؤكد عاموس شوكن (الصنارة، 10:20.4.2007) أن الخاسر الأكبر من فقدان هذا التضامن هي إسرائيل، ومواطنوها.

لقد طُرحت مسألة تغيير النشيد الوطني الإسرائيلي عدة مرات، وكانت أول محاولة في الثمانينيات قام بها عضو الكنيست اليساري، أوري أفيري، من حركة "هعولام هزيه" بدعوى أن كلمات النشيد تثير الحساسية لدى المواطن العربي، وتشعره بعدم الانتماء للدولة³¹⁶.

في عام 1995 اقترح ميخا غولدمن، نائب وزير المعارف، إجراء تغيير في الكلمات لكي تلائم الجمهور العربي، وطلب حذف الكلمات: "نفس يهودية جياشة". وفي يوليو 2005 أكدت وسائل الإعلام إدخال تغيير في نص النشيد، وذلك من خلال حذف كلمات قائمة وإضافة كلمات جديدة، من ضمنها كلمات عربية³¹⁷.

يجب تغيير علم الدولة ورموزها، وفي النهاية حتى يجب إلغاء قانون العودة بناء على قيم إنسانية - لتكون الدولة (كما يدعون) دولة لجميع مواطنيها. في هذه النقطة يجب علينا أن نكون أكثر وضوحًا. يمكن أن نفهم الصعوبات التي يواجهها العربي الإسرائيلي (وإذا أراد أن يسمى نفسه "فلسطيني-إسرائيلي"، فهذا طبقًا من حقه) في التماثل مع عبارات مثل "نفس اليهودي يملكها الحنين"، أو "عين ترنو إلى صهيون".³¹⁶ ودعمه لاحقًا في هذا التوجه عضو الكنيست، محمد بركة، الذي اقترح قصيدة شاؤول تشارنيحوفسكي אנני מאמין "أنا أو من" لتكون البديل للنشيد الوطني الحالي.

³¹⁷ من المؤكد أن التغيير المقترح يزيد من تماثل العربي مع الدولة ورموزها، ويساهم في عملية التقارب بين الشعبين. ولكنني أعتقد أن من الصعب تقبل إدخال كلمات عربية في النشيد الوطني الإسرائيلي، فهذا

لا تستطيع الدولة التي تعرف نفسها كدولة يهودية قبول هذا المطلب، فهي تريد أن تحتفظ بصبغتها اليهودية متجاهلة العرب حتى لا تضطر إلى الاعتراف بتاريخهم وبروايتهم³¹⁸. أما العلم³¹⁹، فهو أيضًا يثير الحرج لدى المواطنين العرب عندما يطلب إليهم رفعه على

التوجه يؤكد على ثنائية القومية لإسرائيل، الأمر الذي ترفضه هذه الدولة جملة وتفصيلاً، باعتبارها دولة يهودية لا غير. ففي المفاوضات التي جرت بين إسرائيل والسلطة الفلسطينية في العام 2008 حول الحل الدائم، طلبت إسرائيل من السلطة الاعتراف بإسرائيل كدولة يهودية، وقد رفضت السلطة الطلب، لما له من تداعيات على القضية الفلسطينية ككل، وعلى المواطنين العرب بشكل خاص.

³¹⁸ ويقول عاموس شوكن، صاحب وناشر صحيفة "هآرتس" في مقال له ترجم في صحيفة "الصنارة" تحت عنوان "آن الأوان لتغيير هتكفا" إن العرب في البلاد هم أبناء هذه الأرض، وإن المساواة بين العرب واليهود تتعلق بمدى الاعتراف بتاريخ الشعبين. وأضاف (الصنارة، 2007.4.20: 10) "إذا تحول عيد الاستقلال الـ 60 لدولة إسرائيل إلى ذلك اليوم الأول الذي تتحول فيه رواية العرب في البلاد إلى جزء من المضمون والثقافة الرسمية، فإن ذلك سيكون خطوة مهمة على طريق إيجاد قاسم مشترك بين العرب واليهود، ويمكن التعبير عن ذلك بخطوة ملموسة تتمثل في أن يقوم رئيس حكومة إسرائيل في يوم الاستقلال بتدشين عودة مهجري إقرث وبرعم إلى قريتهم".

³¹⁹ وفق الرواية الإسرائيلية (أدان وآخرون، 2003: 191) - العلم مكون من لونين، الأزرق والأبيض، وهما لونا الدثارة (شال الصلاة، الذي يلتف به اليهودي عند الصلاة، كما ورد في التوراة (العدد، 15: 38): كَلِمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَقُلْ هُمْ أَنْ يَصْنَعُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَابًا فِي أَذْيَالِ ثِيَابِهِمْ فِي أَجْيَالِهِمْ وَيَجْعَلُوا عَلَى هُدُبِ الذَّيْلِ عَصَابَةً مِنْ أَسْمَنْجُونِي. ويردان في وصف لباس الكاهن الأكبر في عيد الغفران. توجد بين الخططين الأزرقين هنالك نجمة داود. أما اللون الأبيض في العلم يرمز إلى الطهارة والقدسية.

لكن الرواية الفلسطينية تعطي العلم مفهوماً مغايراً، كما يقول ناصر دمع (1997: 141): "إن العلم الرسمي للدولة يرمز إلى حدود الدولة العبرية، وهو عبارة عن مسطح أبيض عن طرفيه خطان أزرقان يشيران إلى نهري دجلة والفرات. تتوسطه نجمة داود، كدلالة على قيام دولة إسرائيل من النيل إلى الفرات. أي إقامة دولة إسرائيل كاملة، حسب الحدود الجغرافية المحددة في التوراة، وفقاً لمعطيات وظروف اللحظة التاريخية التي تسمح بإنجاز هذه المهمة".

المؤسسات خاصة في "عيد الاستقلال"³²⁰. فاليهود الأرثوذكس المتدينون لا يحتفلون في هذا اليوم، ويرفضون رفع العلم في مؤسساتهم، بينما العرب يُجبرون على ذلك، ومن يخالف يعتبر غير موالٍ للدولة.

قضية العلم لها صلة وثيقة بالتغيرات السياسية التي تطرأ في المنطقة، عندما تكون الأجواء السائدة إيجابية وتنحو نحو السلام، فإن التعامل مع العلم يكون أكثر إيجابية³²¹. ويمكن القول، إن عملية السلام هي البارومتر الذي يقرر مدى التماثل الذي يبديه المواطنون العرب تجاه العلم.

³²⁰ حول رفض العرب تقبل العلم يقول شلومو أفيري (هآرتس، 20.10.1995؛ وانظر أيضًا لدى أدان وآخرين، 2003: 181): "والأمر ذاته ينطبق على العلم. يمكن أن نفهم الصعوبة التي يواجهها عرب إسرائيل في التماثل مع علم أزرق وأبيض عليه نجمة داوود. لكن في أعلام العديد من الدول الديمقراطية يظهر الصليب مثل: سويسرا والسويد، الدانمارك والنرويج، وبالطبع هناك الصليب المزوج في علم إنجلترا وإسكتلندا (العلم البريطاني). هل هذا يمنع المواطن اليهودي في هذه الدول من الإدلاء بيمين الولاء للعلم؟ من الطبيعي أن ذلك يصعب عليه، لأنه من الصعب أصلاً أن تكون أقلية كذلك في الدول الديمقراطية. على المستوى الرمزي فإن العرب في إسرائيل لهم وضع مشابه. وعلى كل حال، ليس ثمة معيار يلزم دولة قومية أن تغير رموزها".

³²¹ على سبيل المثال، في أعقاب توقيع اتفاقيات أوسلو قام الكثير من العرب يوم الاستقلال بوضع العلم على سياراتهم، أسوة بالسائقين اليهود. وعندما ازدادت الأوضاع سوءاً في هبة أكتوبر 2000 بعد اندلاع الانتفاضة الفلسطينية الثانية، اختفت هذه الظاهرة كلياً.

ح- الوثائق الرسمية: بطاقة الهوية الإسرائيلية: هنالك عدة إشكاليات لغوية وتشخيصية ذات صلة بإصدار الهوية للمواطن العربي، نوجزها بالنقاط الآتية:

1. أيد رئيس الحكومة الإسرائيلي الأول بن غوريون أن يتعلم التلاميذ العرب في المدارس بلغتهم الأم العربية، ودافع عن حق أعضاء الكنيسة العرب الخطابة بها، هذا على المستوى الرسمي، أما على المستوى الشخصي فلم يحترم العربية، كما نُشر في صحيفة "هآرتس" يوم 30 أبريل 1958:

بن غوريون رفض استلام هوية لأنها طُبعت أيضًا بالعربية... كما علم من وزارة الداخلية أن بطاقة الهوية طُبعت باللغتين العبرية والعربية، وفق نموذج الهوية السابقة. عمليًا حتى اليوم تُكتب الأسماء الشخصية وأسماء العائلة بالعبرية فقط.

2. في السابق كانت هوية المواطن العربي تصدر بلون برتقالي بخلاف هوية اليهودي، وكان يرد فيها ما يشير إلى قومية حاملها، ثم وُحِّدت بطاقات الهوية لتصبح كلها زرقاء³²². ولكن الهويات الجديدة المستحدثة، تميز بين العربي واليهودي من خلال وضع تاريخ الميلاد، كما سنرى لاحقًا.

3. عندما يقدم العربي طلبًا للحصول على بطاقة هوية، يعبئ نموذجًا يشتمل على بند يلزم العرب تسجيل اسم الجد (تحت خانة اسم الجد يكتب بالعبرية بين قوسين "خاص بأبناء الأقليات). وتدعي إدارة قسم التسجيل أن الهدف من إضافة اسم الجد يعود إلى تشابه الأسماء العربية بشكل كبير، وأن تسجيل الجد تسهل عملية التعرف على الشخص

³²² بعد احتلال إسرائيل الضفة الغربية وقطاع غزة في حرب 1967 أصدرت "الإدارة المدنية" بطاقات هوية ذات لون برتقالي لجميع الفلسطينيين، وذلك حتى يتم تمييزهم عن المواطنين الإسرائيليين. وعندما استلمت السلطة الفلسطينية إدارة الحكم الذاتي استبدلت اللون البرتقالي باللون الأخضر، الذي يعتبر جزءًا من العلم الفلسطيني.

صاحب الهوية (الصنارة، 2005.8.19: 6). إذا كان الأمر كذلك، فمن المفترض تعميم أمر التسجيل، حتى لا يكون أي تمييز بين مواطن وآخر، خاصة وأن هنالك أسماء متشابهة كثيرة لدى المواطنين اليهود أنفسهم.

4. ذكرت صحيفة "يديعوت أحرونوت" (2005.5.22) أن ثمانمائة شاب عربي غيروا أسماءهم الشخصية إلى أسماء عبرية، ظناً منهم أن ذلك سيساعدهم بإيجاد عمل في المرافق الاقتصادية اليهودية، ومن هذه الأسماء المفضلة: شارون ويانيف وأمير. ويتم كشف قومية صاحب الهوية من خلال تاريخ إصدار الهوية، إذ يضاف لهوية اليهودي التاريخ العبري (المدون بالأحرف العبرية) إلى جانب التاريخ الميلادي الغريغوري، بينما تبقى بطاقات هوية المواطنين العرب بلا تقويم عبري، وبهذه الطريقة تستطيع أجهزة الأمن الإسرائيلية التفرقة بين المواطن العربي والمواطن اليهودي³²³.

إن لهذا السلوك، أي تغيير الأسماء، تداعيات سلبية لا تُحمد عقبائها من الناحية القومية، فتغيير الاسم يُعدّ الخطوة الأولى للتنازل عن الهوية الجماعية والانزلاق نحو التهويد والدوبان³²⁴. وفي نفس السياق، هنالك من العرب من يسمي اسمه بأسماء عربية

³²³ إن انتحال أسماء الغير، يدل على المآزق الحرج الذي يقبع فيه الشباب العرب طلباً لكسب الرزق، فلو كانت فرص العمل متساوية وفق اعتبارات الكفاءة، لما حدثت هذه الظاهرة الخطيرة، فمن جهة، قد يساعد تغيير الاسم على تحقيق مكاسب اقتصادية، ولكن، عندما تنكشف حقيقة الشخص المتحل، فإنه يقع تحت طائلة القانون بشبهة انتحال هوية الغير.

³²⁴ حول هذه الظاهرة يقول رفيق جبارين (الصنارة، 2005.6.17: 56): "على كل حال، الأسباب للتغيير متنوعة ونتيجتها وخيمة وكارثية ومأساوية، وأهمها في نظري الجانب الوطني القومي، وهو أن من يرضى تغيير اسمه يسهل عليه التهود والانخراط في الخدمة المدنية وبعدها في الجيش، وهذا من أخطر الأشياء التي تهدد وحدة شعبنا وهويتنا القومية، وخصوصاً في ظل انعدام السلام وتعثر حل القضية الفلسطينية حلاً عادلاً ومقبولاً على الطرفين".

موجودة في العبرية³²⁵، وأحياناً يحدث لبس في الاسم العربي لدى رجال الأمن، عندما يكون هنالك تشابه مع أسماء أخرى من العبرية مثل: سامي، يوسف، نعيم، بركة، أديب وغيرها³²⁶.

³²⁵ هنالك من الشباب العرب من يسمى بأسماء عبرية مثل مكسيم وديان وغيرها. وهنالك من الشباب من يعرفون أسماءهم العربية من خلال استخدام الاسم العبري، بقصد أو بدون قصد، فإبراهيم يكنى "آفي"، وإسماعيل يكنى "شمعون"، وعبد الله يكنى "عوفاديا". أما بالنسبة لأسماء البنات، فإننا نجد من الأهالي من يطلق الأسماء العبرية لبناتهم منذ الولادة، مثل: غولدة (نسبة إلى غولدا مثير)، غيلا، هدار، هداسا (نسبة إلى مستشفى هداسا في القدس)، يردينا، شيران وغيرها.

³²⁶ تسبب الأسماء المتشابهة أحياناً إشكالاً لليهود أنفسهم، كما يتضح مما حدث مع الأديب اليهودي العراقي سامي ميخائيل إبان الحكم العسكري، حيث حرية التنقل كانت منوطة بتصريح من الحاكم العسكري، فعندما وصل سامي إلى إحدى البلدات العربية دار الحوار التالي بينه وبين الجندي المسؤول:

- هل لديك تصريح؟

- أجبتّه: لا.

- ما اسمك؟

- قلت: سامي.

- ما اسم عائلتك؟

- قلت: ميخائيل.

- قال: لماذا لا تمتلك تصريحاً؟

- قلت: لست بحاجة إلى تصريح.

فأجلسوني جانباً لأنهم رأوا في كلامي شيئاً من الوقاحة والتحدي. وبعد محادثة قصيرة سألوني ما اسم الوالد؟ فقلت لهم منشي، عندها علموا بأنني يهودي ولا موني لأنني لم أذكر اسم والدي. وخلصوا للقول: خجلت أن أقول ذلك، خجلت بأن أقول إنني يهودي.

5. في يناير 2007 قدمت جمعية "أنا إسرائيلي" التماسًا لمحكمة العدل العليا تطالب فيه تسجيل كلمة "إسرائيلي" بدلاً من كلمتي "يهودي" أو "عربي" في بند القومية الوارد في بطاقات الهويات. يشار إلى أن النيابة العامة للدولة تعارض بشدة هذا التغيير.

خ- تجاهل العربية: في مجالات حياتية شتى يُشعر المواطن العربي أن لغته عبء عليه، وأنه لا يستطيع تصريف أموره دون معرفة اللغة العبرية. ولنضرب على ذلك عدة حالات يتم فيها تجاهل العربية بشكل صارخ، وأحياناً يدفع العربي ثمنًا باهظًا جراء عدم استخدام العبرية في المؤسسات الحكومية والجهادية والخاصة:

1. موظفو وزارة الداخلية يطالبون المواطنين العرب ترجمة المستندات ووثائق الأحوال الشخصية المدونة باللغة العربية إلى العبرية كي يفهموا محتوياتها³²⁷.

2. يجبر الطلاب الثانويون العرب على تقديم مقترحات أبحاث البجروت باللغة العبرية، دون استثناء، حتى لو كان موضوع البحث حول الشعراء المحليين أو الحضارة العربية أو في مجال الدين الإسلامي³²⁸.

3. في بعض الحالات التي تتوجه الفتاة العربية إلى مكاتب العمل ولا تجيد اللغة العبرية، تُسجّل على أنها رافضة عمل، بحجة أن المشغلين اليهود لا يستقبلون عمالاً لا يتحدثون العبرية³²⁹.

4. عادة ما يتم تحذير العمال العرب، الذين يخدمون في شركات يديرها يهود، بألا يستخدموا اللغة العربية حتى مع الموظفين العرب الآخرين ومع الزبائن العرب، فقد

³²⁷ من المفروض أن توفر الدولة خدمة الترجمة أو أن توظف عربًا للقيام بهذه المهمة.

³²⁸ لقد نشر العديد من الطلاب شكاوى حول الموضوع في موقع "محسوم" (الذي يعالج شكاوى تُقدم إلى وزارة المعارف)، وكان رد الوزارة "لا يجيد كل المفتشين في الوزارة اللغة العربية".

³²⁹ لقد حصل ذلك في أحد المكاتب بمدينة حيفا.

فُصل أحد العمال العرب الذي يشتغل في فندق لأنه تحدث مع زميله باللغة العربية. وتمنع التعليقات الصادرة للعمل في الفندق من التحدث بالعربية بذريعة خلق التجانس بين العمال العرب واليهود في الفندق³³⁰.

وفي حادثة أخرى، مُنع العمال العرب في محطة وقود التحدث بالعربية مع الزبائن أو مع زملاء العمل، وعندما أصّر أحدهم على التحدث بالعربية، فصله مدير العمل (صوت الحق، 20.4.2007: 32). هذا ورصد التقرير السنوي لانتهاكات حقوق الفلسطينيين في إسرائيل للعام 2005 عدة حالات من هذا القبيل³³¹.

ح- إطلاق تصريحات عنصرية ضد العرب في ملاعب كرة القدم: يعتبر فريق بيتار القدس من أكثر الفرق تشددًا تجاه العرب، فهو يرفض أن ينضم إلى صفوفه لاعبون عرب³³².

³³⁰ ووجه مركز "مساواة" رسالة إلى إدارة الفندق يطالبها بإعادة العامل إلى عمله ووقف السياسة العنصرية قائلاً: "إن منع العامل التحدث بلغته يعتبر مسًا بكرامة الإنسان وبحقه بممارسة حقوقه الثقافية والقومية الأساسية" (الصنارة، 19.8.2005: 58).

³³¹ انظر في موقع:

www.arabhra.org/HraAdmin/UserImages/Files/YearlyReport2005Publicity_Pls48.htm

³³² رفضت إدارة بيتار القدس على مدى ثلاثين سنة ونيف أن ينضم إلى صفوفها لاعبون عرب. وعندما أعلن كابتن الفريق المليونير أركادي جايدمك في عام 2005 عن نيته التوجه إلى لاعب الكرة العربي، عباس صوان، للانضمام للفريق رفض المشجعون هذه الفكرة. وفي مقالة نشرها يوسي سريد، وزير المعارف الأسبق عن حركة ميرتس، في صحيفة "الصنارة عبر" عن استيائه من هذا السلوك قائلاً (الصنارة، 25.11.2005: 8):

"باعتقادي أن هنالك فرقاً عديدة في العالم لا تضم في صفوفها لاعبين من أصول معينة أو دين أو طائفة - على سبيل المثال يهود - لكنهم، على الأقل، ينجلون من أنفسهم ويحاولون التخفيف من تصرفاتهم العنصرية. على كل حال، هم لا يكشفونها أمام الجميع ولا يعلنون ذلك على الملأ. يمكن القول، إنه في دولة معينة تحترم نفسها، سياسة 'الآخر خارج اللعبة' غير قانونية... أما في بيتار القدس فهم لا ينجلون.

وأما مشجعو الفريق، فإنهم يصبون غضبهم على العرب ويتغنون بشعار "الموت للعرب"³³³، ويصل بهم الحدّ أحياناً إلى شتم الرسول محمد صلى الله عليه وسلم³³⁴. وللمقارنة، ذكرت صحيفة هآرتس (15.8.2004) أن عبارة "الموت لليهود" كُتبت بجانب كنيس نوتردام في باريس، واعتبرت العبارة بأنها عنصرية صدرت عن اللاساميين الفرنسيين. فالعبارة سُجلت على الجدران ولاقت صدىً واسعاً من السخط والاستياء داخل المؤسسة الإسرائيلية، فما بالك لو تم ترديدها في المظاهرات، وفي ملاعب كرة القدم، كما يحصل للعرب، على مدار السنة!

العلم الأسود يرفع إلى جانب العلم الأصفر وهو مرفوع فوق السياسة غير القانونية، وللأسف الشديد غير الأخلاقية. بيتار القدس يثير القرف بسبب مشجعيه (ليس كلهم)، إذاً هو الفريق الأكثر قرعاً في العالم. يعلم أركادي جيداً في أي حفرة مجارٍ وقع. في أوروبا يتهمونه بأنه صاحب فريق قومي عنصري، جمهوره يكره العرب لمجرد كونهم عرباً، حتى لاعب المنتخب الوطني لإسرائيل 'هو شخصية غير مرغوب بها في ملعب القدس'."

³³³ علق شاي برافرمان على ذلك قائلاً (الصنارة، 16.12.2005: 53): "كإنسان، وكمواطن لا أستطيع أن أتحمّل ما يحدث مع عباس صوان، الذي سجل هدفاً لمنتخب إسرائيل، وفي نفس الوقت، نسمع شعارات 'الموت للعرب'، هذا أمرٌ لا يطاق بالمرة. يجب أن نقضي على العنصرية، ومن جهة أخرى، العمل على الاستثمار في التربية والتعليم. لقد جلست مع نيلسون منديلا، وتحدثنا عن النضال ضد العنصرية، وأن الطريق الوحيد هي الأخلاق والعدل والمساواة. ولو حدث ذلك مع يهودي لقام العالم ولم يقعد، لكن ما يحدث في البلاد هو عيب وغير أخلاقي".

³³⁴ أثارت هذه الشتمات استياء في الوسط العربي. وفي هذا السياق أصدرت الجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة بياناً استنكر بشدة شتم الرسول صلى الله عليه وسلم، وأكدت "أن عنصرية المؤسسة الحاكمة ووسائل إعلامها وبرامجها التعليمية، تغذي كلها هذه الأصوات الفاشية والمنكرة"، وطالبت "باتخاذ الإجراءات الصارمة ضد هؤلاء العنصريين". كما أصدرت الحركة الإسلامية بياناً انتقدت فيه السلطة والمؤسسات الرسمية التي تكرر مظاهر العنصرية عبر تعاملها السلبي مع حقوق المواطنين العرب (موقع بانيت وصحيفة بانوراما 14.12.2007).

هذه الحوادث غيظ من فيض يتعرف عليها الجمهور من خلال نشرها في وسائل الإعلام العربية والعبرية. وهنالك حالات كثيرة يمتنع المتضررون من نشرها على الملأ. هذا الوضع يسيء للمواطن العربي، ويزيد من هوة التباعد وإثارة الضغينة وشحن الأجواء الساخنة.

عوامل تدعم التقارب اللغوي بين الشعيين

إن معرفة لغة الغير في مجتمع مركب من أغلبية وأقلية أمر ضروري، فبالنسبة للعرب الفلسطينيين، تساهم معرفة العبرية في تسير حياتهم المعيشية، وتعزز تواجدهم داخل المجتمع الإسرائيلي. أما بالنسبة لليهود، فتساهم معرفة العربية في التعرف على ثقافة العرب، من حيث العادات والتقاليد وأنماط معيشتهم. إن مجرد تعلم لغة الغير يعني بلا شك تقبله، ولو على المستوى الوجداني، تتبع ذلك خطوات بناء تقرب من وجهات النظر، والتي بدورها تخفف من حدة الصراع.

بالرغم من الأوضاع السياسية الصعبة السائدة في البلاد، والعوامل السلبية التي ذكرت أعلاه، والتي ترسخ بشكل جدي اتساع هوة الشرخ الحاصل بين الشعيين، فإن هنالك عوامل أخرى في المجال اللغوي تساهم في التقارب بين الشعيين. ومن أهم هذه العوامل³³⁵:

أ- الأصل السامي المشترك: كما ذكرنا، إن التقارب بين اللغتين العربية والعبرية المنعكس بوجود العديد من الألفاظ المشتركة بين اللغتين واشتراكهما في بعض الصيغ والاشتقاقات، يسهل على الطرفين التحدث بلغة الآخر، ويلاحظ ذلك لدى العرب أكثر منه عند اليهود.

³³⁵ يجب التأكيد على أن من العوامل المذكورة، كالغناء المشترك واللقاءات المحدودة، ما يعد بسيطاً، وله أهمية رمزية. بمعنى أن هذه الأمور البسيطة بمقدورها أن تشكل نموذجاً يحتذى به لو تم تبنيه على نطاق أوسع من قبل المؤسسات المعنية.

ب- الاختلاط اليومي بين الشيعين: يلتقي العرب واليهود في أماكن كثيرة كالمكاتب الحكومية، والمؤسسات الأكاديمية، وأماكن العمل، والمرافق الاقتصادية المصرفية، والمحلات التجارية، وأماكن التسلية والمتنزهات، وفي المناسبات الاجتماعية. تخلق هذه اللقاءات فرصاً سانحة لتطوير ديناميكية حوار، يتم من خلالها مناقشة قضايا متنوعة، وقد تنشأ عنها علاقات وثيقة على المستوى الشخصي، تساهم في تفهم الآخر وتفهم ميوله واحتياجاته.

ت- دراسة اللغتين في المؤسسات الأكاديمية: تدرس غالبية الجامعات والكليات الأكاديمية في إسرائيل العربية كلغة أجنبية، فالطالب الجامعي اليهودي الذي يتعلم العربية، يفترض بأنه اختار الموضوع بمحض إرادته الذاتية، ولديه فرصة التعرف على العادات والتقاليد وعلى الثقافة العربية من خلال مصدرين أساسيين: الطلاب العرب الذين يتعلمون العربية معه؛ والمراجع العلمية والأدبية المدونة باللغة العربية.

مما لا شك فيه، أن المحاضرين والطلاب اليهود في قسم اللغة العربية، لهم دور ريادي في تقريب وجهات النظر بين أبناء الشيعين، فهم بمثابة وكلاء للتغيير. وذلك عندما ينقلون الفكر العربي للمجتمع اليهودي من خلال عملهم في الصحافة أو تدريسهم العربية في المدارس العبرية. كما نجد من المعلمين العرب من يدرس العربية في هذه المدارس (بروش، 1996)³³⁶.

³³⁶ يذكر بروش (1996) أنه حتى عام 1995 درّس في المدارس العبرية ستون معلماً عربياً موضوع اللغة العربية، وواجه هؤلاء المعلمون صعوبات جمة، ذلك أن دعم التلاميذ وأهليهم لهذه السياسة كان قليلاً للغاية. ويضيف بروش أن التلاميذ وأهليهم لا يطورون علاقة إيجابية نحو المعلم الذي ينتمي إلى مجموعة مغايرة، يسود بينها وبينهم صراع اجتماعي وسياسي مستمر. ولكن من جهة أخرى، يدعي بروش أن نجاح المعلم العربي له علاقة مباشرة بشخصيته، وبالداغية للعمل، وبنظرة نحو وظيفته، وبقدرته على تجسيد هويته القومية ورموزها وانعكاسها في التدريس.

ث- إنشاء مدارس ثنائية اللغة: تشير الدراسات الحديثة إلى أن المتعلم في مدارس تعمل وفق نظام ثنائية اللغة يطرأ عليه تحسن في المستويين الآتين: المستوى التعليمي - هنالك تغيير نحو الأفضل في مستوى ذكائه، وسعة آفاقه، وطريقة تفكيره (عصف الذهن)؛ والمستوى الشخصي - القدرة على الاندماج الاجتماعي مع الآخرين، وإيجاد أماكن عمل، وفهم المصادر العلمية الواردة في لغة الهدف. وتكون الاستفادة أكثر، إذا كانت اللغتان قريبتين الواحدة من الأخرى.

تدعم ثنائية اللغة أبناء الأقلية في المحافظة على هويتهم، ويستطيعون من خلالها المحافظة على حقوقهم. كما يساهم اكتساب لغة جديدة في تعزيز المهارات اللغوية التي تتميز بها لغة الأم. يؤدي نجاح ثنائية اللغة إلى اكتساب الثنائية بشكل عالٍ، ويمنح فرصاً متساوية في التحصيل الأكاديمي، ويخلق هوية متعددة الثقافات، ويساهم في اتخاذ مواقف إيجابية نحو الآخر، كما يدعي كل من سكوتناب- كانغاس وغراسيا (Skutnabb- Kangas & Gracia, 1995) وكراوفورد (Crawford, 1997).

بادرت جمعية "يد بيد" إلى إنشاء مدارس ثنائية اللغة، وخرجت الفكرة إلى حيز الوجود عام 1997 بإنشاء مدرسة واحة السلام (نفي شالوم) بالقرب من القدس، ومن ثم أنشئت مدرستان في الجليل، ومدرسة في وادي عارة هي "جسر على الوادي". تدير الجمعية المذكورة المدارس الثلاث التي يتعلم فيها التلاميذ العرب واليهود من صف الروضة (التعليم في الجليل يبدأ من الصف الأول)، جميع الموضوعات وفي جميع المراحل باللغتين العربية والعبرية، كما ويتركّب طاقم الإدارة والمدرسين من عرب ويهود (أمارة، 2005).

هذه المدارس، هي بمثابة محاولة واقعية لتطبيق التعايش وخلق مجتمع مختلف في التعددية الثقافية واللغوية. باستطاعة هذا النموذج من المدارس، أن يشكل نموذجاً يحتذى به لمدارس تنوي مستقبلاً تبني فكرة من هذا القبيل. ففي هذه المدارس، يلتقي التلاميذ يومياً على مقاعد الدراسة وفي الساحات والملاعب، يتبادلون الحديث ويتعرفون عن كتب على

العالم الداخلي للآخر، ويستطيعون فهم ثقافة وتراث الغير، وتطوير الاحترام المتبادل من خلال برنامج تعليمي موحد يتناول الجوانب الأساسية والخاصة في الثقافتين. على المدى البعيد، يؤدي هذا إلى تقريب وجهات النظر، ويساهم في جسر الهوة بين العرب واليهود³³⁷. وقد ذكر في المؤتمر الثاني للتربية على أساس ثنائية اللغة، الذي عقد في جامعة حيفا، أن عدد العرب الذين أبدوا رغبة بالدراسة مع اليهود أعلى من نسبة اليهود³³⁸.

هذا وأشاد تقرير دوفرات، الذي أقرته الحكومة لإصلاح جهاز التعليم في إسرائيل عام 2005، بالدور الإيجابي لهذه المدارس (تقرير دوفرات، 2005: 218- البند 6.7.7):

نعتبر إقامة مدارس ثنائية اللغة يتعلم فيها اليهود والعرب معاً أمراً إيجابياً. فهذا النوع من المدارس بمثابة استثناء يمكن تحقيقه في مدارس لوائية. ونرى أن هذه المدارس تبذل جهوداً تستحق الثناء والتقدير في دورها بتحقيق التآخي بين الطرفين، إلى جانب كونها حقلاً تجريبياً لبرامج التعليم المشتركة في جميع المدارس في إسرائيل. يجب التفكير، في نطاق الميزانيات القائمة، بتخصيص ميزانية خاصة لتشجيع دمج الطلاب العرب واليهود في مدرسة واحدة.

³³⁷ يشكل هذا النموذج من التعليم فرصة لالتقاء الأهالي سوياً في الاجتماعات المدرسية، وفي الساعات الصباحية لدى توصيل أبنائهم إلى المدرسة، واللقاء بحد ذاته يكسر الحواجز النفسية، ويعزز من قبول الطرف الآخر.

³³⁸ هذا ما صرح به حجاجي كوبرميتس أثناء عرضه نتائج بحث أجري مع مجموعة طلاب من عرب ويهود، إذ تبين أن هناك رغبة لدى العرب واليهود بإقامة برامج تعليمية مشتركة، ولكن رغبة العرب في المشاركة كانت أكثر من اليهود (كل العرب، 2007: 12.1: 38).

ج- طرح مبادرات ودعمها من قبل جهات رسمية ومؤسسات: أُعلن عام 1990 من قبل وزارة المعارف ونقابة المعلمين كعام اللغة العبرية في الأوساط العبرية، وعام اللغة العربية في الوسط العربي³³⁹.

ح- مشاريع تربوية فنية مشتركة بين العرب واليهود: على مستوى المدارس تجرى لقاءات وزيارات متبادلة بين التلاميذ ولكنها محدودة للغاية، وهناك مؤسسات وجمعيات ترعى هذه اللقاءات، وتعمل على إنجاحها³⁴⁰.

وفي مجال الفن، نجد أن مطربين، يهودًا وعربًا، يقيمون حفلات مشتركة لأغانٍ مزدوجة اللغة، تكسر هذه الأغاني الحواجز وتساهم في الانكشاف اللغوي، خاصة، وأن الأغاني تتردد في عدة مناسبات، وثمة من يحفظها³⁴¹.

³³⁹ ووصف نير شوحيط هذا الحدث قائلاً (شوحيط، 1990: 109): "لقد اجتمعت اللغتان الشقيقتان في مهرجان واحد عبّر عن تأخي الشعبين الشقيقين وأظهر النقاط المشتركة بينهما".

³⁴⁰ نذكر على سبيل المثال، جمعية "صداقة" (ريעות) التي يلتقي التلاميذ سويًا، ويعملون تحت شعار "نبنى سويًا ما هو مشترك ونحترم الآراء المختلفة"، ويتحدثون بينهم باللغة العبرية، ويتعرف كل على عادات وتقاليد الآخر. كما وتقام فعاليات التعايش من خلال المخيمات الصيفية التي تهدف إلى تعزيز التواصل بين الشعبين. نذكر منها، على سبيل المثال، المخيم التقليدي للمعهد اليهودي العربي التابع للهستدروت في بيت بيرل الذي يقام سنويًا تحت شعار "لغة مشتركة، بلاد بلا حدود".

يجب التنويه إلى أن تغيب الطلاب اليهود عن بعض اللقاءات والفعاليات التي يتم إعدادها مسبقًا، يزيد من خيبة الأمل لدى العرب.

³⁴¹ نذكر على سبيل المثال، الأغنية المشتركة "شالوم، سلام عليكم" للمغنيين سامح زقوت وإيتي كاسترو. فالأغنية مركبة من مقاطع بالعبرية وتغنيها الشابة اليهودية، وأخرى بالعربية يغنيها الشاب العربي، واللازمة مكونة من اللغتين. تدعو الأغنية إلى كسر الجمود والتمسك بالسلام (القنال الثانية في التلفزيون الإسرائيلي، 19.7.2005).

في مجال التمثيل والمسرح، تأسست جمعية "أولاد السلام" عام 1987 وقامت في نهاية عام 2005، للمرة الأولى، بعرض مسرحية تتحدث عن الولادة والحياة والتفرغ التاريخي.

تعتمد هذه المسرحية على ثنائية اللغة، وتنطق باللغتين العربية والعبرية، وتحمل عنوان "سنة ممثلين يبحثون عن حبكة" وتدور حبكة حول السؤال التاريخي: ما هو الدور الذي يلعبه التاريخ في الحوار متعدد الثقافات والمصالحة؟ كيف نستطيع إيجاد حل وسط بين التاريخين المختلفين من أجل الوجود المشترك؟ (تريفزيون، 2005.12.30: 4) ³⁴².

وفي مجال تجسيد العلاقات العربية اليهودية والشراكة، وفي المجال الثقافي والرياضي والتربوي، انعقد في شهر أغسطس 2008 مهرجان "لقاء العمالة"، وهو أول مهرجان

كما تمّ لأول مرة في تاريخ الصراع الفلسطيني- الإسرائيلي إذاعة أغنية مشتركة للفنانين يوسف الفلسطيني وداني اليهودي في آن واحد في الإذاعة الفلسطينية (صوت فلسطين في رام الله) والإذاعة الإسرائيلية بالعبرية في تاريخ 27.3.2005. تتحدث الأغنية عن السلام، وهي مركبة من كلمة بالعربية وتليها كلمة بالعبرية وهكذا...، وبسبب التوازن اللغوي في كلمات الأغنية وافقت إدارة صوت فلسطين إذاعتها. ويدعي الفنان أن فكرة الأغنية تبلورت نتيجة للصدقة المتينة التي ربطت بينهما.

³⁴² تعطي المسرحية، التي تعرض على جمهور الكبار، فرصة الالتقاء وتبادل الحديث والحوار حول الموضوعات التي عُرضت على خشبة المسرح، ويطلب من الجمهور مواصلة النقاش في ثلاثة لقاءات تخصصها الجمعية لأولئك الذين يهتمون في تعميق الحوار والتفاهم بين الشعبين في المستقبل.

ومن الجدير ذكره، أنه يتم عرض المسرحية أمام الجمهور في الأماكن التي تعمل فيها جمعية "أبناء السلام" بين أبناء الشبيبة، مثل مسرح عين هحوريش، عيمق حيفر، أوديتوريوم يكما في القدس، المركز الجماهيري في قلنسوة وكيوتس برعام. تُعرض المسرحية بدعم من مبادرات "صندوق إبراهيم" وجامعة تمبل وايد.

للتعايش العربي اليهودي يُقام في منطقة عين حارود والطيبة الزعبية. وبهذه المناسبة قررت سلطة البريد إصدار طابع بريد خاص يشمل على كتابة باللغتين العربية والعبرية³⁴³.

الاستقطاب السياسي داخل الأحزاب اليهودية

يقول المثل العبري إن "الحياة والموت بيد اللغة" חיים ומוות ביד הלשון (يقابله بالعربية، مقتل الرجل بين فكيه)³⁴⁴، ذلك أن الكلمة تعمل في مساحتين، وهما الإرسال والاستقبال، ويهدف استعمال اللغة إلى تحقيق التواصل بين منتج الكلام ومستقبله سواء عبر الكلام أو الكتابة، فإذا ما تضمن الإرسال كلمة طيبة، فإنه يغزو قلب المستقبل ويكظم غيظه، بينما إذا كانت لغة التخاطب فظة فإنها تثير العداوة والبغضاء.

تكشف لغة التخاطب عن طبيعة العلاقات والمشاعر بين الأفراد والمجتمعات، ويفترض وورف Whorf أن اللغة التي نتحدث بها تبلور طريقة تفكيرنا وتصوّرنّا تجاه الآخرين، والنتيجة الحتمية من هذه الفرضية أن التغيير في لغة التخاطب سيؤدي إلى تغيير في القيم الاجتماعية، ويشمل ذلك التعامل مع المجموعات الإثنية المضطهدة (لدى نير، 1998: 20). سنتطرق فيما يلي إلى دور التخاطب باعتباره أداة للتعبير عن الذات والمواقف في الإطارين الآتين:

³⁴³ علق رئيس مجلس غلبوع على هذا الحدث قائلاً: "إنه أول طابع بريد يمثل بشكل فعلي التعايش العربي اليهودي والتعاون المشترك والحياة المشتركة الناجحة في منطقة الجلبوع" (موقع بانيت وصحيفة بانوراما، 18.8.2008).

³⁴⁴ في أغسطس 1999 قُتل شاب يهودي في يافا، يدعى غيل ميتشل، بسبب جملة واحدة قالها لقاتليه لدى اقترابهم منه: "دير بالك! إياكم أن تقتربوا من السيارة"، وقد فسروها بأنه يقصد تهديدهم، مما أثار غضبهم، ولذا انقضوا عليه وضربوه حتى الموت. التعبير "دير بالك" الدارج في اللغة العبرية العامية، فُهم بأنه تهديد لهم وإعلان الحرب عليهم، فلو قال لهم "الرجاء عدم الاقتراب من السيارة" لما وقع ضحية لهم (روزنتال، 2001: 76).

أ- الخطاب السياسي

يختلف ما يبتغيه السياسي في خطابه عما يريده مستخدم اللغة العادي في كلامه. ويستخدم الخطاب السياسي من أيديولوجية معينة، وهي الأيديولوجيا التي يتبناها النظام السياسي القائم، أو الأحزاب السياسية لترويج نظرياتها واتجاهاتها. ويدعي جورج أورويل أن اللغة السياسية مصاغة بشكل محكم، وتمتاز بالقدرة على قلب المفاهيم وطمس الحقائق، فالكذب يُدرك وكأنه حقيقة، والقتل يتخذ شرعية العمل المحترم، والمتحول يظهر وكأنه أمر ثابت.

إلى جانب ذلك، يستخدم السياسيون اللغة للنيل من الخصم أو للتشهير به، وبهذا تساهم اللغة في التنافر ليس فقط بين الأكثرية والأقلية، وإنما أيضًا في صفوف الناطقين بها. إلى جانب كل ذلك، يستخدم الخطاب السياسي كبوق دعائي بين الشعوب المتنازعة، وهو منتشر جدًا في الصراع العربي-الإسرائيلي.³⁴⁵

³⁴⁵ لنذكر مثالين على ذلك: المثال الأول- وعد أريئيل شارون الشعب الإسرائيلي (في انتخابات 2003) بأنه سيقضي على انتفاضة الأقصى خلال مائة يوم. وازدادت الوقائع أكثر تعقيداً، واستنفذت جميع الوسائل العسكرية لإخماد الانتفاضة دون جدوى. ولم يبقَ أمام شارون إلا محاصرة عرفات في المقاطعة، وتريد الشعار أن عرفات "ليس ذا صلة"، "غير ملائم" לא רלוונטי وأنه لا يوجد شريك من الطرف الفلسطيني للتفاوض معه. وحشد الرأي العام العالمي حول هذه المقولة، ولم يهب أحد لنصرة عرفات إلى أن وافته المنية.

المثال الثاني- دعت الإدارة الأمريكية إلى إجراء الانتخابات في الأراضي الفلسطينية حرصًا منها على نشر الديمقراطية في الشرق الأوسط، وقد وافقت إسرائيل على هذه الخطوة، وأسفرت الانتخابات عن فوز حركة حماس في غالبية مقاعد المجلس التشريعي الفلسطيني. ووقعت النتائج كالمصاعقة على قيادة المؤسسة الإسرائيلية، التي بدأت تستقطب دول العالم لمعاقبة الشعب الفلسطيني ومحاصره ماديًا وسياسيًا وأمنيًا، لانتهاجه الخيار الديمقراطي الذي يخالف مزاجها. وحتى الرئيس الفلسطيني، محمود عباس، الذي يعتبر مقبولاً على الأمريكيين والإسرائيليين لم ينجُ من ذلك. فوزيرة الخارجية الإسرائيلية السابقة

انعكس التصدع/الشرخ الاجتماعي والسياسي في المجتمع الإسرائيلي جلياً في اختيار الألفاظ التي تعبر عن التوجهات الأيديولوجية الحزبية. فاليمين الإسرائيلي، يطلق على نفسه "المعسكر القومي" و "المعسكر المخلص لأرض إسرائيل"، حتى يبعد النظر عنه كمعسكر متطرف. بالمقابل، أطلقت الأحزاب اليسارية على نفسها "معسكر السلام"، حتى لا تتهم بأنها تتعاطف مع العرب وتؤيد استرجاع أراضٍ لهم.

على المستوى البرلماني، تشكل الكنيست منبراً يعبر فيها أعضاء الكنيست عن مواقفهم وبرامجهم السياسية. وكثيراً ما تتحول الكنيست إلى حلبة تراسق بين أعضاء الكنيست العرب والأحزاب اليمينية، من جهة؛ وبين الأعضاء المتدينين والعلمانيين، من جهة أخرى. تكثر المشاحنات بين الأحزاب السياسية والدينية في إسرائيل على خلفيات مختلفة. ولنذكر على سبيل المثال، الراي عوفاديا يوسف، الزعيم الروحي لـ "حركة شاس"، الذي يعتمد خطابه على ألفاظ تليي حاجة مناصريه وتلم شملهم، وهم بدورهم يعتبرونها جيدة، ويدافعون عنها بحماسة شديدة. بينما الخصم السياسي أو العلماني، يرى بألفاظه سلبية ومغرضة، بل مهينة وتحتوي على مضامين تحريضية، مبطنة وصريحة، لا تساهم في خلق حوار بناء داخل المجتمع الإسرائيلي، وتزيد من هوة الاستقطاب المستفحلة بين المتدينين والعلمانيين³⁴⁶.

تسيبي لفني (التي تسلمت المنصب في فبراير 2006) تحولت في عدة دول، وركزت على أن حماس "حركة تخريبية"، وأن أبا مازن غير ملائم، "ليس ذا صلة".

³⁴⁶ يستخدم الراي عوفاديا أساليب مهينة يقوم بتوجيهها للخصم إذا كان عربياً أو يهودياً. فهو يخاطب العرب بكلام بذيء عنصري يصل إلى درجة الشتائم (أمارة ومرعي، 2008: 240). وفي الانتخابات الأخيرة، التي جرت بتاريخ 10.2.2009، صب جام غضبه على أفيغدور ليبرمان، زعيم حزب يسرائيل بيتينو (إسرائيل بيتنا)، ناعثاً إياه بالشیطان، وبأن الله لن يغفر لمن يصوت له.

ولكي نفهم مدى فظاظة اللغة، سنورد فيما يلي مقتطفات من إحدى المواعظ الدينية التي هاجم فيها الرابي عوفاديا يوسف بشدة، وبلغت ساخرة ومهينة، زعماء الأحزاب السياسية عشية الانتخابات عام 2001، وبُثت موعظته في القمر الصناعي في جميع أنحاء إسرائيل، واستهل خطبته بالعبارات الآتية (روزنتال، 2001: 134):

سنتحدث اليوم عن الذين يسمون عندنا باللغة اليونانية، محا الله اسمهم وذكرهم، السياسيين. هؤلاء السياسيون، من هم؟ ولماذا يسمونهم كذلك؟ إنهم طفيليات تلتصق بجلدك، ولا تستطيع إزالتها، حتى لو قمت بحك جسدك ليل نهار، فأنت تحك دون أن تترك. كيف تسمون ذلك في السوق؟ (برارة. صنف ج).

ومن ثم هاجم القادة السياسيين على التوالي:

بنيامين نتنياهو: أحد السياسيين، إنكم تعرفون بأنه عنزة عمياء، واسمه بنيامين. بنيامين هو اسم لشخص صغير لا يفهم ركלוه ركلة وذهب إلى أمريكا. هناك في أمريكا اعتقد بأنهم لا يرون به عنزة. بل ويحسبونه كبشًا. رأى الأغيار أنه يتحدث الإنجليزية بطلاقة، لغة عابدي الأصنام، واكتسب مالا كثيرا³⁴⁷.

إيهود براك: ذهب بنيامين وجاء إيهود. هذا مثل الثعلب الأعمى، يركض في الكروم، مخرب. يقولون عنه بطل حرب. قائد عسكري. إيهود القاضي. إلى أي هدف يحارب؟ يرتدي زي النساء³⁴⁸، يتسلق على الطائرات. الآن جاء ليكون علينا ملكًا، انظروا. أتلّف كل شيء بعمله، إنه كالإوزة في البيت عندكم. تقع، ومن ثم تنكسر.

³⁴⁷ شخصية نتانياهو مثيرة للجدل في المجتمع الإسرائيلي، وله مواقف فريدة تشير إلى تقلباته السياسية، فهو يتمتع بمقدرة لغوية دياغوغية عالية، بحيث يستطيع تطويع اللغة للخروج من المأزق التي يقع فيها. ولذا أُطلق عليه لقب "الساحر".

³⁴⁸ يشير عوفاديا يوسف إلى باراك القائد العسكري للقوات الإسرائيلية في لبنان، حينما كان يتنكر بزي نساء، وينفذ عملياته ضد القيادة العسكرية والسياسية لمنظمة التحرير الفلسطينية.

ليمور لفئات: وطلت علينا تلك التي تصرخ، عندما يتحدثون إليها تصرخ. يسمونها ليمور، اسم فاجرة. أمها مغنية معاذ الله. لماذا لم تسم باسم رفيقه؟ ليئه؟ اسم صديقة؟ وهذه ليمور مثل الدجاجة العمياء، تذهب لتلتقط الحب وتفرق. تعتقد، بأنه عندما تذهب إلى محكمة العدل العليا، محا الله اسم هذه المؤسسة، تجد هناك من يدعي بأنه قاضٍ ويعطيها من الفتات. هذه أيضًا تريد أن تكون ملكة علينا. أين رأيتم فضيحة كهذه؟ امرأة تنصب علينا ملكًا؟

أريئيل شارون: جاء إلينا شخص، الملاك أريئيل. يقولون عنه، ملك إسرائيل. هذا الشخص، لا يجب إلا الحروب، جاء وجعلوه ملاكًا للسلام. يجلس بجانب الطاولة، يتحدث جيدًا، بأدب، وعندما يقوم، ماذا ترون؟ فيل. فيل أعمى. أينما يذهب يكسر شيئًا ما. تنكسر الطاولة. ينكسر الصحن في المطبخ. يقولون عنه ملكًا؟

هذا الخطاب بمثابة هجوم على الشخصيات الرئيسة اللاعبة في الحلبة السياسية الإسرائيلية في فترة الانتخابات المذكورة أعلاه. ومن الواضح، أن الراي عوفاديا أعطى سمة بارزة لكل شخصية، وشبه كل واحدة منها باسم الحيوان الذي يختص بتلك السمة. كما ويلاحظ التنوع في بدء الألفاظ الفظة.

يتعامل المجتمع الإسرائيلي مع الخطابات السياسية بمعيار مزدوج، فعندما يتحدث زعيم ديني بمثل هذه الألفاظ يتساحون معه. وكذلك الأمر بالنسبة للتصريحات والتفوهات العنصرية التي يطلقها رجال دين وسياسيون وأكاديميون ضد العرب، فيتم التغاضي عنها، فلا يحاسبون على أقوالهم (أمارة ومرعي، 2008). ولكن عندما يترشق السياسيون من الأحزاب الأخرى بألفاظ نابية، عادة ما يوجه لهم انتقاد لاذع.

ب- الدعاية الانتخابية

يستخدم اليهود الأشكناز والشرقيون على حد سواء، لهجات الخصم في الحملات الانتخابية، للتشهير ببعضهم البعض. فالأشكناز يعتمدون لغة اليبديش التي يكثر فيها اللفظ "فوز"، الأمر الذي دفع بالشرقيين إلى تلقيب الأشكناز بلقب "فوز فوز".

وردًا على هذا اللقب التحقيري، اكتشف الأشكناز لقبًا مماثلًا أطلقوه على الشرقيين وهو لقب "تشاخ تشاخ" لأن هذا الصوت اللفظي كان بارزًا في اللهجات المغاربية، بناءً على الأذن الغربية الأشكنازية. ويذكر، أنه في إحدى الحملات الانتخابية لحزب العمل، استعمل الفنان والفكاهي ورجل التلفزيون، دودو طوباز، هذا اللفظ لإهانة ناخبي اليهود الشرقيين، إذ كناههم "تشختشاخيم"، الأمر الذي أثار حفيظتهم.

وقد ادعى الليكود أن هذا التوجه من قبل هذا الفنان لا يعد انفراديًا، بل ويشكل النظرة الاستعلائية للصفوة الأشكنازية تجاه اليهود الشرقيين على جميع مللهم. أثارت هذه الحادثة الاحتقان الطائفي بين الأشكناز والسفراديم في إسرائيل، وقد استثمرها الليكود بحكمة بالغة، ورد عليها في حينه مرشح الليكود، ميناخيم بيغن، لاعبًا على العواطف الطائفية: "أنا أيضًا تشاخ تشاخ" ³⁴⁹ אני גם צ'ח'צ'ח'.

رأى بعض المراقبين أن هذه الحادثة قد مهدت الطريق أمام الليكود لاستلام مقاليد الحكم، من جهة؛ ومن جهة أخرى، وجدت قيادة الطائفة المغربية فرصة سانحة لتأسيس حزب خاص بها، وهو الحزب الديني "شاس" (اختصارًا للكلمات "سفارديم شومري توراه"،

³⁴⁹ اعتبر الليكود نفسه آنذاك بأنه "حزب شعبي" يعمل من أجل الطبقات المسحوقة اجتماعيًا، مما حدا بالكثير من المصوتين التقليديين المؤيدين لحزب العمل من أبناء الطوائف الشرقية، الانضمام إلى حزب الليكود.

أي يهود شرقيون يحافظون على التوراة) الذي كان له الأثر الكبير في سنوات التسعينيات من القرن الماضي على الحكومات اليمينية واليسارية، على حدٍ سواء.

وهناك حادثة مشابهة، حدثت في انتخابات 1999، عندما وصفت إحدى الممثلات من الأصل الأشكنازي في حشد انتخابي لحزب العمل وبحضور مرشحه لرئاسة الحكومة، إيهود براك، وصفت الشرقيين بلفظ "أسفسوف وأنشي هسوك" אספסופ ואנשי השוק (أي، رعا وعاملون في الأسواق). فرد عليها مرشح حزب الليكود، بنيامين نتניהو، الذي كان يشغل في تلك الفترة منصب رئيس الحكومة بعبارة "أني أسفسوف غثيه" אני אספסופ גאח (أي، أنا رعا فخور).

أدرك إيهود براك خطورة هذا الخطاب، وتوجه إلى الشرقيين عشية الانتخابات التي أجريت عام 1999، واعتذر منهم على الغبن الذي لحق بهم نتيجة السياسة الأشكنازية التي تبناها حزب العمل، وطلب منهم السماح، ووعد بإصلاح الوضع حينما يفوز برئاسة الحكومة³⁵⁰.

في المجال اللغوي، بدلت تعابير ألصقت بالشرقيين ووُصفت بأنها سلبية، وهدفت إلى تحقيرهم، ومن أمثلة ذلك:

³⁵⁰ يعتقد الكاتب الروائي سامي ميخائيل (2000: 19) أن توجه براك كان في مكانه، ولو أنه كان متأخرًا من قبل القيادة الأشكنازية. بدون شك، كان هدف براك سياسيًا وذلك حتى يكسب أصوات الشرقيين الحاقدين والناقمين عليه. ولكنه، في نفس الوقت، يعبر عن الشعور بالذنب تجاه الشرقيين وما حل بهم على مدى نصف قرن.

التعبير السلبي	التعبير الإيجابي البديل
الطائفة المغربية	القادمون من المغرب، يهود المغرب، القادمون من شمال أفريقيا
غناء شرقي	غناء شرق أوسطي
زنجي	أفريقي ³⁵¹

جدول رقم 14: تبديل تعابير لغوية خاصة باليهود الشرقيين

وعلى هامش انتخابات 2006 لم ترد كلمة "سلام" بتاتاً في الدعاية الانتخابية، وهذا ينافي الإجماع القومي الإسرائيلي الذي تردد منذ قيام إسرائيل وحتى هذه الانتخابات، أن الأيدي الإسرائيلية ممدودة للسلام، ولكن المشكلة في العرب الذين لا يفهمون إلا لغة القوة.

وبدلاً من كلمة "سلام" ترددت لفظة "انسحاب"، وهذا بحد ذاته يعتبر تحولاً غير مسبوق في الرأي العام الإسرائيلي، الذي رأى بأغلبيته أن إبقاء الاحتلال هو الوسيلة الناجعة للحفاظ على أمن إسرائيل. أما ما يخص الأمور الأخرى، فقد عملت جميع الأحزاب على كسب أصوات الناخبين بطرق شتى، ويمكن ملاحظة توجهين في صفوف الأحزاب الدينية والصهيونية.

³⁵¹ كلمة "زنجي" في التوراة هي بلاد الحبشة على اسم كوش بن حام بن نوح "وَبَنُو حَام: كُوشُ وَمِصْرَايִمُ وَفُوطُ وَكِنَعَانُ. وَبَنُو كُوشَ سَبَا وَحَوِيلَةُ وَسَبْتَةُ وَرَعْمَةُ وَسَبْتَكَا. وَبَنُو رَعْمَةَ: شَبَا وَدَدَانُ" (التكوين، 10: 6-7). لكلمة "كوش" في التوراة مدلولان: مدلول سلبي، كما ورد في كتاب "إرمياء" (13: 23): "هل يُعَيِّرُ الْحَبَشِيُّ بَشَرَتَهُ وَالنُّجُورُ جُلْدَهُ الْمُقَرَّبُ؟ إِذَا تَقَدَّرُونَ أَنْتُمْ أَنْ تَصْنَعُوا الْخَيْرَ وَأَنْتُمْ تَعُودُونَ الشَّرَّ". ومدلول إيجابي كما ورد في كتاب "عاموس" (9: 7): "أما أنتم لي كأهل كوش يا بني إسرائيل، يقول الرب؟". في المجتمع الإسرائيلي المعاصر اكتسبت الكلمة مدلولاً سلبياً، ويعود ذلك، كما يبدو، إلى التأثير من اللغة الإنجليزية.

عملت الأحزاب الدينية اليهودية جاهدة على انتقاء التعابير المشحونة بالمشاعر الوجدانية للاستيلاء على أصوات الناخبين. فحزب شاس الشرقي، على سبيل المثال، يجند الربانيين في حملته الانتخابية، ويتخذهم ورقة ضاغطة لاستقطاب الأصوات من خلال استخدامهم "الحرز" والتبريكات الدينية والصلوات. بل أكثر من ذلك، فقد صرّح الرابي عوفاديا أن من ينتخب حزب شاس يضمن له دخول اللجنة في الآخرة، وكل ناخب يدلي بصوته لصالح حزب كاديا برئاسة إيهود أولمرت ستكون جهنم مصيره في الآخرة³⁵².

أما الأحزاب الصهيونية التي تقع في مركز ويمين الخارطة السياسية الإسرائيلية، فقد اتخذت من كلمة "إسرائيل" محورًا رئيسًا في نهجها الانتخابي على الصعيدين الآتين: الاسمي - فهناك ثلاثة أحزاب اشتملت أسماؤها على لفظة "إسرائيل"، وهي: "إسرائيل بعلياه" "ישראל בעלייה"، "إسرائيل بيتينو" "ישראל ביתנו" و"كاديا إسرائيل"³⁵³ קדימה ישראל. والقومي - فقد ملأ حزب الليكود شوارع البلاد بالشعار "الليكود قوي - إسرائيل آمنة" ליכוד חזק - ישראל בטוחה، وحزب العمل أعاد ذاكرة الناخب بحتمية وجوده "إسرائيل تنتظر حزب العمل" ישראל מחכה לעבודה، وهي مقولة استخدمها الحزب في سياق آخر "إسرائيل تنتظر رابين" ישראל מחכה לרבין، وعلى أثرها فاز في الانتخابات³⁵⁴.

³⁵² ألغت رئاسة الانتخابات المركزية، القاضية دوريت بينش، الدعاية الانتخابية الخاصة بذكر "اللجنة"، حيث أثار هذا القرار حفيظة قادة شاس، وعلى رأسهم الرابي عوفاديا يوسف، الذي أكد أن ما قاله صحيح، وأنه لا يقول إلا قول الحق.

³⁵³ وقبل الانتخابات اتفق على تسمية الحزب "كديا".

³⁵⁴ أما الدعاية الانتخابية لحزب العمل في البلدات العربية فتمثلت في الشعار "دقت ساعة العمل"، وذلك لشحذ همم المؤيدين العرب للحزب، وتجنيدهم للتصويت بكثافة لصالح الحزب. كما وظهر على

خلاصة القول، إن هناك أثرًا كبيرًا لقوة الكلمة في تسييرها للأمور الحياتية، وينعكس ذلك في التقارب والتباعد بين الأفراد والمجتمعات، في حالة السلم والحرب، وفي حالة تأجيج الصراع وإخماده. وتظهر قوة الكلمة في المناحي السياسية، إذ يتم توظيفها بصورة انتقائية لتخدم الهدف الدعائي الذي يُرغب في تحقيقه.

اللافتات الانتخابية التمهيدية لحزب العمل، التي سبقت الانتخابات العامة، الشعار "فؤاد بن إليعيزر هو الأفضل للعرب".

الفصل السادس

مواجهة المواد التعليمية والثقافية والدينية لدول الغير

دار النقاش في الفصل السابق حول دور اللغة في إبراز مظاهر الصراع داخل المجتمع الإسرائيلي على توجهاته القومية والدينية والحزبية خلال الانتخابات، وقد عُدَّت هذه الصراعات أمراً طبيعياً في دولة مهاجرين حديثة العهد، تشتمل على تركيبة سكانية متباينة. لكن المسألة تصبح معقدة أكثر حين تتدخل دول، مثل إسرائيل وأمريكا، في الشؤون الداخلية التي تخص العالم العربي.

والأسئلة التي تطرح نفسها هي: هل يحق لدولة ما التدخل بالشؤون الداخلية لدول الجوار؟ في أي الموضوعات يمكن التدخل وكيف؟ ومن يعطيها الحق في التدخل؟ وهل تسمح هذه الدولة لدول أخرى التدخل في خصوصياتها؟ سنحاول الإجابة عن هذه التساؤلات من خلال الاطلاع على المواد التعليمية والثقافية والدينية، والتي تعتبر مادة حساسة بمقدورها إشعال نار الفتنة بين الشعوب.

مناهج التدريس والصراعات السياسية- الثقافية

يُنظر للتربية على أنها عملية منظمة هدفها إحداث تغيرات مرغوب فيها في سلوك المتعلم. هذا التغير لا يحدث بطريقة عشوائية، وإنما يندرج في إطار خطة مبرمجة تضعها الدولة بالتنسيق مع رجالات التربية الموكلين بتسيير العملية التعليمية³⁵⁵. المعلوم أن الدولة هي

³⁵⁵ يعكف هؤلاء المتخصصون على إعداد المناهج التدريسية، ومن ثم تحضير المواد التي ستشملها الكتب المدرسية، والتي بواسطتها يتم تحقيق الغايات والأهداف المخطط لها في المناهج التعليمية.

التي تقر الأهداف التعليمية للتلاميذ³⁵⁶، فهي ترى في تنشئة التلميذ وسيلة لتحقيق غايات المجتمع، التي تعتبر أهم من غاياته الذاتية³⁵⁷.

تسعى مناهج التعليم عامة، ومناهج اللغة التي تتضمن تدريس النصوص الأدبية خاصة، إلى تحقيق الأهداف الآتية:

1- تحقيق مآرب سياسية:

أ) تثبيت نظام الحكم: تأثير نظام الحكم على الأهداف السياسية ليس أمرًا جديدًا، وقد بدأ العمل به منذ فترة أفلاطون وأرسطو، وازداد بقوة في القرن العشرين³⁵⁸.

³⁵⁶ تضع الدول المتحضرة التلميذ في المركز، وتسعى جاهدة إلى تنمية ذهنه، وتوسيع آفاقه التعليمية والتربوية والنفسية، وباستطاعته انتقاد المؤسسات الشعبية والخاصة، بطريقة بناءة. بينما في الدول التي تنتهج أساليب غير ديمقراطية، فإن اهتمام السلطة بالتعليم يكون أكثر، فهو يخضع لمراقبة السلطة المركزية التي توجه المتعلمين بالمحافظة على نظام الحكم والدفاع عنه بقوة.

³⁵⁷ بمعنى آخر، للسياسة نصيب وافر في توجيه البرامج التعليمية والتنشئة الثقافية. وقد عبّر عن ذلك رشدي طعيمة بقوله (طعيمة، 1998: 40):

"والحديث عن الذاتية الثقافية في مناهج التعليم وكتبه يعني، من بين ما يعنيه، الحديث عن نمط التنشئة السياسية الذي تتبناه هذه المناهج وتلك الكتب للمواطن بأوسع ما تشتمل عليه كلمة التنشئة من معنى، سواء من حيث المضمون بما في ذلك القيم والمعتقدات والاتجاهات والمهارات وأشكال الانتماء التي تغرسها هذه المناهج والكتب في المواطن، أو من حيث الإجراءات والأساليب، التي تستخدمها المناهج والكتب في سبيل تحقيق أهداف التنشئة المرجوة".

³⁵⁸ ولنضرب على ذلك مثالين: تعد ألمانيا من أكثر الدول الأوروبية التي شهدت تحولات في نظام الحكم، وقد وُظفت المناهج التعليمية بشكل محكم لخدمة هذه التحولات. حتى عام 1918 كان نظام الحكم إمبرياليًا، بعدها تحول إلى جمهوري حتى عام 1933، ومن ثم إلى حكم دكتاتوري حتى عام 1945. وبعد الحرب العالمية الثانية انشطرت ألمانيا إلى قسمين، القسم الغربي ديمقراطي والقسم الشرقي شيوعي. أما المثال فهو الثاني، نظام الحكم الشيوعي في الاتحاد السوفياتي سابقًا، والذي تم تثبيته عبر الكتب المدرسية خاصة الأقاصيص الشرية والأشعار، التي كانت معبأة بالفكر والفلسفة والأيدولوجية الشيوعية.

ب) دعم لحزب معين في دولة ديمقراطية: تحاول الأحزاب الحاكمة في إسرائيل تدريس مواد الأدباء الذين ينتمون لأحزابها سياسياً³⁵⁹.

ت) السيطرة على ثقافة الأقلية: يُستغل تدريس اللغتين العربية والعبرية للتلاميذ العرب لتعزيز الأسرلة والابتعاد عن الفلسطنة، وذلك من خلال تفريغ مضامين التدريس من القومية العربية، والانتهاء إلى الأمة العربية والشعب الفلسطيني³⁶⁰.

ث) تبني ثقافة الدول الصديقة: يلاحظ في إسرائيل، وجود توجه لتعلم اللغة الإنجليزية والثقافة الأمريكية، باعتبارها دولة صديقة داعمة لإسرائيل. بينما يُنظر إلى العربية كلغة عدو يبتعد التلاميذ وأهلهم عن تعلمها.

ج) تذويب العرق: عمد اليهود من الصفوة الأشكنازية في إسرائيل منذ نشأتها إلى إقصاء الثقافة الشرقية من مناهج التعليم في المدارس العبرية، وتعلم الثقافة الغربية، لأنهم نظروا إلى الثقافة الغربية كمصدر للثقافة المتنورة والتقدم العلمي.

2- تعزيز الدافع القومي من خلال انتماء الفرد إلى دولته، والولاء لها والدفاع عنها.

3- المحافظة على الوعاء الثقافي، ومعرفة تاريخ الأمة والتمسك بعاداتها وتقاليدها بغية دعم الاعتزاز بالذات، وتنمية الهوية، وعدم الذوبان في الشعوب الأخرى.

4- نشر التعليم وتنمية الوعي من خلال دعم المسيرة التعليمية، ووضعها على الأجندة الجماهيرية.

³⁵⁹ على سبيل المثال، في فترة حكم حزب العمل الإسرائيلي، والذي استبدل بحزب الليكود عام 1977؛ لم يدرسوانتاجات الشاعر أوري تسفي غرينبرغ، الذي يُعرف بأرائه اليمينية. وعندما استلم الليكود سدة الحكم، أُدخلت قصائده إلى منهاج الأدب العبري، كمادة إلزامية.

³⁶⁰ لا يعرف التلميذ العربي عن ماضيه وتراثه العربي، وبالمقابل يُلزم بتعلم اليهودية بشكل مكثف. أضف إلى ذلك، أن هنالك كتباً مصنفة في وزارة المعارف والثقافة يحظر توزيعها في المدارس العربية، وكل من يخالف ذلك يقع تحت طائلة القانون.

التغيرات في مناهج التدريس

تُوظف مناهج التعليم لخدمة الأهداف التي تضعها إسرائيل، لذا فهي غير ثابتة وتتغير وفق الاحتياجات والمتطلبات السياسية والاجتماعية الناتجة عن دوافع داخلية أو ضغوطات خارجية. تشكل التغيرات وليدة الدوافع الداخلية نقلة نوعية، إذ أن الوضع الحالي للمجتمع لا يلائم الظروف التي وضعت فيه المناهج سابقاً، أو أن الدولة ترى بالتغيير عاملاً من عوامل تقدم المجتمع نحو الأفضل، كما يتضح من الأمثلة الآتية:

1- تبنت إسرائيل في بداية نشوئها مناهج تعليمية تبرز المشاريع الزراعية، وحب الصهيونية، وتعزيز الروح الطلائعية، والحث على تنمية المبادئ الاشتراكية والاجتماعية في نفوس المهاجرين الجدد والقدامى³⁶¹.

2- قررت دولة ماليزيا عام 1985 أن تتحول إلى دولة صناعية، وبالفعل خلال عشر سنوات، أي في عام 1995، أصبحت دولة صناعية تبوأ المرتبة العاشرة في مقدمة دول العالم الصناعية.

3- في السنوات الأخيرة، انتشرت في فرنسا، الدولة العلمانية، ظاهرة الفتيات المحجبات في المدارس من أصول عربية مغربية، لذا أصدرت قانوناً يمنع استخدام الرموز الدينية في المدارس لجميع التلاميذ من مسيحيين ومسلمين ويهود³⁶².

³⁶¹ أما اليوم فقد تطورت إسرائيل من الناحية السكانية والاقتصادية، وتغيرت النظرة نحو نمط الحياة الزراعية والكيبوتسات والصهيونية، لذا تغيرت المناهج عدة مرات لكي تلائم الحياة العصرية.

³⁶² جاء هذا القانون الذي يسمى "قانون الحجاب" ليحافظ على الصبغة العلمانية لفرنسا على المدى البعيد (وانظر في هذه المسألة في الفصل الثالث). بالمقابل، عندما تسلمت قيادة الثورة الإسلامية سدة الحكم في إيران بزعامة الخميني عام 1977 أمرت جميع الفتيات بارتداء الحجاب، وذلك لدعم المبادئ الدينية التي قامت عليها الثورة.

أما التغيرات وليدة الضغوط الخارجية، فهي لا تلبي الاحتياجات الآنية لمواطني الدولة، وإنما تأتي عنوة من قبل دولة أخرى لديها القدر الكافي من القوة والسيطرة على حكومة هذه الدولة، بغية تغيير نظرة العداء نحوها، أو السير في فلكها. ولنضرب على ذلك مثالين من منطقتنا:

المثال الأول- بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر شنت أمريكا حربًا تحت مسمى "القضاء على الإرهاب" في العالم برمته، وفي الشرق الأوسط على وجه الخصوص. ومارست ضغوطات على الحكومة السعودية لتغيير أساليب التدريس واستبدال المضامين التعليمية الإسلامية "المتشددة" بمضامين إنسانية عامة، وتشديد الرقابة على المدارس الدينية، التي تشكل داعيًا للعداء لأمريكا والثقافة الغربية³⁶³.

المثال الثاني- توجهت الإدارة الأمريكية إلى الحكومة المصرية تطالبها بممارسة الضغوطات على الأزهر لإلغاء الجهاد، وتحريم العمليات الاستشهادية، والعمل بقوة على اجتثاثها من المناهج التعليمية، باعتبار أن الجهاد وسيلة تحض على مقاومة المعتدين ومحاربتهم. أثار هذا التوجه موجة من النقاشات والانتقادات الحادة بين المتدينين والعلمانيين في داخل العالم العربي، أشغلت حيزًا لا بأس به في وسائل الإعلام المرئية والمكتوبة³⁶⁴.

³⁶³ أمثلة على التغير المنشود، عدم تعليم الغزوات الرئيسية في الإسلام؛ وعدم التعلم عن شخصيات لها دور ريادي في المعارك الإسلامية مثل، صلاح الدين الأيوبي وجنكيز خان، لأنها تثير مشاعر الانتفاء والحساس الديني لدى الشباب.

³⁶⁴ هذا، وطالبت أمريكا جميع الدول قاطبة تضييق الخناق على فروع مؤسسة الإغاثة الإسلامية، التي تعنى بجمع أموال الزكاة والصدقات من المسلمين. جاء هذا التضييق بحجة تخفيف منابع الإرهاب، وبإدعاء أن هذه الأموال لا تُصرف لمستحقيها من المعوزين، بل تُنفق في توسيع دائرة العنف. يتضمن هذا التوجه في ثناياه تعطيل فريضة الزكاة لأن المزكّين والمتصدقين يخشون دفع هذه الاستحقاقات المشروعة حتى لا يُسجلوا على لائحة المتهمين بدعم الإرهاب.

مواجهة إسرائيل مناهج التدريس في الدول العربية

تهدف كتب التدريس إلى تنفيذ السياسة التربوية في إسرائيل، وفي حالة الصراع بين الدول المجاورة، يأخذ هذا المنحى دافعية إظهار الصراع، من خلال إعداد مواد تستند إلى معطيات تتلاءم مع الموقف السياسي - التاريخي. تغذي هذه المواد عقول الناشئة، وتدفعهم إلى التمسك بالثوابت القومية، بحقوقهم في مواصلة النضال من أجل استرداد حقوقهم.

وقد أولت اليونسكو هذا الجانب اهتماماً كبيراً في المؤتمرات والدراسات المختلفة، وأكدت فيها على إعداد كتب تدريسية نزيهة، تعتمد على الحقائق الصحيحة والموثقة. تُشكل هذه الكتب شرطاً أساسياً في التفاهم المتبادل، وتساهم في تحقيق رغبة الأمم في العيش تحت مظلة السلام.

ترى الدول العربية أن إسرائيل دولة فرضت هيمنتها عليهم واحتلت أراضيهم بقوة السلاح، لذا فإن النظرة إليها سلبية، وقد انعكس ذلك جلياً في الكتب التدريسية، خاصة في الموضوعات الحساسة، التي تعزز القيم القومية وهي: اللغة العربية والتربية الإسلامية والتاريخ والجغرافيا والموطن.

لقد وضعت إسرائيل قضية مناهج التعليم في الدول العربية المجاورة على أجندتها الداخلية والخارجية، ومارست جميع الضغوطات لتغييرها³⁶⁵، كما يتضح من المسح الآتي:

³⁶⁵ تراقب إسرائيل أيضاً مناهج التعليم في دول أخرى من العالم. على سبيل المثال، توجهت وزارة الخارجية الإسرائيلية في مايو 2005 إلى وزارة الثقافة النرويجية تطالبها فيها بشطب قصيدة للشاعرة نيلي سميث تدرس في المدارس الابتدائية، تصف فيها مقتل طفلة فلسطينية بيد أحد الجنود الإسرائيليين. ادعى الإسرائيليون أن هذه القصيدة تساهم في التحريض ضد الشعب اليهودي، ولكن النرويجيين رفضوا الاستجابة إلى هذا الطلب، واعتبروه تدخلاً في شؤونهم الداخلية (أذيع الخبر في راديو إسرائيل، المحطة الثانية).

أ- مناهج التعليم للمواطنين العرب عام 1948:

وقع العرب الفلسطينيون قبل عام 1948 تحت حكم الانتداب البريطاني، واحتوت الكتب المدرسية، خلال هذه الفترة، على قصائد وأشعار تمجد الاتجاهات الوطنية؛ ثم استمر المعلمون في السنة الأولى على إنشاء إسرائيل بتدريس كتب مدرسية من فترة الانتداب البريطاني (שלمون، 1968: 720؛ الحاج، 1996: 100 وما يليها، أمارة ومرعي، 2004: 100-103). لم تقبل الحكومة الإسرائيلية بهذا الوضع، ولخص شموئيل شالمون (بالعربية سلمون)، مدير قسم التعليم والثقافة للعرب في الخمسينيات (שלمون، 1957: 93) صعوبات العمل في جهاز التعليم العربي على النحو التالي:

على مدى السنين، قمنا بمحاولات مختلفة لاستبدال المنهاج القديم، من وجهة نظر تربوية، والذي يشتمل على عيوب من فترة الانتداب؛ ببرامج مؤقتة وفردية وفق المواضيع أو الصفوف. وضعت هذه المناهج المؤقتة تحت الرقابة البيداغوجية، بهدف فحص نتائجها العملية، ولمعرفة أي من المواضيع التي تدرّس في مدارسنا تناسب، أيضًا، المدارس العربية، وماذا علينا أن ندخل في هذه المواضيع، والذي لا يمكن، قطعياً، نسخه من المدارس العبرية. كانت اللغة العربية من المواضيع التي واجهتنا فيها صعوبة أكثر من غيرها، لأن دراسة اللغة الأم هي القناة الرئيسية للتعليم القومي، وما كان مقبولاً في المدارس العربية في فلسطين الانتدابية أو في الدول المجاورة، لا يناسب حاجتنا، سواء من حيث المحتوى أو من وجهة النظر المنهجية على حدّ قوله.

حظرت وزارة المعارف، خلال الخمسينيات، استخدام كتب عديدة تضمنت نصوصاً تعبر عن الرموز الوطنية والقومية العربية. وقد عارض المعلمون هذه السياسة، وعبروا عن سخطهم إزاء هذه الحالة. وفي رسالة أرسلتها لجنة الثقافة في هيئة أخوة المدارس المسيحية

(الفرير) في حيفا إلى وزارة المعارف في 15 حزيران 1956، امتعض أعضاء اللجنة من هذا الوضع³⁶⁶.

أما بالنسبة للمدارس في الضفة الغربية، فيقول الطيباوي (Tibawi, 1956) إنها شكلت بؤراً لتنامي القومية ومركزاً للغليان، والدعوة إلى الثورة في فترة الانتداب البريطاني، وإن الكتب التدريسية ساهمت بشكل ملحوظ في هذا التوجه. في تلك الفترة، كانت معارضة شديدة من قبل السكان المحليين على الرقابة التي فرضها المندوب السامي على جهاز التعليم العربي³⁶⁷.

وبعد انتهاء الانتداب البريطاني استلمت مصر إدارة شؤون قطاع غزة، وخضع القطاع للتعليم المصري، وأصدرت الكتب المدرسية تحت عنوان "الجمهورية العربية المتحدة، وزارة التربية والتعليم". واستلمت الأردن الضفة الغربية، التي كانت المسؤولة المباشرة عن التعليم، وطُبعت الكتب تحت إشراف "المملكة الأردنية الهاشمية، وزارة التربية والتعليم، قسم المناهج والكتب المدرسية".

³⁶⁶ ووصفوا ذلك بهذه الكلمات :

لا توجد عناية كافية بتعليم اللغة العربية، فتعليم الأدب العربي يتم بدون كتب، وفي شكل مشوه حيث لا يدرك التلاميذ طبيعة تراثهم الغني. بالإضافة إلى ذلك، حُذفت أجزاء كبيرة من أدب التحرر الوطني، ويعود ذلك إلى انتهاج سياسة الضغط، ومحاولة قمع الكرامة القومية (أرشيفات الدولة 1351/1616 ج مقتبسة لدى الحاج، 1996: 102؛ أمانة ومرعي، 2004: 102).

³⁶⁷ لقد اشتكى رجال السياسة والمعلمون من النواقص في الغرف الصفية في برامج التعليم وكتب التدريس، خاصة التاريخ والجغرافيا، وناشدوا المندوب السامي منحهم الاستقلالية في إدارة زمام الأمور بقواهم الذاتية، أسوة باليهود الذين تمتعوا بإدارة ذاتية لجهاز التعليم في مدارسهم.

ب- مناهج التعليم في مصر والأردن وسوريا عام 1956:

في عام 1956 حصلت إسرائيل على كتب التدريس المعمول بها في الدول العربية المجاورة، الأردن ومصر وسوريا، وقامت بتصوير المواد وترجمتها إلى الإنجليزية. ومن ثم عرضتها في المؤتمرات والمحافل الدولية لتعرب عن استيائها من حملة التحريض في هذه الكتب، من جهة؛ ومن جهة أخرى، لتمارس الضغوط على الدول العربية لحذف هذه المواد. وبالفعل، تكللت هذه المساعي بالنجاح، إذ تقدمت اليونيسكو إلى الدول العربية المجاورة لتعديل هذه المواد، وتمت الاستجابة (بشكل جزئي) لهذا المطلب، حيث تم شطب مواد من كتب القراءة (لاتسروس، 1967: 210)³⁶⁸.

وفي كتب القواعد للصفوف الابتدائية، هنالك تمارين ركزت على الصراع من خلال استخدام متكرر لكلمة "عدو". ومن هذه الأمثلة: "هُزم العدو"؛ "هاجم جيشنا العدو"؛ "خرج الجنود الأبطال لضرب العدو" وإلخ.. (المصدر السابق).

يدعي يهوشفاط هركابي (جروزاليم بوست، 17.2.1965) بأن الكتب التدريسية وصفت الخصم السياسي بأنه عدو، ويرمز إلى الشر، وأن هذه الصفة لا تنطبق فقط على الخصم الصهيوني، وإنما أيضًا على العالم الغربي الاستعماري، الذي له اليد الطولى في إنشاء دولة إسرائيل³⁶⁹.

³⁶⁸ على سبيل المثال، شُطبت من القراءة للصف السادس الابتدائي في قطاع غزة لمؤلفها خالد الأطرش (1960) مواد، في القصة والرسومات الكاريكاتورية تصف اليهودي بأنه جبان. وشُطبت من القراءة المعدة للصف الأول ابتدائي في سوريا (1959) جملة يتم من خلالها تعلم التعريف مثل، "اليهود أعداء العرب"؛ "فلسطين المغتصبة ستعود قريبًا إلى العرب".

³⁶⁹ ومن الموضوعات التي تناولتها كتب القراءة العربية: القضية الفلسطينية، مقاطعة الدول العربية لإسرائيل، تأمين قناة السويس، حرب سيناء (العدوان الثلاثي)، حرب استقلال الجزائر وغيرها.

تجدر الإشارة إلى أن نظرة الدول العربية المجاورة لإسرائيل كانت متباينة، وفق المنظور الإسرائيلي: الكتب الأردنية تعتبر من أكثر الكتب اعتدالاً، وتأتي بعدها الكتب المصرية التي اشتملت على مواد تحريضية، أما الكتب الأكثر تطرفاً فهي الكتب السورية من حيث المضامين والأسلوب اللغوي اللاذع، والتي تجاهلت ذكر اسم "إسرائيل" في كتب القراءة³⁷⁰.

ت- مناهج التعليم في الضفة والقطاع والجولان بعد حرب 1967:

وقعت مسؤولية التعليم في المناطق المحتلة بعد حرب 1967 بيد الإدارة المدنية التي عينتها الحكومة الإسرائيلية. وأول ما قامت به هو فحص مضامين الموضوعات الدراسية، فألغت جميع النصوص التي تمس بدولة إسرائيل، أو تلك التي تنمي الروح الوطنية³⁷¹. وتذكر حافه لاتسروس أنه هنالك أربعة موضوعات رئيسية تناولتها الكتب التدريسية تجاه إسرائيل (لاتسروس، 1967: 217-218)، وهي:

1- فلسطين محتلة: تؤكد كتب الجغرافية للصفوف الابتدائية في المدارس الأردنية أن فلسطين محتلة، وأنها ستعود إلى أصحابها، وأن الحد الغربي للمملكة الأردنية الهاشمية هو البحر الأبيض المتوسط، وأن مدناً كحيفا ويافا واللد والرملة هي عربية وستعود إلى العرب. كما تحظى القدس بمكانة خاصة (أولى القبلتين وثالث الحرمين) في الكتب الأردنية والمصرية.

³⁷⁰ في لقاء صحفي أجرته صحيفة "ليموند" الفرنسية بتاريخ 27.7.2005 مع أريئيل شارون، رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق، تذر شارون من أن كتب التدريس المصرية والأردنية في مواضيع الجغرافيا والتاريخ، لا تشتمل على خريطة إسرائيل، بالرغم من أن الدولتين تقيان علاقات مع إسرائيل منذ وقت طويل.

³⁷¹ كما فعلت في كتب التدريس التي تعلم فيها العرب في فترة الانتداب.

2- قضية اللاجئين: تتكرر معاناة اللاجئين وتحقيق طموحاتهم كثيرًا في الكتب المصرية والسورية. فضلاً عن وصف الإسرائيليين بالجن، إذ بفضل المساعدة الخارجية وموضوع الكارثة وإشفاق العالم على اليهود، أُقيمت هذه الدولة وطرد العرب من أراضيهم. والحل يكمن في حق عودة اللاجئين إلى أراضيهم وبيوتهم.

3- تاريخ الصهيونية: هنالك فصول عاينت تطور الحركة الصهيونية في كتب التاريخ والموطن في المدارس الإعدادية والثانوية في الضفة الغربية. يُذكر أن كتاب "الموجز في تاريخ العالم الحديث" للصف الثالث إعدادي في الأردن يكتب عن الصهيونية بشكل موضوعي³⁷².

4- الوازع الديني: في كتب التاريخ هنالك عدة قصص تناولت علاقة النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، باليهود في فجر الإسلام³⁷³.

وفيما يخص التعليم في هضبة الجولان، فإن السلطة فيها انتقلت إلى قيادة الجيش الإسرائيلي. وكان حل قضية التعليم بشكل فوري عبر استخدام المناهج التدريسية والكتب التعليمية المعمول بها لدى المواطنين العرب في إسرائيل. ومن ثم تم الانتقال للتعليم بالكتب التدريسية المقررة في جهاز التعليم الدرزي، وأن هذه المناهج مستخدمة حتى اليوم (شماي، 1990). يشمل المنهاج جميع الموضوعات التعليمية الأدبية والعلمية، ومن ضمنها اللغة العبرية التي تدرس كلغة ثانية في مدارس هضبة الجولان³⁷⁴.

³⁷² بالمقابل، ثمة كتب تتحدث عن الأطماع الصهيونية، وأن إسرائيل تشكل خطراً على الدول العربية بسبب توسع المشروع الصهيوني.

³⁷³ على سبيل المثال، نجد أن اليهود وصفوا بأنهم خائنون وماكرون وجبناء، وأنهم كانوا يتآمرون على النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فاضطر النبي إلى إخراجهم من المدينة لأنهم لا يفون بالعهود.

³⁷⁴ بداية، درّس التلاميذ معلمون دروز وجنود وخريجو الجامعات والكليات من الجليل. أما اليوم فإن المعلمين المحليين هم الذين يدرسون جميع الموضوعات، بعد أن تم تأهيلهم في الجامعات.

في البداية، واجهت التلاميذ عدة صعوبات في اكتساب ملكة هذه اللغة، ولكنهم تعلموها وأتقنوها، بمرور الوقت، كتابةً ومحادثَةً بسبب الحاجة الماسة إليها في تسيير أحوالهم المعيشية داخل الهضبة وخارجها.

ث- مناهج التعليم في مصر والأردن بعد توقيع اتفاقيات السلام: عندما وقّعت إسرائيل اتفاقيات سلام مع مصر والأردن طلبت من الدولتين النظر في النصوص المعادية لليهودية ولدولة إسرائيل في مناهجها. يشار إلى أن المادة الثالثة في اتفاقيات كامب ديفيد، بين مصر وإسرائيل، صيغت تحت عنوان "العلاقات الثقافية"، وهي تشجع إقامة علاقات ثقافية بين البلدين. كما نصت المادة الخامسة من البند الثالث على أن "يعمل الطرفان على تشجيع التطبيع"³⁷⁵، والتفاهم المتبادل والتسامح، كذلك منع كل طرف من توجيه الدعاية ضد الآخر" (أبو مطر، 1994: 44)³⁷⁶.

ففي أثناء زيارة رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق، مناحيم بيغن، لمصر بتاريخ 25.8.1981 أعرب عن استيائه البالغ من استمرار الطلبة في مصر بدراسة كتب التاريخ، التي تتحدث عن "اغتصاب إسرائيل لفلسطين"، وكتب التربية الإسلامية، التي تحتوي على آيات من القرآن الكريم تندد باليهود وتذمهم³⁷⁷، كما ورد في سورة (المائدة 5: 78): ﴿لُعِنَ الَّذِينَ

³⁷⁵ يعني التطبيع الانتقال في العلاقات بين طرفين من مرحلة العداء إلى مرحلة طبيعية، تقوم على أساس المصالح المتبادلة، وحُسن الجوار، والتعاون في الميادين والمجالات كافة.

³⁷⁶ تنفيذًا لهذا البند، طالبت إسرائيل التوقف عن تدريس الأدبيات والوثائق والنصوص المعادية لليهود والصهيونية ودولة إسرائيل، بما في ذلك الوارد منها في القرآن الكريم، إذ كثفت إسرائيل جهودها العلمية لرصد وتسجيل وتحليل المفاهيم الإسلامية المؤثرة في الصراع.

³⁷⁷ وحول نشر الأدبيات المناهضة لإسرائيل في مصر، يذكر عرفه علي، أن ساسون سومبخ الذي أشغل رئيس المركز الأكاديمي في القاهرة احتج عليها بقوله: "لقد ساءني جدًا خلال زيارتي لجامعة عين شمس أن أجد مكتباتها مليئة بالكتب التي ألفها متعصبون ضد اليهود، وهذه الكتب تباع في المكتبات وأكشاك

كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٣٧٨﴾. وكذلك، الآية التي تقول: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قِسْيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (المائدة 5: 82) ³⁷⁸.

الجدول حول مناهج التدريس في السلطة الفلسطينية

كما ذكرنا، عندما احتلت إسرائيل الضفة الغربية وقطاع غزة، أشرفت بنفسها على تحضير كتب مدرسية، خلت تمامًا من مضامين لها علاقة بالصراع الإسرائيلي- الفلسطيني. ولكن، عندما استلمت السلطة الفلسطينية إدارة الشؤون التعليمية بعد توقيع أوسلو، استبدلت جميع الكتب والمناهج التدريسية بكتب تعبر عن هوية المواطن الفلسطيني، الأمر الذي تعتبره إسرائيل منافياً لمعاهدات السلام التي أبرمت بين الطرفين. وما زالت إسرائيل حتى الآن تطالب السلطة الفلسطينية بحذف المضامين القومية التي تحتوي، حسب رأيها، على مادة تحريضية ضد إسرائيل ³⁷⁹.

في دراسة أعدها رؤوبين إرليخ، حول كراهية إسرائيل في العالم العربي يقول (معاريف، 13.1.2002) إن التربية ترسخ كراهية اليهود من خلال وسائل الإعلام والمواد التعليمية،

الصحف بحرية تامة، وأني لا أعتب على أدياء مصر الذين يعطفون على إسرائيل كتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ، إذ لم يفعلوا شيئاً لمنع هذه الكتب، ولكنني أعتب على المؤسسات السياسية في مصر، التي تستطيع بجرة قلم أن تمنع كل هذه الكتب المناهضة لإسرائيل (علي، 1989: 18).

³⁷⁸ أشارت الصحف إلى أن السادات استجاب لطلب بيغن، وأصدر أوامره للمختصين في وزارة التربية، لإعادة النظر في المناهج الدراسية بما يتلاءم مع طلبات بيغن واتفاقيات كامب ديفيد (أبو مطر، 1994: 46).

³⁷⁹ على سبيل المثال، في الخرائط الجغرافية التي تُدرس في مناطق نفوذ السلطة الفلسطينية، لا تظهر كلمة "إسرائيل" كدولة على الخارطة.

وإن الظاهرة منتشرة في الرسومات الكاريكاتيرية، وكتب التدريس، والمواظع في المساجد، والكتب العامة، وتصريحات الزعماء من إيران وحتى مصر، عبر سوريا والعراق والخليج. ففي سوريا والسلطة الفلسطينية تتركز الكراهية في كتب التدريس، بينما في إيران ولبنان (حزب الله) في تصريحات الزعماء. وينتقد الإعلام المصري إسرائيل مباشرة على ما تقوم به من ممارسات ضد الشعب الفلسطيني، أما الأردن فيحاول التخفيف من التصريحات المعادية لإسرائيل، وإذا ما تجاوزت المعارضة الخطوط الحمراء، فيتم اتخاذ الإجراءات اللازمة لإيقافها.

يؤكد إرليخ (المصدر السابق) أن الشباب في إسرائيل يتربى أيضًا على التنكر للعرب، ويعزو ذلك إلى الأعمال العدائية التي يقوم بها الفلسطينيون ضد الشعب الإسرائيلي داخل إسرائيل وخارجها. ولكنه يدعي أن الفرق شاسع بين الإسرائيليين والعرب: لدى الإسرائيليين لا توجد تصريحات تمتدح تصفية الشعوب، ولا خرائط تتجاهل دول الجيران، ولا زعماء يشربون دم الآخرين.

كثفت إسرائيل حملتها الإعلامية على كتب التدريس في مناطق السلطة الفلسطينية بعد حدوث الانتفاضة الثانية. ففي عام 2002 أجرت قيادة تنسيق العمليات في الضفة الغربية وقطاع غزة مسحًا لثلاثة وعشرين كتابًا تدريسيًا من الصف الثاني وحتى الصف السابع³⁸⁰.

وذكر الباحثون أن هذه الكتب تنمي الكراهية والانتقام، وتتجاهل كيان الدولة اليهودية، بل وتدعو إلى إبادةها. كما ترسخ كتب الجغرافية والموطن في ذهن الناشئة، وقوع فلسطين

³⁸⁰ ففي كتاب الصف الثاني، يقوم التلاميذ برحلة إلى يافا، ويقوم المعلم بحث التلاميذ على التمتع بمنظر يافا الخلابة، وعلى شم الروائح الزكية المنبعثة من البيارات المجاورة. وقبل عودتهم إلى البيت، يطلب المعلم من تلاميذه تنظيف المكان.

بين النهر والبحر دون ذكر إسرائيل، وأن يافا بمثابة الرمز أو الحلم الفلسطيني في حق العودة (جريدة أخبار تل أبيب، 23.8.2002).

في أكتوبر 2002 أنهى ماتي شطاينبرغ، مستشار رئيس جهاز المخابرات الأسبق للشؤون الفلسطينية، دراسة حول كتب التدريس في السلطة الفلسطينية تحت عنوان "نظرة مغايرة على كتب التدريس الفلسطينية" (هآرتس، 11.9.2004). يقول شطاينبرغ، إن السلطة لا تطالب بإبادة إسرائيل بواسطة "الجهاد" و"حق العودة"، فلفظة "جهاد" هي إسلامية وليست فلسطينية، وأن قصة "يافا" تهدف إلى تعليم التلاميذ قيمة النظافة، وليس حق العودة إلى يافا. ويختتم شطاينبرغ دراسته بقوله، إنه بالرغم من الغموض الذي يكتنف الوضع الراهن، ثمة تحسن قد طرأ على الكتب الفلسطينية. وبالفعل فإن الكتب التدريسية لا تدعو إلى المصالحة وإلى تعزيز السلام، ولكنها لا تدعو أيضًا إلى الكراهية وإثارة المشاعر، بل هي منضبطة.

كما أجرى معهد الأبحاث الإسرائيلي دراسة في كتب التدريس الفلسطينية، وأعد تقريرًا يبين فيه أن الكتب تحتوي على مواد تحريضية. رفعت الحكومة الإسرائيلية هذا التقرير إلى الدول المانحة تناشدها التوقف عن دعم الكتب التدريسية الجديدة في نفوذ السلطة الفلسطينية.

وعلى ضوء ذلك، أجرت الدول المانحة مسحًا للكتب التي ذكرها التقرير الإسرائيلي، وأصدرت وثيقة تؤكد فيها، أن التقرير المذكور لا يعكس الواقع. وأن الاقتباسات التي نُسبت إلى الكتب الفلسطينية الجديدة مأخوذة من الكتب المصرية والأردنية التي استبدلتها السلطة الفلسطينية، وأن الكتب الفلسطينية خالية من التحريض، وتساهم في تثقيف الشباب الفلسطيني. وأشار التقرير الأخير لمعهد الأبحاث الإسرائيلية، أن الخرائط في كتب التدريس تلائم اتفاقية السلام (هآرتس، 11.9.2004).

والسؤال الذي يطرح نفسه: هل تقبل الدول الغربية وإسرائيل التدخل في مناهجها التعليمية؟ إن التعليم في دول الشرق الأوسط موجه من قبل السلطة العليا، فالدولة تقرر المناهج وطرق التدريس وكتب التعليم، ولا يحق للسلطة المحلية أو الأهالي التدخل في المسيرة التربوية.

من هذا المنطلق، تستطيع الدول الأخرى ممارسة الضغوطات على دول الشرق الأوسط، وتعمل على تغيير مناهجها بسهولة. بينا مناهج التعليم في الدول الغربية، ليست من اختصاص الدولة فحسب، بل هي ملك الجميع، ودور الدولة ينحصر في توفير الموارد اللازمة كالميزانيات والبنى التحتية لتنفيذ هذا المنهاج³⁸¹.

ومن الأمثلة التي نضربها على الكتب التدريسية في الولايات المتحدة الأمريكية، كتاب "تاريخ العالم: علاقات بالحاضر" الذي يدرّس في المرحلة الثانوية³⁸² للمؤلفين إيليس وإسلر (1999)، ويتناول في صفحاته الصراع بين اليهود والفلسطينيين بشكل غير متوازن من حيث نشر الوقائع التاريخية. يسعى الكتاب إلى إيصال وجهة نظر معينة إلى أذهان التلاميذ وإقناعهم بها، وهي في الواقع تأصيل للنظرة الأمريكية السياسية في الشرق الأوسط.

حظي تاريخ اليهود بمساحة كبيرة من الكتاب، إذ يتبع المؤلفان نشأة بني إسرائيل في القديم، دون أن يتطرق إلى تاريخ العرب أو الفلسطينيين. وذكر الباحثان أن اليهود هاجروا

³⁸¹ على سبيل المثال، يُشرف على إعداد المناهج في الولايات المتحدة ست مائة شخص يتنمون إلى جميع شرائح المجتمع من خبراء في التربية والإدارة والاقتصاد والأهالي والخ. بعد إقرار منهاج كهذا لا تستطيع حتى الدولة نفسها تغييره، فكم بالحري إذا كان التدخل من قبل دول خارجية؟!

³⁸² راجع المادة العلمية عشرون متخصصاً ترد أسماؤهم في بداية الكتاب.

إلى أرض كنعان (فلسطين)، دون التطرق إلى الكنعانيين، بالرغم أن هذا الأمر ضروري لتتبع جذور الصراع العربي-الإسرائيلي³⁸³.

تحاول أمريكا التدخل في المناهج المعمول بها في الدول العربية، والتي تتعارض مع مواقفها الأيديولوجية، الأمر الذي أثار الانتقاد لهذا التدخل بين جمهور المثقفين العرب. وحول التدخل في المناهج المصرية، يقول عصام الدين هلال إن الشعب المصري انقسم إلى فئتين، فئة مع الإرهاب وفئة ضده، ومع هذا التصنيف أصبحت التضاريس الطبقية في المجتمع المصري مهمشة، ويستطرد قائلاً (هلال، 2004: 99):

ولبيان تأثير الأولوية المبالغ فيها للقضاء على الإرهاب، تحول النظام التعليمي في مصر إلى نظام تغترب فيه العناصر البشرية التي تشارك في هذا النظام، فالمهام الموكلة لوزارة التعليم هي مهام أمنية أكثر منها مهام تعليمية، فهو يبدأ من منطلق أن المدارس المصرية هي مفرحات للإرهاب، فالكمل إرهابي ما لم يثبت براءته، وبراعة المعلم من الإرهاب تعني انغماسه في عمله بشكل تقليدي حرفي، ليست له فيه أي مساحة من الإبداع. ففي إطار التعامل بالشبهات يعتقد المعلم أن الإبداع خروج عن المألوف، وهو لا يضمن أن يكون هذا الإبداع بعيداً عن الخطوط الحمراء التي يضعها النظام.

³⁸³ يصور الكتاب اليهود على أنهم أصحاب حق تاريخي وإلهي في أرض فلسطين، ويطرح الأمر على أنه مسلمة غير قابلة للجدل، ودعم ذلك من خلال نقل النصوص الدينية من التوراة، التي تعطي لليهود الحق في أرض الميعاد. فالقسم الذي يتحدث عن الشرق الأوسط (ص 916) يفتح بنص من التوراة نقل على لسان بن غوريون "أن الأرض التي عدنا لنرثها، هي ميراث آبائنا وليس لغريب فيها شيء البتة... فلقد أخذنا ميراث آبائنا وسكننا فيه".

أما ما يخص الفلسطينيين فإن الكتاب يصور ما يقومون به من أعمال حرب، على أنه محاولة لنيل الاستقلال، إلا أنه لا يتردد في وصفها بالأعمال الإرهابية ضد دولة قائمة تسعى للسلام ولها حق البقاء. لقد نعت حماس بالجماعة الراديكالية وذكر أنها بادرت إلى هجمات إرهابية ضد إسرائيل، ولم يتعرض إلى مواقف المتطرفين اليهود.

وعندما هُدم برجاً مدينة نيويورك في الحادي عشر من سبتمبر 2001 كان أول تصريح يذلي به الرئيس الأمريكي جورج بوش³⁸⁴ بأنه سيخوض حرباً شرسة مع المعتدين مستخدماً تعبير "حملة صليبية"، ولكنه سرعان ما تراجع واعتذر قائلاً بأن الحرب التي يخوضها ليست دينية، بل حرباً ضد أشخاص أشرار.

انتقد الرئيس الأمريكي الأسبق جيمي كارتر بشدة إدارة بوش "الأصولية المتطرفة" التي تشن حروباً غير ضرورية، مثل الحرب على العراق. وحول التطورات التي شهدتها فلسطين، قال إنها نتجت عن الترجمة الغبية للكتاب المقدس، فأدى ذلك إلى التدهور الدامي والمكلف والبشع. وبسبب الضغوطات التي مارستها وسائل الإعلام وشخصيات مرموقة على بوش بأنه يقوم بحروب غبية، وبتأجيج الصراع الديني من خلال خطاباته النارية ضد المسلمين، حيث اضطر للاعتراف بخطأ نهجه الكلامي³⁸⁵، ولكنه على أرض

³⁸⁴ هنالك من رأى ببوش زعيماً للعالم الحر ويجب تسليط الضوء على شخصيته من خلال المناهج التعليمية. وبهذا الصدد يُذكر أن الحكومة الباكستانية أمرت بشطب قصيدة "القائد" التي ألفها شاعر مجهول الهوية من مناهج التعليم في كتاب جديد لتدريس اللغة الإنجليزية لصفوف الحادية عشرة في الدولة، والتي تمتدح الرئيس الأمريكي جورج بوش. ومن كلمات القصيدة: قائد يستحق الثقة به.. صاحب مزاج هادئ، ولكنه قوي كالفلوذاذ. يستخدم قوته للقضاء على الشر. أثارت هذه القصيدة موجة من الاحتجاجات في الصحف الباكستانية من قبل المعارضة، التي اعتبرت ذلك أمراً سياسياً، ذلك أن الرئيس الباكستاني في حينه، برويز مشرف، مؤيد لجورج بوش في حربه ضد الإرهاب. وادعت وزارة التربية أن الأمر وقع بالخطأ، وستظهر الكتب في السنة القادمة خالية من هذه القصيدة، وستقوم بمعاينة المسؤول عن هذا التقصير (صدى التربية بالعربية، المجلد 81، العدد الأول سبتمبر 2006).

³⁸⁵ في تصريح إعلامي أدلى به الرئيس الأمريكي بوش بتاريخ 24.5.2006 اعترف بمدى تأثير اللغة على الرأي العام. إذ ادعى بأنه تعلم العبرة من أقواله الصارمة أثناء الحرب التي يخوضها ضد الإرهاب، وأن أقواله فُهمت بطريقة مغايرة، مما أدى إلى سلوك غير سليم في سجن أبو غريب في العراق، وأن المصطلح الذي أطلقه على المطلوبين الإرهابيين بأنه "يريدهم أحياء أو أمواتاً" خلق الفوضى، ووعد بأنه سيتحدث بألفاظ محكمة منضبطة بعيدة عن الأساليب شديدة اللهجة.

الواقع، استمر في العمليات الحربية حتى نهاية ولايته الأولى والثانية (2000-2008)، دون أن يسحب القوات العسكرية من الدول التي تم غزوها.

إقحام المواد الدينية في لب الصراع

خلقت أحداث الحادي عشر من سبتمبر واقعاً جديداً على المستويين اللغوي والسياسي، أو كما يقول محمد داود (2003): إنه بعد أحداث سبتمبر تمر اللغة بمنعطف خطير، ويساندها في ذلك الحركة والصورة. فاللغة في عصر الفضائيات ووسائل الإعلام المتطورة، لا تصف الأحداث السياسية فحسب، بل هي جزء لا يتجزأ من الحدث، إنها تبلور الأحداث، وتساعد على تشكيل الأدوار والسلوك العام للشعب. الخطاب السياسي يستثمر الرموز اللغوية، المتمثلة بجمل من التعابير السياسية أو الشعارات، تستهوي عقول ونفوس المخاطبين بغية التأثير على وجهة نظرهم تجاه قضية أو شخص ما.

الحرب على الإرهاب في السياق اللغوي

لقد استغلت القيادة الأمريكية، المكونة من المحافظين الجدد ذات التوجهات اليمينية، قوة الكلمة وسارعت إلى تعميم مصطلح "الإرهاب" ونشره على المستوى العالمي، إلى أن أصبح الشغل الشاغل في الأروقة السياسية والعسكرية والمدنية، بادعاء أنه يهدد أمن واستقرار الشعوب قاطبة. ورفعت أمريكا شعار "الحرب ضد الإرهاب" وهو رمز لغوي يثير في النفس الكراهية والعداء تجاه كل من هو إرهابي، والإرهابي في نظر أمريكا - كل من يخالف مصالحها، ويرفض الانصياع لسيادتها³⁸⁶.

³⁸⁶ اكتسبت إسرائيل فائدة سياسية عظيمة، على المستوى العالمي، في محاربتها للفصائل الفلسطينية، معتبرة إياها فصائل إرهابية وفق الرؤية الغربية. تشكل هذه الفصائل خطراً، على حدّ تعبيرها، ليس فقط على الإسرائيليين فحسب، وإنما تهدد الأمن والاستقرار الدولي، وذلك على افتراض أن أعمالها ستكون مثلاً يُحتذى به لدى فئات اجتماعية (مظلومة أو سياسية) تقوم بأعمال عدائية لاسترداد مظلمتها أو حقوقها.

إن صورة العرب والمسلمين لدى الرأي العام الأوروبي والأجنبي مثقلة بكثير من التشويه، ازداد هذا التشويه حدة في مطلع الألفية الثالثة التي اتسمت بالصاق تهمة الإرهاب بالمسلمين، إذ تقع الجاليات الإسلامية في أوروبا وأمريكا تحت مجهر الرقابة والمضايقة، وتُلغى الحدود التي تفصل بين الديمقراطية وحقوق الإنسان من خلال تشريع القوانين الصارمة، وترتفع درجات التأهب في هذه الدول.

أما الخطاب السياسي فيكون شديد اللهجة، وتسيطر عليه لغة التهديد بالحرب على الإرهاب وملاحقة مدبري الهجمات. كما ويُظهر الخطاب بشفافية دامغة الصراع الحضاري بين الدول الغربية والدول العربية والإسلامية، ويتجلى فيه الاستعلاء الغربي المتميز بالقيم وبالنمط الفكري والمعيشي المغاير.

تشن أمريكا حريين متوازيين: الأولى - حرب واقعية في أفغانستان والعراق³⁸⁷، والثانية - حرب إعلامية³⁸⁸ تتمحور في انتقاء المصطلحات التي تخضع لإستراتيجية مبرمجة تتأقلم مع التطورات التي تحصل في منطقة الشرق الأوسط. بعد تورط أمريكا في العراق، رأت من الضرورة إحداث تغيير في إستراتيجيتها الإعلامية بالادعاء بأنها تحارب ضد "التطرف العنيف" أو "التطرف المتشدد". ذلك لأن "الحرب على الإرهاب" اتخذت معنى الحرب على الإسلام، وهذا يعني أن أمريكا تكُنّ العداء إلى مليار ونصف مليار مسلم على وجه

³⁸⁷ الحرب على أفغانستان قامت للقضاء على الإرهاب، والحرب على العراق قامت بحجة القضاء على أسلحة الدمار الشامل.

³⁸⁸ لم تأت الحرب الإعلامية التي وجهتها أمريكا ضد الخصم بالتناج المطلوبة، إذ استغلت الحركات المناوئة لأمريكا المواقع الخاصة بها على شبكة الإنترنت وردت هجوماً عنيفاً على سلوك القوات الأمريكية الغازية لأفغانستان والعراق.

الكرة الأرضية، وبهذا وسعت دائرة الصراع الذي تحول إلى صراع ديني - عقائدي وأيديولوجي³⁸⁹.

لا تريد الدول الغربية، وفي مقدمتها أمريكا، أي رقابة أو انتقاد لما تدرسه لتلاميذها عن حياة العرب والشريعة الإسلامية. ففي كتب التاريخ، التي يدرس فيها تلاميذ الدول الغربية، هنالك مفاهيم تتعلق بالإسلام تُدرس بطريقة بعيدة عن الحقيقة الإسلامية³⁹⁰.

لقد وصلت الجراءة لدى بعض الدول الغربية حدّ المطالبة العلنية بتحديث الإسلام من خلال النظر في "تحقيق القرآن"، وذلك لهندسة المجتمعات العربية ولتجفيف منابع الرفض للهيمنة الغربية. وقد ذُكر هذا الموضوع في الندوة التي عقدت في بيروت 25-26 يونيو 2003 ولقي صدّى في تونس، ولخص الفكرة محمد الحضراوي (2004) قائلاً:

ولعل السيناريو السوداني الذي كان يتخوف منه إسلاميو الستينيات والسبعينيات من محاولات تنقيح للقرآن الكريم أصبح الآن سياسة غربية معلنة، فأيات مثل ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ (الأنفال 8: 60)؛ أو ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ (البقرة 2: 191)؛ يراد إلغاؤها أو تنقيحها.

يتم التعامل مع الإسلام بالطريقة الاختزالية، وهي تعني الربط المباشر بين المسلمين وتنظيم "القاعدة" على أنهم إرهابيون، ومن هنا تولد المفهوم "إسلاموفوبيا". بالمقابل، هنالك تنظيمات في أوروبا وآسيا تقوم بأعمال إرهابية مثل، الأولوية الحمراء الإيطالية؛ أو جماعة

³⁸⁹ وضعت هذه الحالة أمريكا في دوامة يصعب الخروج منها ويصعب الانتصار فيها بالوسائل العسكرية.

³⁹⁰ نذكر على سبيل المثال لا الحصر، المقولات والأفكار الآتية: العرب ينتهجون نمطاً معيشياً بدائياً متخلفاً؛ تشويه مصطلح "الجهاد" واستخدامه لانتهاك حرمة الآخرين؛ الرسول عليه السلام في نظرهم، رجل محارب وليس رسول محبة وسلام؛ الإسلام هو دين القوة؛ تعدد النساء في الإسلام عمل غير حضاري، وله عوارض سلبية.

العمل المباشر الفرنسي؛ أو بايدن هوف الألمانية؛ أو الجيش الجمهوري الإيرلندي وإيتيا؛ أو الجيش الأحمر الياباني. لم يتم الربط بين هذه الجماعات والديانات التي تنتمي إليها.

الادعاء الغربي هو أن القرآن والنصوص الدينية الإسلامية تحتوي على أفكار إرهابية تعبت بأفكار الشباب. وبما أن الإنسان هو منتج لغوي فإن الدعاة المسلمين يعلمونها بالطرق السلبية، التي تغذي عقول الناشئة، فيخرجون إلى الحياة إرهابيين. ولكن غفل محاربو الإسلام³⁹¹، بأن الجهاد في الدين الإسلامي يكتسب مشروعيته من خلال الدفاع عن النفس والانتصار للمظلومين، ولم يكن عدوانياً قط. قال تعالى: ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ هَدَمْتَ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج 22: 39-40) كما غفلوا عن كثير من الآيات التي تدعو إلى الصفح والسلام واحترام الآخرين، وعدم المساس بهم إلا في حالة الاعتداء، نذكر منها: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة 2: 190)؛ ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة 2: 193)؛ ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (الأنفال 8: 61)؛ ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون 6: 109)³⁹².

³⁹¹ بعد أحداث سبتمبر 2001 ازداد اهتمام الغرب بدراسة الإسلام ومعرفة تشريعاته الدينية ونظمه الاجتماعية (أرمسترونغ، 2004: 13). وكانت المراجع الأساسية الكتب التي ألفها اليهود عن الإسلام باللغات الأجنبية وخاصة الإنجليزية.

³⁹² وثمة آيات تنص على القتال كوسيلة للدفاع عن النفس ﴿إِنْ قَاتَلْتُمُ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة 2: 191).

وفي الحديث، يقول الرسول الكريم: "لا تقتلن امرأة، ولا صبيّاً ولا كبيراً هراماً، ولا تقطعن شجراً مثمرّاً، ولا تخربن عامراً، ولا تعقرن شاة، ولا بعيراً إلا لمأكلة، ولا تحرقن نخلاً، ولا تفرقنه، ولا تغلل ولا تحبن". ويتخذ أنصار الإسلام هذه الآيات دليلاً على الهدف الحقيقي لهذا الدين.

مارست الولايات المتحدة الضغوطات على الدول العربية والإسلامية، من أجل تشديد الرقابة على المدارس الدينية التي تغذي، حسب رأيهم، الأجيال الناشئة على حقد الآخرين وتفسد عقولهم. وفي الوقت ذاته، طلبت عدم تعليم النصوص الدينية التي تظهر العدا لغير المسلمين وتحض على قتالهم. وقد استجابت الكثير من الدول العربية لهذا الطلب، وشطبّت هذه المواد من المقررات الدراسية³⁹³.

لم تكفِ هذه الخطوات المشرع الأمريكي الذي أراد أن يوثقها في مرسوم علني يلاحق كل من يخالف أوامره. ففي عام 2005 أصدر مجلس الشيوخ الأمريكي قانوناً يمنع نشر الوثائق التي تبث الكراهية بين الشعوب. وفُسر القانون بأنه موجه ضد القرآن الذي يحتوي على آيات تحرض على العدا لأبناء الديانات الأخرى، وخاصة، منع تعليم الآيات القرآنية التي تحرض على اليهود. والسؤال الذي يطرح نفسه: كيف سيتعامل القانون الجديد مع الكتب الدينية غير الإسلامية التي تحتوي على مضامين مشابهة لتلك التي ناصبها العدا؟

إن الآيات القرآنية التي تعبر عن الحرب، إنما تعبر عن السياقات التي قيلت فيها، وهي تختلف عما ورد في آيات التوراة، حيث نجد فيها أن بني إسرائيل قد أمرهم ربهم بغزو المدن

³⁹³ ذهبت الحكومة الباكستانية، برئاسة برويز مشرف، إلى أكثر من ذلك، حيث أصدرت قانوناً يأمر بطرد جميع طلبة المؤسسات الدينية الأجانب، حتى نهاية عام 2005.

وبقتل كل ما فيها من نساء وأطفال. وعند تصفح آيات القتل في التوراة، نجد أن العديد من الآيات تحض على القتال، وعدم التعامل مع الأعداء، ونذكر منها ما يلي³⁹⁴:

1- وكَلِمَ الْآخَرِينَ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: اذْهَبُوا فِي الْمَدِينَةِ وَرَاءَهُ وَاضْرِبُوا. لَا تُشْفِقُوا وَلَا تَعْفُوا. اقْتُلُوا الشُّيُوخَ وَالشَّبَانَ وَالشَّابَاتِ وَالْأَطْفَالَ وَالنِّسَاءَ حَتَّى الْفَنَاءِ، وَلَكِنْ لَا تَمْسُوا كُلَّ مَنْ عَلَى جَبِينِهِ عَلَامَةً. ابْتَدِئُوا مِنْ هَيْكَلِي». فَابْتَدَأُوا مِنَ الشُّيُوخِ الَّذِينَ أَمَامَ هَيْكَلِ الرَّبِّ. وَقَالَ لَهُمْ: «نَجْسُوا الْهَيْكَلَ وَأَمْلَأُوا الدَّارَ مِنَ الْقَتْلِ! أَخْرِجُوا!» فَخَرَجُوا وَقَتَلُوا فِي الْمَدِينَةِ (حزقيال، 9: 5-7).

2- فَاذْهَبِ الْآنَ وَأَضْرِبِ بَنِي عَمَالِيقَ، وَأَهْلِكَ جَمِيعَ مَا هُمْ وَلَا تَعْفُ عَنْهُمْ، بَلِ اقْتُلِ الرِّجَالَ وَالنِّسَاءَ وَالْأَطْفَالَ وَالرُّضْعَ وَالْبَقَرَ وَالْغَنَمَ وَالْجَمَالَ وَالْحَمِيرَ». (صموئيل الأول، 15: 3).

3- فَنَفَخَ الْكَهَنَةُ فِي الْأَبْوَاقِ فَهَتَفَ الشَّعْبُ عِنْدَ سَمَاعِ صَوْتِهَا هَتَافًا شَدِيدًا فَسَقَطَ السَّوْرُ فِي مَكَانِهِ. فَافْتَحَ الشَّعْبُ الْمَدِينَةَ لَا يَلْوِي أَحَدُهُمْ عَلَى شَيْءٍ وَأَسْتَوَلُوا عَلَيْهَا. وَقَتَلُوا بِحَدِّ السِّيفِ إِكْرَامًا لِلرَّبِّ جَمِيعَ مَا فِي الْمَدِينَةِ مِنْ رِجَالٍ وَنِسَاءٍ وَأَطْفَالٍ وَشُيُوخَ، حَتَّى الْبَقَرَ وَالْغَنَمَ وَالْحَمِيرَ. (يشوع، 6: 20-21).

4- وَأَحْتَلَّ يَشُوعُ جَمِيعَ أَرْضِ الْجَبَلِ وَالْجَنُوبِ وَالسَّهْلِ وَالسُّفُوحِ وَضَرَبَ جَمِيعَ مُلُوكِهَا وَلَمْ يُبْقِ بَاقِيًا، وَقَتَلَ كُلَّ نَفْسٍ فِيهَا كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ إِلَهُ إِسْرَائِيلَ. (يشوع، 10: 40).

³⁹⁴ من الجدير ذكره، أن التوراة تشير إلى العرب تحت مسمى "إسماعيل". وفي كتاب التكوين يعد الله هاجر بأنها ستنجب إسماعيل، وأنه سيكون إنسانا وحشيا: ثُمَّ قَالَ لَهَا: «كَثِيرًا أَجْعَلُ نَسْلَكَ حَتَّى لَا يُحْصَى لِكَثْرَتِهِ» وَقَالَ: «أَنْتِ حُبْلَى وَسَتَلِدِينَ ابْنًا فَتُسَمِّيهِ إِسْمَاعِيلَ، لِأَنَّ الرَّبَّ سَمِعَ صُرَاخَ عَنَّاكَ. وَيَكُونُ إِنْسَانًا وَحْشِيًا، يَدُهُ مَرْفُوعَةٌ عَلَى كُلِّ إِنْسَانٍ، وَيَدُ كُلِّ إِنْسَانٍ مَرْفُوعَةٌ عَلَيْهِ، وَيَعِيشُ فِي مَوَاجَهَةِ جَمِيعِ إِخْوَتِهِ». (التكوين، 16: 10-12).

5- وعادَ يَشوعُ في ذَلِكَ الوقتِ واجتاحت حاصورَ وقتَلَ مَلِكُهَا بالسيفِ، لأن حاصورَ كانت آنذاك أهم جميعِ تلكِ الممالكِ، وضربَ كُلِّ نفسٍ فيها بِحَدِ السيفِ ولم يُبقِ على أَحَدٍ وأحرقَها بالنارِ. وأستولى يَشوعُ على كُلِّ مُدُنِ أولئكِ المُلوكِ معَ مُلوكِها وضربَهُم بِحَدِ السيفِ كما أمرَ موسى عبدُ الرب. (يشوع 10: 11-11).

6- وإذا أدخلَكُمُ الرب إهْكُمُ الأرضَ التي أنتم مُزِمِعُونَ أن تملكوها، وطردَ أُمَمًا كثيرةً مِنْ أمامِكُم كالْحِثِّيِّينَ والجرجاشيينَ والأموريينَ والكنعانيينَ والفَرِزِيِّينَ والحويينَ واليَبُوسِيِّينَ، وَهُمْ سَبْعَةُ شُعُوبٍ عَظُمُ وَأَكْثَرُ مِنْكُم، وَأَسْلَمَهُمْ إِلَى أَيْدِيكُم وَضَرَبْتُمُوهُمْ، فَاجْعَلُوهُمْ مُحْرَمِينَ عَلَيْكُم. لا تقطَعُوا مَعَهُمْ عَهْدًا، ولا تَتَحَنَّنُوا عَلَيْهِمْ، ولا تُصَاهِرُوهُمْ، فَتُعْطُوا بَنَاتِكُم لِبَنِيهِمْ وتأخذوا بَنَاتِهِمْ لِبَنِيكُم (التثنية 7: 1-3).

ففي المثال الرابع، على سبيل المثال، قيل صراحةً، إن ما قام به يشوع من تحريم كل نسمة ليعد تنفيذًا لأوامر الرب إله إسرائيل. من هنا يتضح، أن السياسة هي التي تفرق بين الأديان. وعلى ضوء التغيرات السريعة على الحلبة السياسية، وممارسة الضغوطات والتدخل المروع في أقدس كتاب لدى المسلمين، المطلوب تنمية حوار يجسر الفجوة بين الحضارة الأوروبية والإسلامية. وليس نشوب صراع حضاري- ديني تكون فيه الغلبة للقوي، ويكون الضعيف مغلوبًا على أمره، متربصًا تحين الفرصة، حتى يتخلص من هذا الغبن.

وأما في الديانة المسيحية فنجد قولاً صريحاً في الإنجيل للمسيح عليه السلام (العهد الجديد) بأنه لم يأت فقط لنشر السلام والمحبة والمودة بين الناس، وإنما أيضاً لاستخدام السيف:

لا تَظُنُّوا أَني جِئْتُ لِأَحْمِلَ السَّلامَ إِلَى العالَمِ، ما جِئْتُ لِأَحْمِلَ سَلامًا بَلْ سَيفًا. جِئْتُ لِأُفَرِّقَ بَيْنَ الابْنِ وَأَبِيهِ، وَابْنَتِ وَأُمِّهَا، وَالكَنَةِ وَحامِئِهَا. وَيكونُ أَعْداءَ الإنسانِ أَهْلَ بَيتِهِ. (متى، الإصحاح 10: 34-36).

ترجمة القرآن للعبرية

بدأت مهمة ترجمة القرآن الكريم إلى العبرية منذ العصور الوسطى، وتحديدًا منذ خلال الأندلسي الزاهر ولم تتوقف حتى اليوم³⁹⁵. لقد وجدت مخطوطات نسخ عليها القرآن بطريقة "النقحرة" תנחומים أي كتابة ألفاظ القرآن بأحرف عبرية (لاتسروس، 1991: 39). كما وجدت ترجمة جزئية لآيات محددة من القرآن، تم تضمينها في الكتابات العبرية على شاكلتين، إما بترجمتها الحرفية، أو بإدخال بعض التغييرات عليها. كان الاستعانة بآيات قرآنية مألوفًا لدى اليهود، ونذكر أربعة من أشهر الأدباء في هذا المجال وهم على التوالي: الرابي سعادي غاؤون، يهودا بن قريش، الرابي موشي بن عزرا ويهودا الحريزي (مرعي، 2001).

إن أول من قام بترجمة القرآن كاملاً إلى العبرية هو يعقوب هليفي في القرن السادس عشر الميلادي، وما زالت هذه الترجمة محفوظة في مخطوط موجود في عدد من المكتبات العالمية. وفي القرن التاسع عشر أصدر المستشرق اليهودي الألماني، تسفي ركندوف، الترجمة العبرية الثانية للقرآن، اعتمد فيها الأصل العربي مباشرة، وقارنه بالترجمات الأخرى. وصدرت الترجمة الثالثة للقرآن عام 1936 على يد يوسف ريبيلين، الذي وُلد في القدس. قامت المنهجية التي اتبعها ريبيلين في ترجمته للقرآن على تبني الفكر السائد لدى كثير من المستشرقين والداعين إلى أن القرآن منسوخ عن التوراة، ولذا لم يستخدم كلمة "سورة" للتعبير عن السور القرآنية، بل استعمل "براشاه"³⁹⁶.

في عام 1971 أنجز أهارون بن شيمش، المحاضر في الجامعة العبرية، رابع ترجمة للقرآن إلى العبرية، وتميزت هذه الترجمة عن غيرها بالتحريف، ولم تلتزم بالظواهر البلاغية، مما جعلها

³⁹⁵ كان الحاخام سعادي الفيومي المصري، أول من ترجم التوراة إلى العبرية في القرن العاشر الميلادي، بعد أن اختفت العبرية كلغة مخاطبة، وبدأت تنحصر بين المتدينين منهم في الشعائر الدينية.

³⁹⁶ لفظة "براشاه" متبعة في الديانة اليهودية، مثل "برشاة هشافواع" قضية الأسبوع פרשת השבוע.

بعيدة عن المعنى المراد في القرآن الكريم (الأصل). وقد لاقت هذه الترجمة انتقادًا لاذعًا من قبل باحثين في جمهورية مصر العربية، حيث عكف عامر الزيناتي، المدرس بقسم اللغة العبرية بكلية الآداب بجامعة عين شمس، على دراسة تحت عنوان "إشكالية الترجمة لأوجه بلاغية في الترجمات العبرية لمعاني القرآن الكريم"، وكانت أطروحته التي نال بها درجة الدكتوراه من الجامعة نفسها³⁹⁷.

هذا وأصدر البروفسور أوري رويين، المختص في دراسة القرآن وتفسيره، في أبريل (2005) ترجمة جديدة للقرآن. أثارت ترجمتا ابن شيمش ورويين جدلاً بين الباحثين اليهود أنفسهم، إذ كتب مناحيم بن في جريدة معاريف (ملحق السبت، 29.4.2005) تحت عنوان "شعب الله المختار حسب التوراة"، أن ترجمة ابن شيمش لآية: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة 2: 47) "بني إسرائيل! اذكروا أن الله اختاركم من بين جميع الشعوب" هي الأدق من ترجمة أوري رويين التي تقول "هو بني إسرائيل اذكروا أن الله اختاركم من بين جميع الشعوب". فرد عليه رويين (معاريف ملحق السبت، 6.5.2005):

إن الآية القرآنية لم تذكر أن الله "اختار" بחר اليهود "من كل الشعوب" مכל العالمين. من يطلع على ترجمة القرآن في اللغات الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية لا يجد هاتين

³⁹⁷ حول هذه الترجمة أيضًا ورد في موقع إسلام أون لاين نت 3.10.2000 تحت عنوان "الأزهر يدافع عن القرآن باللغة العبرية":

قام مجموعة من أساتذة اللغة العبرية بجامعة حلوان، بالتعاون مع إدارة التأليف والترجمة بمجمع البحوث الإسلامية بترجمة معاني القرآن الكريم إلى العبرية؛ وذلك ردًا على الافتراءات والمغالطات التي وردت في الترجمة التي قام بها الحاخام اليهودي أهرون شيمش، والتي يتم توزيعها داخل إسرائيل. هذا، وتم إعداد تقرير تضمن الأخطاء والمغالطات التي وقعت في ترجمة شتى السور القرآنية، وأرسلت إلى المترجم لتدارك الأخطاء الموجودة في الكتاب.

الكلمتين، لأنها لم ترد أصلاً في النص القرآني. هذه الكلمات افترها ابن شيمش حتى يلائم ذلك لقوالب يهودية معروفة (تروق لأذن ناقد أدب عبري).

ويستطرد روبين قائلاً إن كلمة ידן أي نَعَمْ لم ترد في القرآن، بل ذُكرت نعمة واحدة ידן. ويخلص روبين إلى القول، إنه من وجهة النظر الإسلامية "تُفسر ترجمة ابن شيمش على أنها تزيف يهودي للقرآن"، وأن الشعب المختار حسب القرآن، أمة محمد التي استخلفت اليهود والنصارى.

مما لا شك فيه، أن ترجمة الكتب المقدسة إلى اللغات الأخرى تسعى إلى إحداث تواصل بين الأديان، ولكن إذا ما هدفت الترجمة إلى إظهار القصور والعيوب، فإنها بلا شك، تثير الضغينة وتؤجج الصراع الديني. فالصراع على الخلفية الدينية يُعدّ فتنة كبرى، وعواقبه أشد خطورة من الصراع القومي بين الشعوب.

خلاصة القول، للمواد المنشورة أثرٌ كبير على ترسيخ المبادئ، وترويج الأفكار الأيديولوجية التي تنادي الدول الكبيرة بها من أجل إحكام سيطرتها على الدول الضعيفة. تكمن الخطورة في تسويق المواد واستهلاكها للأغراض السياسية، خاصة في مجالي مناهج التدريس والنصوص الدينية.

إن التدخل في مناهج التدريس والنصوص الدينية، يفقد الشعوب المغلوبة القدرة على إيصال تراثها الثقافي وإرثها الديني بشكل سليم إلى الأجيال القادمة.

الخاتمة

تعد اللغة القومية عنصرًا أساسيًا في حياة الأمم والشعوب، فبواسطة هذه اللغة يتم التألف والتعاون بين بني البشر، وذلك في جميع أنشطة الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. وقد يؤدي الاختلاف اللغوي بين الشعوب إلى حروب قاسية بسبب عدم إيجاد لغة تفاهم مشتركة بينهم، فضلاً عن أن اللغة عرضة للتغيير حسب النظم السائدة في ذلك المجتمع. وقد بينا جميع هذه الموضوعات في الدراسة من خلال تبني الناحية الوصفية والتاريخية كمنهج للمقارنة بين اللغتين العربية والعبرية.

خاضت اللغتان العربية والعبرية صراعات داخلية وخارجية على مر العصور، كما بينا في الفصل الأول. ولكن بالرغم من الصعوبات التي داهمتها، استطاعت اللغتان تجاوز المحن، إلى أن التقتا في هذه البلاد لتخوضا صراعاً جديداً، بحيث أصبحت اللغة جزءاً لا يتجزأ من الصراع لا سيما في المناحي العسكرية والمدنية والسياسية.

لقد وجدنا أن القواسم المشتركة بين هاتين اللغتين الشقيقتين تتمثل في الأصل المشترك وفي بعض المفردات المتشابهة، وفي بعض نواحي الصرف. ومما لا شك فيه أن دراسة اللغة الواحدة يثري المعرفة في الأخرى، بل نقول أكثر من ذلك، إن الدراسة اللغوية المقارنة بين اللغتين تساهم في تفسير ظواهر لغوية غامضة، لا يمكن فهمها إلا عن طريق تعقب التطور الحاصل في اللغة الثانية.

ليست اللغة ساكنة بحال من الأحوال، وبالرغم من أن تقدمها يبدو بطيئاً في بعض الأحيان، فالأصوات والتراكيب والعناصر النحوية وصيغ الكلمات معرضة كلها للتغيير والتطور. تنتقل اللغة من جيل إلى آخر عبر فترات تتخللها تغيرات وتحولات دائمة، وهذا الأمر يتجلى في الاستعمال اللغوي، وفي تكوين ظواهر لغوية لم تكن مألوفة من قبل.

يعود الفضل في الحفاظ على اللغة العربية من عوادي الزمان للقرآن الكريم ولرجال الدين الذين خاطبوا الناس بلغة القرآن والسنة المشرفة والتشريع، وجعلوها منهاجاً أساسياً في حياتهم اليومية. لقد حمى الإسلام العربية، وصانها من الانقسام إلى لغات متناحرة.

تمحور الإشكال اللغوي الذي واكب العربية الفصحى في العصر الحديث في أمرين: الأول - عدم قدرتها على وضع تسميات ومصطلحات مناسبة للعلوم والتقنيات الحديثة التي نشأت في اللغات الأجنبية؛ والثاني - عدم صلاحيتها لتدريس العلوم في المعاهد العليا والجامعات. الجهود التي بذلتها الجامعات اللغوية وحركة الترجمة والتعريب، أسهمت في تقديم الحل اللغوي لهذا الإشكال. بيد أن المشكلة الأساسية ما زالت في تدريس الطب باللغات الأجنبية، وهذا بدوره يشكل عبئاً، ليس فقط على الطلبة الدارسين، وإنما أيضاً على مستهلكي الخدمات الطبية، إذ يصعب على الطبيب محاورته بالعربية لدى تشخيصه المرض الذي يعاني منه.

تعتمد كل لغة حية على ما هو ثابت وما هو متحول؛ فالثابت في اللغة هو خصائصها المميزة، وقوانينها النحوية والصرفية والصوتية، أما المتحول فهو ألفاظها ومفرداتها. والمفردات التي تشتق من اللغة تزيد من ألفاظ العربية ومن مادة معجمها اللغوي، وهي بذلك تلبى حاجات التنمية الاقتصادية والإدارة الحديثة، والذي يطلق عليه اسم "التنمية اللغوية".

جعل ضعف القدرة على امتلاك اللغة العربية حديثاً وكتابة وتعبيراً، المحصول اللغوي محدوداً، بحيث يفضل الكثير التعبير عن الأفكار والمفاهيم الجديدة التي يكتسبونها بلغة غير العربية لعجزهم عن إيجاد المعادل اللغوي العربي لتلك الأفكار والمفاهيم. إن الضعف في السلوك اللغوي، الذي ينعكس بمظاهر الجنوح إلى العامية المحلية للتواصل اليومي والعلمي، يؤدي إلى التباعد عن اللغة الفصحى. وهذا من شأنه أن يحد من المعرفة اللغوية في دائرة ضيقة من المفردات والتراكيب، وإذا ما واجه المتحدث مدلولات أجنبية اضطر إلى

الاعتماد على لغاتها للتعبير عنها. بمعنى آخر، إن مشكلة العربية اليوم، هي مزاحمة اللهجات العامية في البيت والشارع والحياة اليومية، والأجنبية في ميدان العلم والتعليم. مشكلة أخرى تعاني منها العربية، وهي اتهامها بالتقصير في الاستجابة للتحديات وفشلها في التطور ومواكبة روح العصر، أي أن العربية متجمدة ولا تفي بالتعبير عن متطلبات الواقع الحياتي. والسؤال الذي يطرح نفسه: هل التقصير متعلق باللغة أم بالناطقين بتلك اللغة؟ إن قوة اللغة ليست في خصائصها فحسب، وإنما تنبع من قوة شعبها، ومدى احترامه لها.

إن مكانة اللغة وتدريبها بين اللغات، هي بمثابة مرآة صادقة وحقيقية لمكانة الشعب، وما وصل إليه من رقي علمي واكتشافات علمية. فنرى العالم اليوم يفهم كلمة "كمبيوتر" أو "تليفون"، لأن مخترعي هذين الجهازين يتكلمون اللغة الإنجليزية، فلو اخترع العرب التلفاز لنطق كل العالم بلفظة مرناة.

كانت اللهجة العربية المحلية وسيلة التعامل اليومي بين أبناء القرية الواحدة والمناطق المتاخمة، وظلت الفصحى وسيلة الثقافة الرسمية واقتصرت مهارتها على القراءة والاستماع. واجهت العبرية نفس الحالة، إذ تحدث اليهود قبل قيام إسرائيل بلهجات البلدان التي تواجدوا فيها، وأما العبرية المكتوبة فاقتصرت استخدامها على الأمور الدينية.

يعتبر إحياء العبرية من أهم المشاريع اللغوية التي حدثت في القرن العشرين، وهو إنجاز قامت به الحركة الصهيونية، اعتبره البعض عملية شبيهة بإحياء الموتى. إن اليهود المهاجرين بدوافع قومية هم الذين تبناوا التحدث بالعبرية، وكانت لديهم قابلية استيعاب العبرية أكثر من اليهود القدامى، الذين أرادوا الاستمرار بالتحدث بلغتهم الأجنبية.

لم تبدأ اللغة العبرية من الصفر، إذ لها رصيد وافر من المفردات اللغوية التي استمدت جذورها من التراث اليهودي. والمشكلة تكمن في عدم تلبية هذه المفردات للحياة الحديثة.

وعليه، كان إجماع قومي بين اليهود، على مختلف توجهاتهم، على توسيع العبرية، باستثناء بعض الخلافات الفنية والطرق التي يتم فيه تطويع الكلمة الأجنبية إلى العبرية.

تمتاز العبرية بقدرتها على استيعاب مفردات جديدة من اللغات الأخرى، خاصة الأوروبية والعربية، دون عائق، وذلك من خلال وضع المفردات في قوالب صرفية وفونيمات صوتية مألوفة في هذه اللغة. فالتأثر من العربية هو في أساسه لغوي، لأن العربية قريبة من العبرية والنشابه في الكثير من المفردات يساعد في اقتراس العبرية كلمات عربية ذات جذور مشتركة. أما التأثر من اللغات الأوروبية، فهو ثقافي.

عملياً، تبنّت الحركة الصهيونية الثقافة الغربية كنهج حياتي، وذلك بغية الابتعاد عن الثقافة الشرقية. مهّد تقبّل ثقافة الغير إلى اقتراس مفرداته التي تعبر عن نمط حياته، ولا يرى المقترض حرباً في ذلك لأنها تصبح جزءاً لا يتجزأ من ميراثه المعجمي والثقافي. ومما ساعد في تنويع المخزون اللغوي انتشار الجاليات اليهودية في أنحاء العالم.

في فترة الإحياء، تركّز دور العبرية في بناء الشخصية اليهودية على أسس المشاعر القومية، وبعد قيام الدولة تمحور توظيف اللغة العبرية في بلورة بناء الشخصية الإسرائيلية على الأسس الاجتماعية. على سبيل المثال، تلاشت في الآونة الأخيرة قضية تغيير الأسماء إلى العبرية، فكل مهاجر يحتفظ باسمه الأصلي دون الحاجة إلى تغييره. هذه الظاهرة بارزة بشكل واضح لدى المهاجرين الروس الجدد، فمن خلال ذكر اسم الفرد تستطيع أن تخمن مسقط رأسه.

أدى تحقيق الأيديولوجيا الصهيونية وتفوق إسرائيل العسكري والسياسي إلى تهميش المنحى القومي، فبدأت تطفو على السطح الكثير من المشاكل الإثنية- الاجتماعية والطبقية بين الأشكناز والسفرديم، التي نجمت عن الفروق الثقافية والتعليمية والاقتصادية بينهم. خلال ذلك، لعبت اللغة العبرية الإسرائيلية دوراً مهماً في جسر الهوة الاجتماعية بين الطوائف اليهودية المختلفة، عبر وسائل الإعلام المرئية والمقروءة.

العبرية المستخدمة اليوم، هي لغة الصحافة، وهي لغة سهلة نسبياً، مقارنة مع العبرية القديمة التوراتية- الكلاسيكية؛ وتُستخدم هذه اللغة لتقريب وجهات النظر بين أبناء الطوائف اليهودية، ولإظهار إنجازات الدولة العبرية. نظر اليهود إلى العبرية كأداة بعث وعنوان نهضتهم العالمية، وليس فقط كأداة تواصل لغوي بين الناس، فاليهود بعد تشتتهم وفقدان هويتهم أوجدوا هويتهم من جديد وبعثوا وجودهم باللغة العبرية التي أصبحت لغة التعليم في جميع المراحل التربوية، ويشمل ذلك التعليم الجامعي، حيث أن موضوعات الطب والهندسة والعلوم تدرس بالعبرية منذ أن أنشئت أول جامعة في البلاد. وكذلك الحال في لغة المنتديات والأنشطة الثقافية والاجتماعية السائرة في الحياة اليومية.

اللغة ظاهرة اجتماعية تنمو وتتطور كلما نمت الأمة وازدادت قوتها. وكما ذكرنا، فإن من يعزز مكانة اللغة ويرفع من شأنها وقدرها هم أهلها، أي الناطقون بها. لقد واجهت مسألة إحياء العربية الفصحى المعاصرة إشكالات جمة، وبدلاً من المواجهة، أي إيجاد الحلول لتدعيم اللغة الفصحى، تهرب الكثير من دعم الفصحى من خلال إيجاد بدائل لا تسمن ولا تغني من جوع. بل أكثر من ذلك، فهناك من اقترح حلولاً تعد بمثابة الضربة القاضية للغة القرآن.

ومن الحلول الأخرى: الدعوة إلى العامية، واستبدال الحروف العربية بأخرى لاتينية، والتعليم باللغة الأجنبية، واستعمال الأدباء لغة الحوار بالعامية في كتاباتهم. وهناك من دعا إلى ثنائية لغوية، بحيث تستخدم في آن واحد لغتان: العربية للأدب والإنسانيات والأجنبية للعلوم والتقانة. ومن المفيد، أن جميع هذه الاقتراحات سقطت أمام إصرار القوميين العرب، الذين رأوا باللسان الموحد الدعامة الحقيقية لتوحيد الأمة العربية من خليجها إلى محيطها.

تجدر الإشارة إلى انتشار ظاهرة العمالة الأجنبية الوافدة من أفريقيا وآسيا في الخليج العربي، ويتحدث هؤلاء الوافدون بلغات كثيرة، ويضطر المشغلون أو المستخدمون التحدث معهم

بلغاتهم الأصلية أو بعربية مشوهة بهدف تأدية مصالحهم³⁹⁸. والأخطر من ذلك، أن المربيات والحاضنات يلقن الأطفال لغاتهنّ على حساب لغة الأم العربية، فتضعف اللغة على السنة الأجيال الناشئة التي من المفروض أن تبدأ حياتها باللغة العربية لتكوّن لها رصيداً لغوياً متيناً في المستقبل. كما وتهدد العربية باللهجة العامية الفصحى، فكثير من الأشعار تدون باللغة العامية المحلية، وتخصص لشعرائها مسابقات وجوائز ثمينة.

إن القضايا المعاصرة التي تجابه العربية في ظل تنافس اللغات في عصر العولمة كثيرة، والأمر يتطلب دراسة عميقة لبحث مشاكل تعلم العربية ومناهج تدريسها، من جهة؛ ومن جهة أخرى، العمل على وضع الاستراتيجيات والطرق الفعالة للتغلب على تلك الصعوبات.

لكل لغة مخزون ثقافي وعاطفي يؤثر في عقلية الذين يتعلمونها، وفي نفسياتهم. وهناك الكثير من الأهالي في الدول العربية يرغبون أن يتعلم أولادهم في مدارس خصوصية أجنبية، بدلاً من المدارس الأهلية، وذلك حرصاً على مستقبلهم، ولكي تُفتح لهم نافذة على العالم. قد يصنع هؤلاء لأولادهم معروفاً على المدى القريب، ولكن على المدى البعيد يتركون أولادهم يعيشون في تحبط ثقافي. إذ أن تعليمهم بالأجنبية يكون على حساب لغة الأم العربية، ولكن في نفس الوقت، هم يعيشون في بيئة عربية في البيت والشارع والنادي، وما إلى ذلك³⁹⁹.

³⁹⁸ من الأمثلة الأخرى، سائق التاكسي الذي يركبه أجنبي (هندي أو باكستاني) والذي تؤثر لغته على لغة المواطن الخليجي. وحين يتصل الفرد ليسأل عن صديق أو قريب له يعالج هناك، يرد عليه عامل البدالة "الأجنبي"، فيضطر للتفاهم معه بلغة غير العربية. وتعود هذه المسألة على نفسها أيضاً في السوق، إذ أن غالبية البائعين أجانب.

³⁹⁹ هذه الظاهرة نجدها، أيضاً، لدى المواطنين العرب في إسرائيل الذين يبعثون أولادهم للتعليم في مدارس عبرية من أجل أن يكتسبوا اللغة العبرية، وحتى يتمكنوا من مواصلة دراستهم الأكاديمية في الجامعات الإسرائيلية.

إن العقبة الرئيسة التي وقفت حجر عثرة أمام العبرية في مرحلة انبعائها، هي تعدد المدارس الأجنبية التي تمسكت بها مجموعات يهودية ناطقة بتلك اللغات، وأصرّت على التواصل بها. أدى هذا الوضع إلى نشوب مجابهة فعلية بين الحركة الصهيونية، التي سخّرت جميع المقومات البشرية والمادية والأيدولوجية من أجل إحياء العبرية، وبين هذه المجموعات المدعومة من قبل مؤسسات أجنبية.

شق انتصار الحركة الصهيونية في توحيد لغة المدارس والمؤسسات التعليمية والأكاديمية الطريق أمام العبرية لتصبح لغة منطوقة ومكتوبة بلا منازع. كما ساهمت الظروف التي نشأت بها دولة إسرائيل، وموجات الهجرة المكثفة في إحكام السيطرة على انتشار اللغة العبرية وجعلها اللغة المهيمنة.

لكن في نفس الوقت، كان معجم العبرية يفتقر إلى مفردات ضرورية لكي تلبي احتياجات الناطقين بها. زاد هذا الواقع من ظاهرة اقتراض مفردات من لغات أجنبية اكتسبت الشرعية اللغوية من خلال صقلها في القوالب والبنىويات المألوفة في اللغة العبرية. وجدير بالذكر أن العبرية ما زالت حتى اليوم تستوعب ألفاظاً جديدة.

شكل اقتراض مفردات عربية نقطة خلاف جوهرية بين اللغويين اليهود أنفسهم. فبعضهم، وهم قلة، كان مناصراً لهذه الفكرة من منطلق التقارب اللغوي بين اللغتين. أما الآخرون، وهم السواد الأعظم من اللغويين، فعارضوا بشدة الاقتراض من العربية، مبررين ذلك بقصور العربية عن مواكبة التقدم العلمي.

لكن السبب الحقيقي من وراء ذلك هو الابتعاد قدر الإمكان عن الثقافة الشرقية التي لا تروق للصفوة الأشكنازية. وبهذا، أعطيت الفرصة لاقتراض مفردات أجنبية من اللغات الأوروبية بغية تبني الثقافة الغربية.

استمر هذا الوضع على حاله في العقود الثلاثة من إنشاء إسرائيل، ثم حدث تحوّل في نظرة اليهود تجاه العربية، إذ أخذ الدخيل العربي يتغلغل في العبرية المحكية في مجالات شتى.

وأصبح الدخيل اللغوي متبادلاً بين الناطقين بالعربية وبالعبرية داخل إسرائيل، بعد أن كان في بدايته أحادي الجانب.

إن التبادل اللغوي بين العربية والعبرية موجود في ازدياد مطرد، وهذا يحتم على الباحثين ضرورة الاهتمام بهذا الجانب من خلال إجراء دراسات مسهبة تفحص أثر هذا التبادل على الشعبيين في النواحي اللغوية والثقافية.

المراجع

المراجع العربية والعبرية

- أبرهامي، إ. (محرر) (1998). معجم الكيبوتس. تل - أبيب: ياد طبنتين. (بالعبرية)
- ابن حزم الأندلسي، ع. (د.ت). الإحكام في أصول الأحكام. أ. شاعر (محقق). القاهرة: د.ن.
- ابن خلدون، ع. (د.ت). مقدمة ابن خلدون. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- ابن شوشان، أ. (1983). المعجم المعاصر. القدس: قريات سيفر محدودة الضمان. (بالعبرية)
- ابن فارس، أ. (1963). الصحاحي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها. م. الشويمي (محقق). بيروت: مؤسسة بدران للطباعة.
- ابن قريش، ي. (1984). الرسالة. د. بيكر (محقق). تل - أبيب. (بالعبرية)
- ابن منظور، م. (1994). لسان العرب. ط3. بيروت: دار صادر.
- أبو مطر، أ. (1994). الثقافة المصرية في زمن التطبيع. عمان: منشورات الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب.
- أذان، ح. وآخرون (2003). أن نكون مواطنين في إسرائيل. القدس: وزارة المعارف.
- أرمسترونغ، ق. (2004). محمد- السيرة الذاتية للنبي. صدر الكتاب باللغة الإنجليزية عام 1993. م. سيلع (مترجمة للعبرية). القدس: كيتز.
- أشار، ب. (1996). سوسولوجيا اللغة. ع. تزو (مترجم). بيروت: عويدات.
- أغمون - فروخطمان، م. وألون، ع. (1994). فصول في تأريخ اللغة العبرية، الوحدة الثامنة، إحياء العبرية. تل - أبيب: الجامعة المفتوحة. (بالعبرية)

- أفنيؤون، إ. (1997). قاموس سبير - معجم عبري - عبري مركز بأسلوب الحاضر. تل - أبيب: هيد أرتسي وإيتيفاف. (بالعبرية)
- أفنييري، ي (1946). سيطرة العبرية في عصرنا. تل - أبيب: الكيبوتس الموحد. (بالعبرية)
- ألفي - شبتاي، إ. (1999). سياسة التعددية اللغوية في نيجيريا: إسقاطاتها على السياسة الأحادية اللغوية في إسرائيل. حلقات لاشون، 28، 100-125. (بالعبرية)
- إليس، إ. وإسلر، أ. (1999). تأريخ العالم: علاقات بالحاضر. الولايات المتحدة الأمريكية: برنتس هول.
- أمارة، م. (محرر) (2002). مقدمة: اللغة والهوية. ضمن كتاب: اللغة والهوية في إسرائيل. رام الله: مدار، المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية: 13-27.
- أمارة، م. (2002). العبرية لدى العرب في إسرائيل: نظرة اجتماعية لغوية. تعوداه، 18، 85-105. (بالعبرية)
- أمارة، م. (2005). نموذج ثنائية اللغة - الخاص بجمعية "يدًا بيد". ن. المغربي (مترجمة). مركز التربية العربي اليهودي في إسرائيل: يدًا بيد.
- أمارة، م. ومرعي، ع. (1999). قضايا في سياسة التعليم اللغوي في المدارس العربية في إسرائيل. جبغات حبيبه: المركز اليهودي - العربي للسلام. (بالعبرية)
- أمارة، م. ومرعي، ع. (2004). سياسة التربية اللغوية تجاه المواطنين العرب في إسرائيل. مركز دراسات الأدب العربي في بيت - بيرل و أ. دار الهدى، كفر قرع.
- أمارة، م. ومرعي، ع. (2008). اللغة في الصراع - قراءة تحليلية في المفاهيم اللغوية حول الصراع العربي - الإسرائيلي. كفر قرع: دار الهدى، الأردن: دار الفكر.
- أمين، أ. (1964). فجر الاسلام. ط9. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.
- أمين، ع. (1967). في اللغة والفكر. القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية.

- أنيس، إ. (1965). في اللهجات المصرية. ط3. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.
- أنيس، إ. (1970). اللغة بين القومية والعالمية. القاهرة: دار المعارف بمصر.
- أنيس، إ. (1971). الأصوات اللغوية. القاهرة: المكتبة الأنجلو - مصرية.
- أنيس، إ. (1972). من أسرار اللغة. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الرابعة، القاهرة.
- أنيس، إ. (1992). دلالة الألفاظ. القاهرة: المكتبة الأنجلو - مصرية.
- أنيس، إ. (1992أ). في اللهجات العربية. القاهرة: المكتبة الأنجلو - مصرية.
- الأوارغي، م. (2002). التعدد اللغوي - انعكاساته على النسيج الاجتماعي. المغرب: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية. سلسلة بحوث ودراسات رقم 36.
- بادربوش، ش. (1967). اللغة العبرية في إسرائيل وفي الشعوب. القدس: دن. (بالعبرية)
- بار - جال، ي. (1986). دخول واستيطان العرب في الناصرة العليا: شهادات أولية. ضمن كتاب: نماذج السكن والهجرة الداخلية لدى العرب في إسرائيل. أ. سوفير (محرر)، حيفا: المركز اليهودي - العربي، جامعة حيفا: 51-63. (بالعبرية)
- بار - يوسف، أ. (1981). مقدمة لتاريخ اللغة العبرية. تل - أبيب: أور عام. (بالعبرية).
- بدوي، م. س. (1973). مستويات العربية المعاصرة في مصر. القاهرة: دن.
- برجستراسر. (1929). التطور النحوي. القاهرة: مطبعة السماح.
- بروش، ح. (1996). المعلم الوليد في تدريس اللغة: معلم عربي في المدارس العبرية عيونيم بحينوخ، 1، 33-61. (بالعبرية)
- بروكلمان، ك. (1961). تاريخ الأدب العربي. ج1. مصر: دار المعارف.

- بصل، إ. (2007). تدريس العبرية كلغة ثانية للتلاميذ العرب: بين تداخل لغة الأم وبين مساهمة النحو المقارن. ضمن كتاب أبحاث في الفكر، التربية والعلوم- كتاب اليوبيل الذهبي لتكريم الدكتور نجيب نبواني. س. عليان وآخرون (إعداد). حيفا: معهد الدراسات للتعددية الثقافية، الكلية الأكاديمية العربية للتربية في إسرائيل: 101-133. (بالعبرية)
- بلاو، ي. (1976). إحياء العبرية وإحياء العربية الفصحى - خطوط موازية وفاصلة. القدس: مجمع اللغة العبرية. (بالعبرية)
- بلاو، ي. (1996). إحياء العبرية وإحياء العربية الفصحى - خطوط موازية وفاصلة. صدر في كتاب: دراسات في علم اللغة العبرية. دراسات لبلاو أشرف بنفسه على تحريرها، القدس: ماغنس: 290-311. (بالعبرية)
- بن أور، أ. (1975). تأريخ الأدب العبري الحديث. ج 1. تل- أبيب: يزرعيلي. (بالعبرية)
- بن بارون، إ. (1971). كتاب الموازنة. القدس. (بالعبرية)
- بن بارون، إ. (1999). الموازنة بين اللغة العبرانية والعربية. أ.م. هويدي (مترجم). سلسلة الدراسات الأدبية واللغوية، العدد الرابع. القاهرة: مركز الدراسات الشرقية، جامعة القاهرة.
- ابن حاييم، ز. (1985). التوحد التاريخي للغة العبرية وكيفية تقسيمها لفترات. دراسات في اللغة، ج 1، 3-25. (بالعبرية)
- بن حاييم، ز. (1992). اللغة في حربها. القدس: مجمع اللغة العبرية. (بالعبرية)
- بن رفائيل، إ. (خريف، 1998). انتصار 'اللغة المنخفضة' - الحريديم يتقلون تدريجيًا وبخطى حثيثة للتحدث بالعبرية. بانيم، 7، 38-44. (بالعبرية)

- بن رفائيل، إ. (2008). الكيبوتس في المرأة. مفنيه، 56-57، 81-86. (بالعبرية)
- بن رفائيل، إ.، أولشتاين، ع. و غايطس، ع. (1994). توجهات في اللغة والهوية: استيعاب القادمين من الاتحاد السوفياتي سابقاً. القدس: المعهد لدراسة التنمية في التربية، مدرسة التربية، الجامعة العبرية. (بالعبرية)
- بن غوريون، د. (1952). تصورات وطريق. ج3. تل- أبيب: حزب عمال أرض إسرائيل. (بالعبرية)
- بن غوريون، د. (1975). دولة إسرائيل المتجددة. تل- أبيب: عام عوفيد. (بالعبرية)
- بن يهود، إ. (1978). الحلم وانكساره- نخبة من المؤلفات في شؤون اللغة، ر. سيفان (محقق) القدس: د.ن. (بالعبرية)
- بنبنستي، م. (2001). المشهد المقدس: طمس تاريخ الأرض المقدسة منذ عام 1948، س. مسلم (مترجم). رام الله: مدار.
- بيرمان، ر. (1989). العبرية كقوة موحدة في تربية اليهود في الشتات. المؤتمر الدولي الثاني لتربية اليهود في الشتات. تل- أبيب: 105-114. (بالعبرية)
- بيقر، ر. (1957). إحياء العبرية من وجهة نظر إحصائية. لشونينو لعام. 8، 41-68. (بالعبرية)
- تقرير دوفرات (2005). العلاقات المتبادلة و"التقريب" بين العرب واليهود. القدس: وزارة التربية والتعليم. (بالعبرية)
- تيمور، م. (1952). مشكلات اللغة العربية. القاهرة: د.ن.
- ثارو، ل. (ديسمبر، 1995). الصراع على القمة مستقبل المنافسة الاقتصادية بين أمريكا واليابان. أ.ف. بلبع (مترجم). سلسلة عالم المعرفة، العدد 204. الكويت: د.ن.

- الثعالبي، ع. (1972). فقه اللغة وسر العربية. م. السقا وآخرون (تحقيق). القاهرة: مكتبة البابي الحلبي.
- جاد، م. ع. (2003). صعوبات التعلم في اللغة العربية. عمان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- الجرف، ر. (مارس، 2004). مواقف الشباب تجاه استعمال اللغتين العربية والإنجليزية في التدريس. ديوان العرب.
- جيروم، ج. (1995). الشاعر والشكل - دليل الشاعر. ص. محمد وع. القعود (ترجمة). الرياض: دن.
- الجيلاني، إ. ب. (1997). علم الترجمة وفضل العربية على اللغات. القاهرة: المكتب العربي للمعارف.
- الحاج، م. (1996). التعليم لدى العرب في إسرائيل: سيطرة وتغيير اجتماعي. القدس: الجامعة العبرية - ماغنيس. (بالعبرية)
- حبيبي، إ. (1989). سداسية الأيام الستة، المتشائل وقصص أخرى. القاهرة: دائرة الثقافة م-ت-ف، ودار الثقافة الجديدة، طبعة خاصة.
- حجازي، م. ف. (1990). علم اللغة بين التراث والمناهج الحديثة. مصر: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع.
- حجازي (1992). محمود فهمي حجازي، علم اللغة العربية - مدخل تاريخي مقارنة في ضوء التراث واللغات السامية، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.
- حجازي، م. ف. (1998). اللغة العربية في العصر الحديث. القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع.
- الحريري، ق. (د.ت.). شرح مقامات الحريري. بيروت: المكتبة الشعبية.

- حسام الدين، ك.ز. (2002). العربية تطور وتاريخ - دراسة تاريخية في نشأة العربية والخط وانتشارهما. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.
- الحصري، س. (1971). قضية الفصحى والعامية. نقلاً عن كتابه: آراء وأحاديث في اللغة والأدب. القاهرة: د.ن: 42-49.
- الحضراوي، م. (2004). تنقيح القرآن لعبة التأويل والنص القرآني. الإسلام وقضايا العصر. القاهرة: د.ن: 3.4.2004.
- حماد، أ.ع. (1983). عوامل التطور اللغوي - دراسة في نمو وتطور الثروة اللغوية. بيروت: دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع.
- الحموي، ي. (د.ت). إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب. القاهرة: د.ن.
- حومسكي، ز. (1977). اللغة العبرية في طريق تطورها. ط3. تل - أبيب: رؤوين ماس. (بالعبرية)
- الخطيب، ح. (1995). اللغة العربية - إضاءات عصرية. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- خسارة، م. (1994). التعريب والتنمية اللغوية. دمشق: الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع.
- خشيم، ع. ف. (2001). رحلة الكلمات - الرحلة الأولى. القاهرة: مركز الحضارة العربية.
- خليل، ح. (1988). العربية وعلم اللغة البنيوي: دراسة في الفكر اللغوي الحديث. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.
- داود، م. (2003). اللغة والسياسة في عالم ما بعد 11 سبتمبر. القاهرة: دار غريب.
- درويش، م. (2002). حالة حصار. بيروت: مطبعة رياض الريس.

- دمج، ن. (1997). *تحولات منهجية في مسار الصراع العربي-الإسرائيلي*. عكا: مؤسسة الأسوار.
- دنا، ي. (1995). نماذج لغوية متشابهة لمفردات بالعبرية والعربية. دارنا، 188-199. (بالعبرية)
- دنا، ي. (2002). *العبرية-العربية على مدار الزمان*. حيفا: المعهد للبحث المقارن للغتين العربية والعبرية، الكلية العربية للتربية في إسرائيل. (بالعبرية)
- دولة إسرائيل (2004). *دائرة الإحصاء المركزية. القدس: الدورية الإحصائية الإسرائيلية*. (بالعبرية)
- راين، ح. (1975). ماهية التحدث بالعبرية قبل فترة الانبعاث. لشونينو لعام، 26، 227-233. (بالعبرية)
- راين، ح. (1976). *أسس تأريخ اللغة العبرية*. ط3. القدس: المهستدروت الصهيونية العالمية، قسم التربية والثقافة التوراتية. (بالعبرية)
- راين، ح. (1979). *مميزات اللغات اليهودية*. بعاميم، 1، 40-45. (بالعبرية)
- رفائيل، ش. (1992). *الرومانسة الإسبانية اليهودية (اللادينو)*، مجلة معلمي الأدب، 13، 174-184. (بالعبرية)
- روبنشتاين، أ. (1991). *القضاء الدستوري لدولة إسرائيل*. ج1-2. تل-أبيب: شوكن. (بالعبرية)
- روزنبلوم، ع. وطريغر، ت. (2007). *بدون كلمات- الثقافة الإسرائيلية في مرآة اللغة*. أور يهودا: كنيرت، زموراه-بيتان، دفير. (بالعبرية)
- روزنتال، ر. (2001). *الحلبة اللغوية- صورة اللغة العبرية الإسرائيلية*. تل-أبيب: عام عوفيد. (بالعبرية)

- روزنتال، ر. (2004). حدة اللغة- حوار حول العبرية الإسرائيلية. تل-أبيب: عام عوفيد. (بالعبرية)
- ريشف، ش. ودرور، ي. (1999). التعليم العبري في فترة البيت القومي. القدس: مؤسسة بيباليك. (بالعبرية)
- زاخ، ن. (خريف، 1998). حول وضع العبرية- مكانة اللغة بين الطهارة و"المحادثة الدارجة". بانيم، 7، 3-9. (بالعبرية)
- زهران، ب. (1981). في علم اللغة التاريخي. القاهرة: دار المعارف.
- زيدان، ج. (د.ت.). اللغة العربية كائن حي. بيروت: دار الهلال.
- زيف، ي. (2005). لحظة لمعرفة المكان: القصص من وراء أسماء الأماكن. القدس: تسفعونيم. (بالعبرية)
- سبان، إ. (2002). الحقوق الجماعية للأقلية العربية - الفلسطينية: الوجود، غير الوجود ومجال التابو. عيوني مشباط، 26 (1)، 316-241. (بالعبرية)
- سبان، إ. وأمارة، م. (2004). مكانة اللغة العربية في إسرائيل: قضاء، واقع وحدود استخدام القضاء لتغيير الواقع. مديناه وحفراه، 4 (1)، 885-910. (بالعبرية)
- سبولسكي، ب. (2002). دور الإنجليزية في الهوية الإسرائيلية، ضمن كتاب: اللغة والهوية في إسرائيل. رام الله: مدار- المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية، 121-138.
- سبولسكي، ب. وشوهمي، إ. (1997). التربية اللغوية في إسرائيل: مشروع تطوير السياسة اللغوية. تقرير قُدّم إلى السكرتارية التربوية في وزارة المعارف والثقافة، القدس. (بالعبرية)

- سدان، د. (1972). النقاش وما يعادله: بين سلطة الأدب وحق الكتاب. القدس: دفير.
(بالعبرية)
- سغيف، د. (1985). قاموس عبري-عربي للغة العبرية المعاصرة. نيو-يورك: د.ن.
- سموحه، س. (1996). ديموقراطية إثنية-إسرائيل كأنموذج. ضمن كتاب:
الصهيونية: جدل معاصر. ب. غينوسار وآ. بارثيلي (تحرير). بئر السبع: جامعة بن
غوريون. (بالعبرية)
- سموحه، س. (1998). عشرون سنة على استبانة المواقف: الوسط العربي في إسرائيل
كأساس لتحديد اتجاهات التغيير في الهوية والميول السياسية. ضمن كتاب: حقيقة
واستبانة. ق. فوكس وش. بار-ليف (تحرير). الكيبوتس الموحد، 173-198.
(بالعبرية)
- سوفير، أ. (1988). الوضع الديموغرافي والجغرافي في أرض إسرائيل: هل حقاً نهاية
الحلم الصهيوني؟. حيفا: جامعة حيفا. (بالعبرية)
- سيفان، ر. (1984). حول قضية حرب اللغات. لشونينو لعام، 25، 99-114.
(بالعبرية)
- الشابي، ع. (1995). اللغة العربية والشعوب الإسلامية. ضمن كتاب: من قضايا اللغة
العربية المعاصرة. تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 56-68.
- الشدياق، أ. ف. (1299هـ). الواسطة في معرفة أحوال مالطة. القسطنطينية: مطبعة
الجوائب.
- شحادة، ح. (2008). حول إحياء اللغة العبرية المحكية والعربية الفصحى الحديثة. بين
غير وعرف، كتاب التكريم للبروفسور أمنون شيلوح. 4، 256-268.

- شفارتسولد، أ. (1994). فصول في تأريخ اللغة العبرية. الوجدتان التاسعة والعاشر، العبرية المعاصرة. تل- أيب: الجامعة المفتوحة. (بالعبرية)
- شفيد، إ. (1974). اليهودي المنعزل واليهودية، عام عوفيد، تل- أيب. (بالعبرية)
- شلمون، ش. (1957). تدريس العبرية والعربية في المدرسة العربية الابتدائية. مغاموت. 8، 93-97. (بالعبرية)
- شلمون، ش. (1968). اللغة العربية: تدريسها كلغة أم. الموسوعة التربوية. 2، 702-725. (بالعبرية)
- شليزغر، ي. (1994). فصول في تأريخ اللغة العبرية. الجامعة المفتوحة، الوحدة الحادية عشرة، العبرية المعاصرة المكتوبة، تل- أيب: د.ن. (بالعبرية)
- شمائي، ش. (محرر) (1990). الدروز في الجولان في الماضي والحاضر. حيفا: المعهد لدراسة الجولان، وزارة العلم والتكنولوجيا، جامعة حيفا. (بالعبرية)
- شوحيط، ن. (1990). الاحتفال المشترك لعام اللغة العبرية والعربية. لقاء، 13-14، 109-121.
- شوهامي، إ. (1996). قضايا في السياسة اللغوية في إسرائيل: لغة وأيديولوجيا. في كتاب: التربية نحو القرن الواحد والعشرين، د. حين (محرر)، جامعة تل-أيب: د.ن، 249-256. (بالعبرية)
- ضيف، ش. (1984). مجمع اللغة العربية في خمسين عامًا. القاهرة: مجمع اللغة العربية.
- طعيمة، ر. (1998). الثقافة العربية الإسلامية: بين التأليف والتدريس. القاهرة: دار الفكر العربي.
- طنوس، ج. (2006). معجم الوفاق عربي-عربي، معجم الكلمات المتشابهة بين العربية وبين العبرية. عكا: أبو رحمون.

- ظاظا، ح. (1971). اللسان والإنسان. مصر: دار المعارف بالإسكندرية.
- العابد، إ. (1968). سياسة إسرائيل الخارجية، أهدافها، ووسائلها وأدواتها. بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث.
- عبابنة، ي. والزعبي، آ. (2005). علم اللغة المعاصر - مقدمات وتطبيقات. الأردن: دار الكتاب الثقافي.
- عبد التواب، ر. (1983). في قواعد الساميات. القاهرة: مكتبة الخانجي.
- عبد العزيز، م. ح. (1990). التعريب في القديم والحديث. القاهرة: دار الفكر العربي.
- عبد العزيز، م. ح. (1996). مدخل إلى اللغة. ط3. الكويت: دار الكتاب الجامعي للنشر والتوزيع.
- عبد الله، م. (2007). أطفالنا ومستقبل اللغة العربية. العربي، 587، 106-111.
- عبد الواحد، ع. (1971). اللغة والمجتمع. القاهرة: دار نهضة مصر.
- عقابيه، أ. (1992). ولادة لغة: اللغة العسكرية العبرية وتطورها. حيفا: ماغين. (بالعبرية)
- العطاري، ع. (د.ت). التربية اليهودية. عمان: دن.
- العمروري، م. وآخرون (1983). تأثير تدريس اللغات الأجنبية على تدريس اللغة العربية. تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.
- الحاج علي، هـ. (2002). محمود درويش... وطن في قصيدة. مجلة مجاهيل ومشاهير - ثقافية وفنية، القاهرة، 19.6.2002.
- العلي، ف. (1998). المرشد الفني لتدريس اللغة العربية. الأردن: مكتبة دار الثقافة.
- العلوي، هـ. (1997). قاموس الإنسان والمجتمع. بيروت: دار الكنوز الأدبية.

- غالنرط، أ. (1989). المعجم التاريخي مرآة للمنحى الاجتماعي: تحليل المفردات اللغوية لاختصار كتاب الفرائض الدينية اليهودية. بيقورت أوفرشنتوت، 25، 77- 88. (بالعبرية)
- غالوسكا، ي. (1999). التواصل بين العبرية والآرامية في عصر التنايم: نظرة اجتماعية لغوية. تل- أبيب: بابيروس، جامعة تل- أبيب. (بالعبرية)
- السيد غانم، ك. (1990). اللغة العربية والصحة العلمية الحديثة. مصر: د.ن.
- غاؤون (1969). راف سعاديا غاؤون، كتاب أصول الشعر العبراني. أشرف على إصداره نحميا ألوني. القدس: مجمع اللغة العبرية. (بالعبرية)
- غونطوبنك (1999). غرشون غونطوبنك، "القضاء القانوني: اتجاهات تطور بعد الثورة القانونية" عيوني مشباط، عدد 22(1)، ص 129- 174. (بالعبرية)
- غونين، ع. وخميسي، ر. (1992). اتجاهات في توزيع السكان العرب في إسرائيل (نسخة مصورة). القدس: معهد فلورسهايمر للدراسات السياسية. (بالعبرية)
- غولاني، م. (2002). الحروب لا تحدث من تلقاء نفسها. تل-أبيب: مودان للنشر. (بالعبرية)
- غياث، ب. (2005). تحولات ثقافية. الجزائر: دار الغرب للنشر والتوزيع.
- فالدن، ت. (1991). توسيط وليس انصهار: استيعاب لغوي مباشر في المدرسة. صدى التربية، 26، ج 1، 20-21. (بالعبرية)
- فايد، و.ك. (2003). بحوث في العربية المعاصرة. القاهرة: عالم الكتب.
- فرخطمان، م.أ. وألون، ع. (1994). فصول في تأريخ اللغة العبرية، الوحدة الثامنة. تل- أبيب: الجامعة المفتوحة. (بالعبرية)

- فايس، ر. (1961). حول تجديدات إلعيزر بن يهودا. لشونينو لعام، 12، 143-148.
(بالعبرية)
- الفحام، ش. (د. ت). تعريب التعليم وأثره في مستقبل اللغة العربية. المجلة العربية للثقافة، 22، 6-23.
- فندريس، ج. (1950). اللغة. ع. الدواخلي وم. القصاص (ترجمة)، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.
- فراغمن، أ. (2007). الطالب المثابر أتى الأسبوع الماضي إلى المدرسة فرحاً مسروراً. الرسالة، 14، 31-46.
- فك، ي. (1951). العربية- دراسات في اللغة واللهجات والأساليب. ع. النجار (مترجم)، القاهرة: مكتبة الخانجي.
- فيشر، و. ويسترو أ. (2001). مرشد لدراسة اللهجات العربية. ر. طلمون (مترجم). القدس: ماغنس. (بالعبرية)
- فيشرمان، ح. (2001). اللغة كمرآة المجتمع: نظرة على اللغة العبرية في السنوات الأولى لإنشاء الدولة. إيغرت ميداع لموري هلاشون، 48، 32-40. (بالعبرية)
- فيصل، ش. (1966). المجتمعات الإسلامية في القرن الأول. بيروت: دار العلم للملايين.
- الفيصل، س. ر. (1992). المشكلة اللغوية العربية. طرابلس-لبنان: جروس برس.
- قبيلي، ر. (1991). اختبارات مذبجة، معرفة اللغة والفهم والتعبير. تل-أبيب: دن. (بالعبرية)
- قداري، م. (1978). دراسة في تاريخ اللغة العبرية المعاصرة. بيقورت أوفرشنوات. 11-12، 5-17. (بالعبرية)

- قداري، م. (2004). فصول في تاريخ اللغة العبرية، الوحدة الأولى - المقدمة. تل - أبيب: الجامعة المفتوحة. (بالعبرية)
- قنطور، هـ. (1994). حول تعابير لغوية 'إينيم' في لغة الصحافة. بسيفاس، مجموعة مقالات، 2، 21-30. (بالعبرية)
- قيمرون، أ. (2004). فصول في تاريخ الأدب العبري، الوحدة الثانية، العبرية فترة الهيكل الثاني. تل - أبيب: الجامعة المفتوحة. (بالعبرية)
- كردي، م. (1990). كردستان والأكراد. بيروت: د.ن.
- كرمي، ش. (1997). شعب واحد ولغة واحدة: إحياء اللغة العبرية من وجهة نظر متعددة التخصصات: السيرة والمصادر، تل - أبيب: وزارة الدفاع. (بالعبرية)
- كنعاني، ي. (1972). معجم تجديدات إيتار بن يهودا. القدس: د.ن. (بالعبرية)
- كولماس، ف. (2000). اللغة والاقتصاد. أ. عوض (مترجم). سلسلة عالم المعرفة، العدد 263. الكويت: د.ن.
- لاتسروس، ح.ي. (1967). خطوط عريضة لدراسة كتب التدريس العبرية. همزراح هحداش، 3-4، 207-221. (بالعبرية)
- لاتسروس، ح.ي. (1991). نظرة اليهود للقرآن. سبونوت، مج 20، 37-47. (بالعبرية)
- لاندو، ي.م. (1993). الأقلية العبرية في إسرائيل. تل - أبيب: عام عوفيد. (بالعبرية)
- لانغ، ي. (2008). تحدث بالعبرية: حياة إلعيزر بن يهودا. جزآن. القدس: ياد يتسحاق بن تسفي. (بالعبرية)
- ليفشيتس، إ. (1990). سنة اللغة العبرية. القدس: وزارة المعارف والثقافة، قسم المناهج التعليمية. (بالعبرية)

- ليفين، أ. (1995). قواعد اللهجة العربية في القدس. القدس: ماغنس. (بالعبرية)
- مذكور، إ. (1964). مجمع اللغة العربية في ثلاثين عامًا: ماضيه وحاضره. القاهرة: الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية.
- محفوظ، ح. ع. (د.ت). أثر اللغة العربية في اللغة الفارسية. البحوث والمحاضرات مجلد 40، القاهرة: مجمع اللغة العربية بالقاهرة.
- محفوظ، ح. ع. (1981). أثر العربية في اللغات الشرقية. مجلة المورد العراقي، 4، 215-231.
- مرحافيا، ح. م. (1943). كنز الوثائق السياسية. القدس: د.ن. (بالعبرية)
- مرعي، ع. (2001). نحو تنمية الوعي اللغوي. الرسالة، 45-61.
- مرعي، ع. (2004). تدريس العربية في العالم العربي وفي إسرائيل. تقرير قُدِّم إلى المركز التكنولوجي التربوي، تل-أبيب (التقرير كتب بالعبرية ولم ينشر).
- مرعي، ع. (2006). عبرة أسماء البلدات والمواقع الفلسطينية: انعكاس وامتداد للصراع الإسرائيلي- الفلسطيني. طمرة: جمعية ابن خلدون.
- مرعي، ع. (2008). الأدب العبري في الأندلس بين التقليد والتجديد. الأردن: دار الفكر.
- مرعي، ع. وأمانة، م. (2002). فحص مناهج التعليم لتدريس العربية والعبرية للتلاميذ العرب. ضمن كتاب: القيم والأهداف في مناهج التعليم الإسرائيلية. ع. هوفمن وإ. شنيل (تحرير). رينخس وكلية بيت-بيرل، 101-127. (بالعبرية)
- المسيري، ع. (مارس 1995). الخصوصية اليهودية. إبداع، 3، 16-18.
- المصري، ح. م. (1984). المعجم الفارسي العربي الجامع. القاهرة: المكتبة الأنجلو المصرية.

- مطر، س. (2003). جدل الهويات. ن. مردان، ش. دنحو، ع. البرزنجي، وأ. م. الأموي (إعداد)، بيروت- عمان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- مطر، ع. (1985). أحاديث إذاعية في الأخطاء الشائعة. قطر: دار قطري بن الفجاءة.
- مغيد، ح. (1984). تأريخ لغتنا. تل-أبيب: قرني. (بالعبرية)
- مقتطفات وثائقية. (1970). القدس: مجمع اللغة العبرية. (بالعبرية)
- الملا، م. ع. (1995). اللغة العربية رؤية علمية وبعد جديد. القاهرة: زهراء الشرق.
- المناصرة، ع. (2004). الهويات والتعددية اللغوية: قراءات في ضوء النقد الثقافي المقارن. عمان: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع.
- منصور، ج. (1999). شوارع حيفا العبرية. حيفا: جمعية التطوير الاجتماعي.
- موتشنيك، م. (2004). لغة 'الجنوبيين' المنعكسة في كتابة دودو بوسي. حلقات لاشون، 35، 5-19. (بالعبرية)
- موراغ، ش. (2004). دراسات في العبرية على عصورها المختلفة. م. بار-آشر، ي. برويار، أ. ممان (تحرير)، القدس: ماغنس، الجامعة العبرية. (بالعبرية)
- الموسوعة الفلسطينية، "المنظمة الصهيونية العالمية" (1984). ط 1. مج 4. دمشق: هيئة الموسوعة الفلسطينية، 328-333.
- ميخائيل، س. (2000). حدود الإنسانية- روبيك روزنطال يحاور سامي ميخائيل. تل-أبيب: منشورات الكمبيوتر الموحد. (بالعبرية)
- النعماني، أ. ا. (1980). التركيب الاجتماعي للمجتمع الإسرائيلي وأثره على النسق السياسي 1948-1975. القاهرة: مكتبة نهضة الشرق.
- نولكه، ت. (1963). اللغات السامية. ر. عبد التواب (مترجم). القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

- نويمن، ب. (2001). جندي جيد. تل-أبيب: دار زموراه- بيتان للنشر. (بالعبرية)
- نير، ر. (1993). طرائق تكوين المعجمية في اللغة العبرية المعاصرة. تل-أبيب: الجامعة المفتوحة. (بالعبرية)
- نير، ر. (خريف، 1998). التصحيح السياسي اللغوي، اللغة النظيفة وتغذية اللغة. بانيم، 7، 19-26. (بالعبرية)
- هاراتي، ن. وإلحنان- غرانيك، آ. (2002). العمال الأجانب واللغة في إسرائيل. ضمن كتاب: اللغة والهوية في إسرائيل. م. أمارة (محرر)، رام الله: مدار- المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية، 205-235.
- هرئيل- شاليف، أ. (2005). مكانة لغات الأقليات في مجتمعات متصدعة- لغة الأوردو في الهند واللغة العربية في إسرائيل من وجهة نظر مقارنة. تل-أبيب: جامعة تل-أبيب. (بالعبرية)
- هرماتي، ش. (1978). ثلاثة سبقوا إلعيزر بن يهودا. القدس: يد بن تسفي. (بالعبرية)
- هرماتي، ش. (1979). بداية التعليم العبري في البلاد ومساهمته في إحياء اللغة. القدس: رؤوين ماس. (بالعبرية)
- هرماتي، ش. (1992). عبرية حية على مر الأجيال. ريشون لتسيون: د.ن. (بالعبرية)
- هرماني، ش. (1992أ). سر محادثة (التحدث بالعبرية من القرن الخامس عشر إلى القرن التاسع عشر). تل-أبيب: غولان. (بالعبرية)
- هرماتي، ش. (1996). لاويين في معبد العبرية- إضاءات جديدة على صلة ثمانية رجال متدينين يهود بالعبرية مرت بعملية الإحياء كتابة ومحادثة. تل-أبيب: عميحاي. (بالعبرية)

- هرماتي، ش. (2001). بن يهودا، مربيات رياض الأطفال وإحياء العبرية المحكية. صدى التربية، مج 75 (10)، 22-25. (بالعبرية)
- هلال، ع. (2004). التربية بين الكونية والخصوصية الثقافية: قراءة تربوية في الجدل بين العولمة الشمولية والعولمة الليبرالية. ضمن كتاب: تربية العولمة وتحديث المجتمع. لمجموعة من المؤلفين. سلسلة الدراسات التربوية. القاهرة: فرحة للنشر والتوزيع.
- الهلالي، ص. (1986). تعليم الطب بالعربية في الجامعات العربية. شؤون عربية، 47، 102-113.
- هيكل، م. ح. (1986). شهود العصر. القاهرة: مركز الأهرام.
- وزارة المعارف. (1987). منهاج تعليم اللغة العبرية وآدابها في المدارس العربية. القدس: قسم مناهج التعليم، المركز التربوي. (بالعبرية)
- وزارة المعارف. (1990). رسالة خاصة لسنة اللغة العبرية. القدس: الإدارة البداعوغية. (بالعبرية)
- وزارة المعارف. (1991). الكرة الأرضية في مسارها. القدس: الإدارة البداعوغية. (مترجم من العبرية)
- وزارة المعارف. (1996). سياسة التربية اللغوية في إسرائيل. القدس: منشور خاص لمدير عام الوزارة. (بالعبرية)
- وزارة المعارف. (1998). نتائج المردود القطري في جهاز التعليم، لغة الأم العربية. الصفوف الرابعة والثامنة. وزارة المعارف والثقافة والمركز القطري للامتحانات والتقييم. (بالعبرية)
- اليسوعي، ر. ن. (1929). غرائب اللغة العربية. بيروت: المطبعة الكاثوليكية.
- يعقوب، إ. (1982). فقه اللغة العربية وخصائصها. بيروت: دار العلم للملايين.

- يعقوب، إ. (1986). معجم الخطأ والصواب في اللغة. بيروت: دار العلم للملايين.

المراجع باللغة الإنجليزية

- Al-Haj, M. & Lishem, E. (2000). *Immigrats from the Former Soviet Union in Israel: Ten Years Later. A Research report*. University of Haifa: The Center for Multiculturalism and Educational Research .
- Amara, M. & Mari, A. (2002). *Language Education Policy: The Arab Minority in Israel*. s.l.: Kluwer Academic Publisher.
- Anderson, B. (1991). *Imagined Communities: Reflections on the Origin and Spread of Nationalism*. Veros.
- Ayari, S. (1996). Diglossia and Illiteracy in the Arab World. *Language. Culture and Curriculum*, 9, 243- 252.
- Bar-Gal, Y. (1989). Cultural- Geographical Aspects if Street Names in the Towns of Israel. *Name*, 37(4), 329-344.
- Bar-Gal, Y. (1993). Boundaries as a Topic in Geographic Education: The of Israel. *Political Geography*, 12(5), 421- 435.
- Ben-Rafael, E. (1994). *Language Identity and Social Division: The Case of Israel*. s.l.: Oxford Studies in Language Contact.
- Ben-Rafael, E., Shohamy, E., Amara, M. & Trumer-Hecht, N. (2004). *Linguistic Landscape and Multiculturalism: A Jewish- Arab Comparative Study* (final report). Tel Aviv: The Tami Steinmetz Center for Peace Research.
- Apte, M. L. (1976). Multilinguism in India and Its Socio-Political Implication: An Overview. in *Language and Politics* W. O'Barr & J. F. O'Ba (Eds.), Mouto, 141- 157 .

- Barzilai, G. (2003). *Communities and Low: Politics and Cultures of Leal Identities*. s.l.: University of Michigan Press.
- Blanc, H. (1968). *The Israeli Konie as an Emegrent National Standard, in: Language Problems of Developing Nations*. J.A. Fishman (ed.). New-York, 237-251 .
- Bloomfield, L. (1961). *Language*, Holt, Rinehart and Winston. U. S.A .
- Bo S. (1993). *Practical Lexicography*. Oxford University Press.
- Bolinger, D. (1975). *Aspects of Language*. Harcourt Brace Jovanovich. Inco .
- Bosch, B. (2000). Ethnicity Markers in Afrikaans. *International Journal of the Sociology of Language*, 144, 51-68.
- Cohen, I. (1918). *The German Attack on the Hebrew Schools in Palestine*. London: Jewish Chronicle and Jewish World .
- Cooper, L. R. (1985). Fantastic! Israel Attitudes Towards English. In *The English Language Today*. S. Greenbaum (Eds.). Oxford: Pergamon Institute of English. 233-241 .
- Corder, S. P. (1975). *An Introducing Applied Linguistic*. Penguin edition, London.
- Crawford, J. 1997. *Best Evidence: Research Foundations of Bilingual Education Act*. Washington, D.C.:Unpublished manuscript.
- Crystal, D. (1995). *The Cambridge Encyclopedia of Language*. CUP .
- Finn, J. (1878). *Starring Times*. London: s.n.
- Fishman, J.A. (1991). *Yiddish: Turning to life*. Amsterdam and Philadelphia.

- Fishman, J.A. (1991a). *Reversing Language Shift, Multilingual Maters*.
- Fromkin, V. & Rodman, R. (1978). *An Introduction to Languag*. 2nd ed. Holt, Rinehard & Winston.
- Gonen, J. W. (1975). *A Psychohistory of Zionism*. New- York: Mason Charter.
- Haarmann, H. (1999). History In Handbook of *Language and Ethnic Identity*. J.A. Fishman (Ed.). Oxford University Press, 60-76.
- Hallel, M. & Spolsky, B. (1993). The Teaching of Additional Language in Israel. *Annual Review of Applied Linguistics*, 13, 37- 49 .
- Hartmann, R.R.K. & Stork, F.C. (1973). *Dictionary of Language and Linguistics*. London : Applied Science Publishers.
- Harshiv, B. (1993). *Language in Time of Revolution*. s.l.: University of California Press.
- Hetzorn, R. (1997). *The Semitic Languages*. London: Routledge.
- Kimmerling, B. & Migdal, J. (1994). Palestinians: *The Making of People*. s.l.: Harvard University Press.
- Kook, R.B. (1999). Towards a Rrehabilitation of Nation Building and the Reconstruction of Nations. In *Ethnic Challenges to the Modern Nation State*. Ben Ami S., Peled Y.& Spektorowski A., Macmillan, (Eds), 42-64 .
- Koplewitz, I. (1992). Arabic in Israel: The Sociolinguistic Situation of Israel's Arab Minority. *International Journal of the Sociology of Language*, 98, 29-66 .

- Kraemer, R. (1990). *Social Psychological Factors Related to the Study of Arabic among Israeli Jewish High School Student*. (Ph.D. dissertation), Tel Aviv University .
- Lambert, R.D. (1995). *Language Policy: An Overview. Paper read at the International Symposium on Language Policy*. At Bar-Ilan University.
- Lambert, Richard D. (1999) .A Scaffolding for Language Policy, *International Journal of the Sociology of Language*, 137,pp 3- 26 .
- Lambert, W., Lambros M. & Donald M. T. (1986). Greek Canadianis Attitudes Toward Own Group and Other Canadian Ethnic Groups. *Canadian Journal of Behavioral Science*, 18, 35-51.
- Landry, R. & Bourhis, R.Y. (1997). Linguistic Landscape and Ethnolinguistic Vitality: An Empirical Study. *Journal of Language and Social Psychology*, 16, 23-49.
- Lipinski, E. (1997). *Semetic Languages, Outline of a Comparative Grammar*. Louvain: Uitgever ij en Department Oosterse Studies .
- Mark, Yde (1954). *A Study of the Frequency of Hebraisms in Yiddish*. New York.
- Martinet, A. (1962). *Elements of General Linguistics*, Faber and Faber. L.T.D, London .
- Pool, Jonathan (1991). The Offical Language Problem. *The American Political Science Review*, 85(2), 495- 514.
- Porter, S. (1968). *Language in Modern World*. London: Penguin Books .
- Robinson, R.H. (1967). *A Short History of Linguistics*. London.

- Sa'd, M. (1967). *Lexical Innovation through Borrowing in Modern Standard Arabic*. Princeton Near East, Princeton University.
- Saban, I. & Amara, M. (2004). The Status of Arabic in Israel: Reflection on the Power of Law to Produce Social Change. *Israel Law Review*, 36(2), 5- 39 .
- Shehadeh, H. (1994). *The Influence of Arabic on Modern Hebrew*. A Paper was Discussed in The Institut für Judaistik der Universität Wien .
- Shohamy, E. (1994). Issues of language planning in Israel: Language and Ideology. In *Language Planning Around the World*, R. L. Richard. (Ed.) Washington D.C.: National Foreign Language Center. 131-142.
- Shohamy, E. and Donitsa-Schmidt, S (1998). *Differences in Attitudes, Stereotypes and Priorities reading Hebrew and Arabic of Jews and Arabs in Israel*. Research Report. Tel Aviv University, School of Education.
- Sivan, R. (1980). *The Revival of the Hebrew Language*, Jerusalem.
- Skutnabb-Kangas, T., & Gracia, O. (eds.) (1995). *Multilingualism for all General Principles*. Lisse: Swets and Zeitlinger .
- Spolsky, B. (1996). *Hebrew and Israel Identity, in Language and Identity in the Middle East and North Africa*. Y. Suleiman, Curzon, (Eds.), 181-192 .
- Spolsky, B. (1996a). *English in Israel after Independence*. In Joshua A. Fishman & A. Rubal-Lopez & A. W. Conrad (Eds.). *Post-Imperial English* (535-556). Berlin & New York: Mouton de Gruyter .
- Spolsky, B. & Shohamy E. (1999). *Language of Israel: Policy, Ideology and Practice*. Clevedon: Multilingual Matters.

- Stahl, A. (1994). "The Imposition of Hebrew Names on New Immigrants to Israel: Past and Present". *Names*, 42 (4), pp 279-288.
- Sterkeyyeh, J. (1970). *The Modern Arabic Literary Language*. Chicago and London: Lexical and Stylistic Developments.
- Suleiman Y. (2004). *A War of Words: Language and Conflict in the Middle East*. Cambridge: s.n.
- Suleiman Y. (2003). *The Arabic Language and National Identity*. s.l.: Edinburgh University Press .
- Trask, R. L. (1999). *Language: The Basics*. London: Routledge.
- Tibawi, A.L. (1956). Education Policy and Arab Nationalism in Mandatory Palestine. *World of Islam*. n.s. iv, 15-29 .
- Versteegh, C.H.M (1977). *Greek Elements in Arabic Linguistic Thinking*. Leiden, Brill.
- Wright. T. (2002). Urdu in India. *Economic and Political Weekly*, Jan 12.